مسيرة قمرين

شارون كريتش

ترجمة سارة ياقوت

مسيرة قمرين

تأليف
شارون كريتش

ترجمة
سارة ياقوت

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

مسيرة قمرين

شارون كريتش

Walk Two Moons

Sharon Creech

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٢٩٧٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للكاتبة شارون كريتش، عناية رايترز هاوس، إل إل سي.

Copyright © 1994 by Sharon Creech.

المحتويات

١- وجه في النافذة	١١
٢- الصغيرة تروي قصة	١٣
٣- شجاعة	١٧
٤- هذا ما أنا بصدد قوله لكِ	٢١
٥- امرأة في ورطة	٢٧
٦- التوت البري	٣١
٧- إل-أه-نو-واي	٣٥
٨- المختل	٣٩
٩- الرسالة	٤٣
١٠- مرحى، مرحى	٤٧
١١- إجفال	٥١
١٢- فراش الزوجية	٥٧
١٣- بيركواي المرح	٦٣
١٤- شجيرة الورد	٦٥
١٥- لدغة ثعبان	٦٩
١٦- الشجرة الشادية	٧٣
١٧- على مدى عمر كامل	٧٥
١٨- الرجل الطيب	٧٩
١٩- أماني فارغة	٨٣
٢٠- قبلة بالتوت البري	٨٧

٢١- أرواح	٩٣
٢٢- أدلة	٩٥
٢٣- متنزه بادلاندز	١٠١
٢٤- طيور الحزن	١٠٧
٢٥- الكوليسترول	١١١
٢٦- تضحيات	١١٥
٢٧- صندوق باندورا	١١٩
٢٨- بلاك هيلز	١٢٣
٢٩- الموج يرتفع	١٢٧
٣٠- اقتحام	١٣٣
٣١- الصورة الفوتوغرافية	١٣٩
٣٢- قبلات بنكهة الدجاج والتوت البري	١٤٣
٣٣- الزائر	١٥١
٣٤- أولد فيثفول	١٥٥
٣٥- الخطة	١٥٩
٣٦- الزيارة	١٦٣
٣٧- قبلة	١٦٥
٣٨- بصقة	١٦٧
٣٩- العودة إلى البيت	١٧١
٤٠- الهدايا	١٧٧
٤١- الشُّرفة	١٨١
٤٢- الحافلة وشجرة الصفصاف	١٨٥
٤٣- عزيزتنا	١٨٩
٤٤- بايبانكس	١٩٣

لأختي وإخوتي: ساندي ودينيس ودوج وتوك، مع حبي، من الأخت المفضلة.

لا تحكم على أحد قبل أن تسير في دربه مسيرة قمرين.

الفصل الأول

وجه في النافذة

يقول جَدي إني فتاة ريفية في صميمي، وهو محق. فقد عشت أغلب سنوات عمري الثلاث عشرة في مدينة بايبانكس بولاية كنتاكي، وهي ليست سوى مجموعة من المنازل المحتشدة في بقعة خضراء بمحاذاة نهر أوهايو. قبل أكثر من عام، اقتلعني أبي كعشبة ضارة وأخذني وجميع ممتلكاتنا (كلا، هذا غير صحيح؛ فهو لم يأخذ شجرة الكستناء ولا الصَّفصافة ولا شجرة القَيْقب ولا شَوْنة التبن ولا رقعة السباحة، وهي الأشياء التي كانت جميعها من ممتلكاتي) وقاد السيارة مسافة ثلاثمائة ميل شمالًا ثم توقف أمام منزل في مدينة يوكليد بولاية أوهايو.

سألته: «ألا توجد أشجار؟ أهنا سنسكن؟»

قال أبي: «كلا. هذا منزل مارجريت.»

انفتح الباب الأمامي للمنزل وظهرَت سيدة ذات شعر أحمر مبعثر. تطَلَّعتُ إلى طرفَي الشارع. كانت المنازل كلها محتشدة مثل صف من بيوت الطيور. أمام كل منزل كانت توجد رقعة مربعة صغيرة من العشب، يمتد أمامها مسار جانبي رمادي ضيق بمحاذاة شارع رمادي.

سألت: «أين الحظيرة؟ أين النهر؟ أين رقعة السباحة؟»

قال أبي: «آه يا سال، هَلُمِّي. ها هي مارجريت.» لوَّح بيده للسيدة الواقفة عند الباب. «يجب أن نعود. لقد نسيت شيئًا هناك.»

فتحت ذات الشعر الأحمر المبعثر البابَ وخرجت إلى الشُّرفة.

تابعتُ: «في طرَف خزانتي الخلفي، تحت ألواح الأرضية. وضَعتُ شيئًا هناك ويجب أن أُحضره.»

«دعي عنك الهراء. تعالَي أعرِّفكِ إلى مارجريت.»

لم أرغب في أن أتعرف إليها. وقفت مكاني أتطلع حولي، وحينئذٍ رأيت الوجه المستند إلى زجاج نافذة علوية بالمنزل المجاور. كان وجه فتاة مستديرًا، وبدا عليه الخوف. لم أكن أعرف ذلك حينها، لكن الوجه كان لفتاة تُدعى فيبي وينتربوتوم، وهي فتاة تمتلك خيالًا واسعًا، وستصير فيما بعد صديقتي، وسيقع لها الكثير من الغرائب.

منذ وقت ليس بطويل، حين كنت عالقةً مع جدَّيَّ في سيارة لستة أيام، حكيت لهما قصة فيبي، ولما وصلت إلى نهايتها — بل حتى بينما كنت أحكيها لهما — أدركت أن قصتها تشبه الجدار الجصي الذي كان موجودًا في بيتنا القديم في بايبانكس، كنتاكي.

لم يكن قد مرَّ على رحيل أمي في صباح أحد أيام أبريل وقت طويل حين بدأ أبي في تكسير الجدار الجصي في غرفة المعيشة بمنزلنا في بايبانكس. كنا نسكن منزل مزرعة قديمًا كان أبواي يرممانه، غرفة تلو الأخرى. كل ليلة بينما كان ينتظر أن ترده أخبار من أمي، كان يكسر جزءًا من الجدار.

في الليلة التي وردنا فيها الخبرُ السيئ — أنها لن تعود — ظل يضرب الجدار بإزميلٍ ومِطرقة. وفي الثانية صباحًا، صعِد إلى غرفتي. لم أكن نائمةً. واقتادني إلى أسفل وأراني ما اكتشفه. كان الجدار الجصي يخبئ وراءه مِدفأةً من القرميد.

تُذكِّرني قصةُ فيبي بذلك الجدار الجصي والمِدفأة المتوارية خلفه لأنها تخبئ وراءها قصةً أخرى. قصتي أنا.

الفصل الثاني

الصغيرة تروي قصة

كانت جميع مغامرات فيبي قد انتهت حين وضع جَدَّاي خُطةً للسفر من كنتاكي إلى أوهايو بالسيارة، حيث كانا سيُقِلَّانني معهما، ثم نتجه ثلاثتنا غربًا في رحلة نقطع فيها ألفَي ميلٍ تنتهي إلى مدينة لويستون، بولاية أيداهو. هكذا، صرت عالقةً في سيارة لأسبوع تقريبًا. لم تكن رحلةً أتوق إليها، وإنما خضتها مضطرة.

قال جَدي: «سنرى البلد برمته!»

اعتصرت جدتي وجنتيَّ وقالت: «ستكون تلك الرحلة فرصة لأن أنعم برفقة صغيرتي المفضلة مرة أخرى.» بالمناسبة، أنا صغيرتهما «الوحيدة».

قال أبي إن جدي لا يستطيع قراءة الخرائط حتى أبسطها، وإنه ممتن لأني وافقت على مرافقتهما وإرشادهما إلى الطريق. كنت في الثالثة عشرة من عمري فحسب، ومع أني كنت بارعةً في قراءة الخرائط، لم تكن مهارتي تلك هي سبب ذَهابي معهما، ولا كان السبب هو «رؤية البلد برمته». كانت الأسباب الحقيقية مدفونةً تحت أكوام من الأشياء المسكوت عنها.

كان بعضها كالآتي:

(١) أراد جدي وجدتي رؤية أمي، التي كانت تستقر بسلام في مدينة لويستون بولاية أيداهو.

(٢) كان جدي وجدتي يعرفان أني أودُّ رؤية أمي لكني كنت أخشى ذلك.

(٣) كان أبي يود الانفراد بمارجريت كادافر ذات الشعر الأحمر. كان قد زار أمي بالفعل دون أن يصحبني معه.

سبب آخر — وإن لم يكن على القدر نفسه من الأهمية — هو أن أبي لم يكن واثقًا من أن جدي وجدتي سيُحسنان التصرف طَوال الطريق إلا وأنا معهما. قال أبي إنهما لو

حاولا الذَّهاب وحدهما، فسيوفر على الجميع الكثير من الوقت والإحراج بإبلاغ الشرطة عنهما للقبض عليهما قبل حتى أن يغادرا ممر السيارات بالمنزل. قد يبدو إبلاغ رجل الشرطة عن أبويه العجوزَين الخرِفَين سلوكًا فيه شيء من التطرُّف، لكن كلما ركب جداي سيارة، تلحق بهما المتاعب كمُهرة صغيرة تتبع أمها.

جداي من عائلة هيدل هما جداي من ناحية أبي، وهما يفيضان طيبةً وعذوبةً امتزجتا بمسحة من غرابة الأطوار. هذا المزيج جعل رفقتهما مشوقة، غير أنه لا يمكن التنبؤ قطُّ بما قد يقولانه أو يفعلانه.

فور أن تَقرَّر ذَهابنا نحن الثلاثة، اتخذت الرحلة منحًى مقلقًا مُلحًّا على الإسراع يشبه تكثف سحابة رعدية ضخمة حولي. خلال الأسبوع الذي سبق مغادرتنا، كانت الريح تهدر قائلة: «هيا، هيا، هيا»، وفي الليل كان الظلام الصامت يهمس: «هَلُمُّوا، هَلُمُّوا، هَلُمُّوا». خُيِّل لي أننا لن نغادر أبدًا، ومع ذلك لم أكن أودُّ المغادرة. إذ لم أتوقع أن أصمد حتى نهاية الرحلة.

لكني كنت قد عزمت على الذَّهاب وسوف أذهب، كما أن عليَّ أن أكون حاضرةً في موعد عيد ميلاد أمي. كان لهذا أهمية بالغة. إذ أعتقد أنه لو وُجدَت فرصة لإعادة أمي إلى البيت فستحين تلك الفرصة يوم عيد ميلادها. لو كنت أفصحت عن هذا لأبي أو لجديَّ، لقالوا إن تلك أماني فارغة؛ لذا أبقيته في نفسي. لكني كنت أعتقد به. أحيانًا أكون حَرُونًا وعنيدةً بشدة كحمارٍ مُسِن. يقول أبي إني أستند إلى حائط يريد أن ينقضَّ وسينهار بي يومًا ما.

لما انطلقت أنا وجداي هيدل أخيرًا في رحلتنا، قضيت أول ثلاثين دقيقة من أول أيامها أصلي بلا انقطاع. دعوت ألَّا يقع لنا حادث (كنت أرتعب من السيارات والحافلات) وأن نصل إلى وجهتنا بحلول عيد ميلاد أمي — الذي كان سيحين بعد سبعة أيام — وأن نعيدها معنا إلى بيتها. ظللت أكرر صلواتي تلك مِرارًا وتَكرارًا. كنت أتوجه بها إلى الأشجار. كان هذا أسهل من أن أتوجه بصلواتي إلى الرب مباشرةً. فلا يكاد مكانٌ يخلو من شجرةٍ قريبة.

حين توقفنا بعد أن اجتزنا طريق أوهايو السريع، الذي يعد الطريق الأكثر انبساطًا واستقامةً على وجه الأرض، قاطع جدي صلواتي. «سالامَنكا ...»

ينبغي أن أفسر في الحال أن اسمي الحقيقي هو سالامَنكا تري هِيدل. كان أبواي يظنَّان أن سالامَنكا هو اسم القبيلة الهندية التي تنتمي إليها جدة جدة جدتي. لكنهما

كانا مخطئين. فاسم القبيلة كان سينيكا، لكن لَمَّا لم يكتشفا خطأهما إلا بعد ولادتي وكانا حينها قد أَلِفا الاسم الذي اختاراه لي، ظلَّ اسمي سالامَنكا. اسمي الأوسط، تري، يعني شجرة بالإنجليزية، إذ كانت أمي ترى في الأشجار جمالًا بالغًا حتى إنها جعلتها جزءًا من اسمي. أرادت أن تكون أكثر تحديدًا وتستخدم اسم شجرتها المفضلة، شجرة القَيْقب السكري (شوجر ميبل تري)، لكن اسم سالامَنكا شوجر ميبل تري هيدل كان غريبًا قليلًا حتى لها هي نفسها.

كانت أمي تناديني سالامَنكا، لكن بعد رحيلها، لم يَعُد أحد يناديني بهذا الاسم سوى جديَّ هيدل (حينما لا يدعواني صغيرتهما). كان أغلب الناس ينادونني سال، عدا حفنة من الصبيان رأوا في مناداتي سَلَمَنْدَر تندرًا مسليًا جدًّا.

في السيارة، إثر انطلاقنا في رحلتنا الطويلة إلى مدينة لويستون بولاية أيداهو، قالت جَدتي: «لمَ لا تُسلينا يا سالامَنكا؟»

«أي نوع من التسلية تَنشُدين؟»

قال جَدي: «ما رأيكِ أن تحكي لنا قصة؟ اروي لنا حكاية.»

أعرف بالتأكيد عددًا هائلًا من القصص، لكن جدي هو من حكى لي معظمها. اقترحت جدتي أن أرويَ قصة عن أمي. لكني لم أستطع ذلك. إذ كنت قد وصلت إلى حد أنني أكاد لا أستطيع أن أدفعها عن تفكيري في كل لحظة من كل يوم.

قال جدي: «إذَن ماذا عن قصة عن أصدقائكِ؟ هل تعرفين أي قصص هم أبطالها؟»

على الفور تذكرت فيبي وينتربوتوم. ففي جَعبتي العديد والعديد من الحكايات عنها. قلت محذرة: «بإمكاني أن أخبركما بقصة بالغة الغرابة.»

قالت جدتي: «رائع! بديع!»

وهكذا قطعت صلواتي للأشجار وحكيت لهما عن فيبي وينتربوتوم، وعن اختفاء أمها، وعن المختل عقليًّا.

الفصل الثالث

شجاعة

لأني رأيت فيبي للمرة الأولى يوم انتقلت أنا وأبي إلى مدينة يوكليد، بدأت قصتي عن فيبي بزيارتنا لبيت مارجريت كادافر ذات الشعر الأحمر، حيث التقيت أيضًا بالسيدة بارتريدج، أمها المسنة. بالغت مارجريت جدًّا في اللطف معي. قالت أمورًا مثل: «كم هو رائع شعركِ!» و«كم أنتِ لطيفة!» لم أكن «لطيفة» ذلك اليوم. بل كنت أتصرف بتعنُّت بالغ. كنت أرفض الجلوس أو النظر إلى مارجريت.

أثناء مغادرتنا، همست مارجريت في أذن أبي قائلةً: «جون، هل أخبرتها كيف التقينا؟»

ارتسمت على وجه أبي علامات الضيق. وقال: «كلا. حاولت، لكنها لا تريد أن تعرف.»

وقد كانت تلك هي الحقيقة، قطعًا. كنت أقول في نفسي من يبالي؟ من يبالي كيف التقى بمارجريت كادافر؟

لما غادرنا أخيرًا منزل السيدة كادافر والسيدة بارتريدج، سرنا بالسيارة ثلاث دقائق تقريبًا. على بعد مربعين سكنيين من بيت مارجريت كادافر، كان يوجد المكان الذي سأعيش فيه أنا وأبي.

أشجار ضئيلة يافعة. وصف من منازل صغيرة كبيوت الطيور؛ وكان منزلنا واحدًا منها. لا بقعة سباحة ولا حظيرة ولا أبقار ولا دجاج ولا خنازير. وإنما منزل أبيض صغير أمامه رقعة صغيرة من العشب الأخضر. لم تكن كافيةً حتى لسد رمق بقرة لمدة خمس دقائق.

قال أبي بحماس مبالغ فيه: «لنذهب في جولة.»

سرنا عبر غرفة الجلوس الصغيرة جدًّا إلى المطبخ المصغر ثم إلى غرفة نوم أبي الضئيلة في الطابَق العُلوي ثم إلى غرفتي الضئيلة ومنها إلى الحمَّام بالغ الصغر. تطلعت

من النافذة العُلوية إلى الفناء الخلفي بالأسفل. كان نصف الفناء الصغير جدًّا مرصوفًا بالأسمنت، والنصف الآخر مُغطًّى برقعة من العشب يمكن لبقرتنا المُتخيَّلة أن تلتهمها في قضمتين. وكان يحيط بالفناء سياج خشبي مرتفع، وعلى يمينه ويساره رقع مُسيَّجة مطابقة له.

بعد وصول شاحنة النقل وحشر رجلين أثاثنا الذي نقلاه من بايبانكس إلى منزلنا بالغ الصِّغَر، دخلت أنا وأبي بصعوبة إلى غرفة المعيشة، زاحفَين فوق الأرائك والكراسيِّ والطاولات وصناديق لا تُعَد ولا تُحصى. قال أبي: «ممم، يبدو وكأننا حاولنا أن نحشر جميع الحيوانات داخل حظيرة الدجاج.»

بعد ثلاثة أيام، بدأت ارتياد المدرسة ورأيت فيبي مرة أخرى. كانت طالبةً في صفي. كان معظم الطلاب في مدرستي الجديدة يتحدثون بعبارات مندفعة حادة، ويلبسون ملابس جديدة رسمية السمت، ويضعون تقويمًا للأسنان. وكانت أغلب الفتيات يصففن شعورهن بالطريقة نفسها؛ تصفيفة قصيرة حتى أكتافهن (يسمينها «بوب») وقُصَّة طويلة يهززن رءوسهن ليبعدنها عن أعينهن. كان لدينا يومًا ما حصان يفعل ذلك.

ظل الجميع يلمسون شعري. ويسألونني: «ألا تقصينه قط؟» «أيمكنكِ أن تجلسي عليه؟» «كيف تغسلينه؟» «أهو بطبيعته أسود هكذا؟» «هل تستخدمين مرطبًا؟» لم أستطع أن أحدد إن كان شعري يعجبهم أم أنهم يرون أني أبدو مثل رسم كارتوني.

كانت فتاة تُدعى ماري لو فيني تقول عبارات غريبة للغاية، كأن تقول فجأة «قدير» أو «غبي!» لم أفهم ما كانت تقصده بتلك الكلمات. وكان هناك ميجان وكريستي اللتان تتقافزان مثل حبات الفشار، وبيث آن متقلبة المزاج، وأليكس ذو الوجنتين الورديتين. وكان هناك بن الذي يرسُم رسومًا كارتونيةً طَوال اليوم، ومعلم لغة إنجليزية غريب الأطوار اسمه السيد بيركواي.

وكان هناك فيبي وينتربوتوم. دعاها بن «فري بي آيس بوتوم» ورسم لها صورة نحلة طنَّانة ملتصق بعَجُزِها مكعب ثلج. مزقت فيبي الرسمة.

كانت فيبي فتاة هادئة تُؤْثِر الانفراد بنفسها أغلب الوقت. كان لها وجه مستدير عذب وعينان واسعتان كبيرتان زرقاوان بلون السماء. وكان يحيط بهذا الوجه العذب شعرها القصير المجعد الأصفر كلون عشبة رجل الغراب.

في الأسبوع الأول، حين كنت مع أبي في منزل مارجريت (تناولنا معها العشاء ثلاث مرات ذلك الأسبوع)، رأيت وجه فيبي مرتين أخريين في نافذة غرفتها. لوحت لها ذات مرة، لكن لم يَبدُ أنها لاحظت، ولم تذكر قطُّ في المدرسة أنها رأتني.

وذات يوم أثناء تناولنا الغداء، جلست في المقعد المجاور لي وقالت: «سال، أنتِ شجاعة للغاية. ما أشجعكِ!»

صِدقًا، فوجئت بما قالت. لو دفعني أحد بريشة دجاجة لسقطت من فرط ذهولي. قلت: «أنا؟ أنا لست شجاعة.»

«بلى. أنتِ شجاعة.»

لم أكن شجاعة. فأنا، سالامَنكا تري هيدل، أخشى العديد والعديد من الأشياء. فأنا، على سبيل المثال، أخشى حوادث السيارات والموت ومرض السرطان وأورام الدماغ والحرب النووية والنسوة الحوامل والأصوات العالية والمعلمين الصارمين والمصاعد والكثير من الأشياء الأخرى. لكني لا أخشى العناكب والثعابين والدبابير. لم تكن فيبي، وكل تلاميذ فصلي الجديد تقريبًا، يحبون تلك المخلوقات كثيرًا.

لكن في ذلك اليوم، حين كان عنكبوت أسود مهيب يستكشف طاولة صفي، كَوَّرتُ يدي حوله وحملته إلى النافذة المفتوحة ووضعته على حافتها الخارجية.

قالت ماري لو فيني: «ألفا وأوميجا! هل رأيتم ذلك؟» وشحب وجه بيث آن حتى صار أبيض كالحليب. وفي جميع أرجاء الفصل، كانوا يتصرفون وكأنما صرعت وحدي تنينًا ينفث اللهب.

ما أدركته منذ ذلك الحين هو أنه إذا كان الناس يتوقعون منك أن تتصرف بشجاعة، فإنك تتظاهر بذلك أحيانًا حتى لو كانت فرائصك ترتعد خوفًا. لكني أدركت ذلك لاحقًا، في خضم ما حدث مع فيبي والمختل عقليًّا.

عند هذه النقطة من قصتي، قاطعتني جدتي قائلةً: «لكنكِ بالتأكيد شجاعة يا سالامنكا. جميع أفراد عائلة هيدل يتحلَّون بالشجاعة. فهي سمة عائلية. فها هو أبوكِ ... وأمكِ ...»

قلت: «أمي ليست فعليًّا من عائلة هيدل.»

قال جدي: «بل هي كذلك عمليًّا. فلا يمكن لأحد أن يتزوج من عائلة هيدل ولا يصبح منها.»

ليس ذلك ما كانت تقوله أمي. بل كانت تقول لأبي: «أنتم يا آل هيدل بمثابة لغز لي. لن أصير يومًا واحدةً منكم بحق.» لم تقل ذلك بفخر. بل قالته بحسرة، وكأنما هو عيب فيها.

والدَي أمي — جداي الآخران — من آل بيكفورد، وهما يختلفان عن جديَّ هيدل اختلاف الليل عن النهار. فجداي لأمي يقفان منتصبَي القامة، وكأنما يقيم ظهرَيهما

عمودٌ فولاذيٌّ متين. وملابسهما دائمًا منشاة ومكوية، وحين يفاجئهما أو يصدمهما شيء ما (وهو ما يحدث كثيرًا) يقولان: «حقًّا؟ هل هذا صحيح؟» وتتسع عيناهما ويتقوَّس جانبا فمهما لأسفل.

ذات مرة سألت أمي لمَ لا يضحك جدي وجدتي مطلقًا. فقالت أمي: «لأنهما منشغلان جدًّا بالتصرف بوقار. وهذا يتطلب قدرًا كبيرًا من التركيز.» ثم أخذَت تضحك برقة، وكان بالإمكان أن ترى أن عمودها الفقري لم يكن مصنوعًا من الفولاذ إذ انحنت من فرط الضحك.

تقول أمي إن جدتي لم تتجرأ في حياتها على تحدي تقاليد آل بيكفورد إلا مرة واحدة حين اختارت لها اسمها. أطلقت جدتي بيكفورد التي كان اسمها جايفيثر، اسم تشانهاسِن على أمي. وهو اسم هندي، معناه «شراب شجرة حلو»؛ أو بعبارة أخرى القَيْقب السُّكَّري. لكن لم يكن أحد ينادي أمي باسمها الهندي إلا جدتي. كان الجميع يناديها باسم شوجر (أي «سكر» بالإنجليزية).

معظم الوقت، كانت أمي تبدو مختلفة تمامًا عن أبوَيها، وكان يصعب عليَّ أن أتصوَّر أنها جاءت من صُلبهما. لكن في أحيان قليلة، في لحظات قصيرة مباغتة، كانت أمي تقوِّس جانبَي فمها لأسفل وتقول: «حقًّا؟ هل هذا صحيح؟» فتبدو كواحدة من آل بيكفورد تمامًا.

الفصل الرابع

هذا ما أنا بصدد قوله لكِ

في اليوم الذي جلست فيه فيبي إلى جواري أثناء الغداء وقالت لي إنني شجاعة، دعتني إلى العشاء في منزلها. بصراحة، شعرت بارتياح لأني لن أضطر لتناول العشاء في بيت مارجريت مرة أخرى. فلم أود رؤية أبي ومارجريت وهما يتبادلان الابتسامات.

أردت أن يظل كل شيء كما «كان». أردت أن أعودَ إلى بايبانكس، كنتاكي، بين التلال والأشجار، وبالقرب من البقر والدجاج والخنازير. أردت أن أركض من الحظيرة لأسفل التل وأعبر باب المطبخ الذي يُصفَّد خلفي لأرى أمي وأبي جالسَين على الطاولة يقشران التفاح.

رافقت فيبي في رحلة العودة إلى البيت. توقفنا قليلًا عند منزلي كي أهاتف أبي في عمله. ساعدته مارجريت في إيجاد وظيفة في بيع المُعدَّات الزراعية. قال إن اكتسابي لصديقة جديدة جعله يطير فرحًا. قلت في نفسي إنه قد يكون ذلك هو ما أسعده فعلًا، أو ربما هو سعيد لأنه سيتسنى له الانفراد بمارجريت كادافر.

بعدها رافقت فيبي إلى منزلها. أثناء مرورنا أمام منزل مارجريت كادافر، سمعنا صوتًا ينادي: «سال! سال! هل هذه أنتِ؟»

في الظلال على الشرفة، كانت السيدة بارتريدج، والدة مارجريت، تجلس على كرسي هزاز من الخوص. كان يستقر على ركبتيها عكاز غليظ متعرج له مقبض محفور على هيئة رأس أفعى كوبرا. كان ثوبها الأرجواني قد انحسر عن ركبتيها الهزيلتين اللتين باعدت بينهما، ولا أحب أن أذكر ذلك، لكن كان ما تحت تنورتها باديًا. كانت تلف حول عنقها وشاحًا أصفر من الريش. (قالت لي ذات مرة: «هذا وشاحي، وشاحي المفضل على الإطلاق».)

لما هممت بالسير في الممر المؤدي لبيتها، جذبتني فيبي من ذراعي. قالت: «لا تذهبي إلى هناك.»

قلت: «تلك السيدة بارتريدج ليس إلا. تعالي.»

قالت السيدة بارتريدج: «مَن برفقتكِ؟ وما هذا الذي على وجهها؟» كنت أعرف أنها ستفعل ذلك. فقد فعلته معي في أول مقابلة بيننا.

وضعت فيبي يدها على وجهها الدائري وتحسسته.

قالت السيدة بارتريدج: «تعالي إلى هنا.» وأشارت بأصابعها النحيلة المجعدة إلى فيبي.

رفعت السيدة بارتريدج أصابعها إلى وجه فيبي وتحسست برفق جفنيها ثم وجنتيها. «كما ظننتُ تمامًا. عينان وأنف وفم.» ضحكت السيدة بارتريدج ضحكة شريرة بدت وكأنها كانت ترتد عن صخور حادة. «أنتِ في الثالثة عشرة من عمرِك.»

قالت فيبي: «أجل.»

قالت السيدة بارتريدج: «كنتُ متأكدةً. كنتُ متأكدةً جدًّا.» ثم ربتت على وشاحها الأصفر المصنوع من الريش.

قلت: «هذه فيبي وينتربوتوم. إنها جارتكِ في المنزل المجاور.»

بعد أن غادرنا، همست لي فيبي قائلة: «كنت أتمنى لو لم تفعلي ذلك. كنت أتمنى لو لم تخبريها أنني أسكن في المنزل المجاور.»

«لمَ لا؟ فلا يبدو لي أنكِ تعرفين السيدة كادافر والسيدة بارتريدج معرفة وثيقة ...»

«هما لا يسكنان هنا منذ وقت طويل. لم يمضِ على مجيئهما سوى شهر أو نحوه.»

«ألا ترين أن تخمينها الصحيح لعمرك كان مدهشًا؟»

«لا أرى أمرًا مدهشًا في ذلك.» قبل أن يتسنَّى لي أن أفسر، بدأت فيبي تحكي لي عن تلك المرة التي ذهبت فيها مع أمها وأبيها وأختها برودنس إلى مهرجان الولاية. في أحد الأكشاك، احتشد الناس حول رجل طويل نحيل.

سألتُها: «ماذا كان يفعل؟»

قالت فيبي: «هذا ما أنا بصدد قوله لكِ.» كانت فيبي أحيانًا تتحدث كالبالغين. حين قالت: «هذا ما أنا بصدد قوله»، كانت تتحدث كراشد يخاطب طفلًا. «ما كان يفعله هو تخمين أعمار الناس. كان الناس المحتشدون حوله يرددون: «أوه!» و«مذهل!» و«كيف يفعل ذلك؟» كان عليه أن يخمن عمرك الصحيح في حدود العام، وإلَّا تربحي دُمية دبدوب.»

سألتها: «كيف كان يفعل ذلك؟»

قالت فيبي: «هذا ما أنا بصدد قوله لكِ. كان الرجل النحيل يمعن النظر إلى الشخص، ثم يُغمض عينيه ويشير إلى الشخص ويصيح «اثنان وسبعون».»

«فعل هذا مع الجميع؟ خمَّن أن الجميع أعمارهم اثنان وسبعون؟»

قالت: «سال، هذا ما أحاول أن أخبركِ به. كنت أضرب لك مثالًا ليس إلا. ربما قال «عشرة» أو «ثلاثين» أو «اثنين وسبعين». كان هذا يعتمد على الشخص الذي أمامه. كان مذهلًا.»

كنت أرى أن قدرة السيدة بارتريدج على فعل ذلك مذهلة أكثر، لكني لم أفصح عن ذلك.

طلب والد فيبي من الرجل أن يخمن عمره. «يظن أبي أن مظهره يوحي بأنه شابٌّ يافع، وكان واثقًا من أن مظهره سيخدع الرجل. بعد أن تفرَّس الرجل في أبي، أغمض عينيه وأشار إليه بأصبعه وصاح: «اثنان وخمسون»! صاح أبي صيحة استغراب خافتة، فردد المحيطون تلقائيًّا عبارات مثل «أوه!» و«مدهش» وما شابه. لكن أبي أسكتهم.»

«لماذا؟»

جذبت فيبي إحدى خصلاتها الصفراء المُجعَّدة. أظن أنها تمنت لو أنها لم تبدأ في رواية تلك القصة في المقام الأول. «لأن عمره لم يكن اثنين وخمسين أو حتى قريبًا من ذلك. بل كان ثمانية وثلاثين.»

«أوه!»

«وطَوال اليوم، ظلَّ أبي يتبعنا في أرجاء المهرجان حاملًا جائزته، دمية دببوب أخضر كبير. كان محبطًا. ظل يردد: «اثنان وخمسون؟ اثنان وخمسون؟ هل أبدو في الثانية والخمسين؟»

سألتها: «وهل يبدو كذلك؟»

جذبت فيبي شعرها بقوة أكبر. «كلا، لا يبدو في الثانية والخمسين. بل يبدو في الثامنة والثلاثين.» كانت تدافع عن أبيها باستماتة.

كانت والدة فيبي في المطبخ. قالت السيدة وينتربوتوم: «أنا أُعدُّ فطيرة التوت البري. آمل أنكِ تحبين التوت البري ... هل ثمة خطب ما؟ حقًّا، إن كنتِ لا تحبين التوت البري فبوسعي أن ...»

قلت: «كلا. أنا أحب التوت البري كثيرًا. لكن أظن أن بعض الأشياء تسبب لي الحساسية.»

سألت السيدة وينتربوتوم: «التوت البري يسبب لك الحساسية؟»

«كلا، ليس التوت البري.» في الحقيقة، أنا لا أعاني من الحساسية، لكني لم أستطع أن أقرَّ بأن التوت البري يذكرني بأمي.

طلبت السيدة وينتربوتوم مني ومن فيبي أن نجلس إلى طاولة المطبخ ونروي لها أحداث يومنا. أخبرتها فيبي عن تخمين السيدة بارتريدج لعمرها.

قلت: «إنها مذهلة حقًّا.»

قالت فيبي: «الأمر ليس مثيرًا للذهول «إلى هذا الحد» يا سال. بل إني لن أستخدم كلمة «مذهل» بالتحديد لوصفه.»

قلت: «لكن يا فيبي، السيدة بارتريدج عمياء.»

كررت فيبي وأمها: «عمياء؟»

فيما بعد قالت لي فيبي: «ألا تظنين أنه من الغريب أن ترى السيدة بارتريدج وهي عمياء شيئًا عني بينما أغفلت، أنا المبصرة، شيئًا عنها؟ وعلى ذكر الغرابة، ثمة شيء غريب للغاية بشأن السيدة كادافر؟»

قلت: «مارجريت؟»

قالت فيبي: «إنها تثير هلعي.»

«لماذا؟»

قالت: «هذا ما أنا بصدد قوله لكِ. بدايةً اسمها: كادافر. هل تعرفين ماذا يعني؟»

في الواقع لم أكن أعرف.

«يعني جيفة.»

سألتها: «هل أنتِ واثقة؟»

«بالطبع واثقة يا سال. بوسعك أن تتحققي من القاموس إن شئتِ. هل تعرفين مما تكسِب قُوتَها، ما مهنتها؟»

سرَّني أن ثمة ما أعرفه. فأجبتها بسرور: «أجل. تعمل ممرضة.»

قالت فيبي: «بالضبط. هل تودين توظيف ممرضة اسمها معناه «جيفة»؟ وشعرها ... ألا تجدين شعرها الأحمر الأشعث مخيفًا؟ وصوتها ... صوتها يذكرني بحفيف أوراق الشجر الذابلة التي تذروها الرياح على الأرض.»

كانت تلك هي موهبة فيبي. في عالمها، لا وجود للأشخاص العاديين. فهم إما مثاليون — مثل أبيها — أو مختلون عقليًّا أو سفاحون، وهو الأمر الأغلب. كانت لديها القدرة على

إقناعي بأي شيء؛ بخاصة عن مارجريت كادافر. منذ هذا اليوم فصاعدًا، صرت أجد شعر مارجريت كادافر مخيفًا، وصار وقع صوتها على أذني كحفيف الأوراق الذابلة. بطريقة ما، كنت أجد التعامل مع مارجريت أسهل إذ كان لديَّ أسباب تمنعني من أن أحبها، وقطعًا لم أكن أود أن أحبها.

قالت فيبي: «هل تريدين أن أخبركِ بسر دفين؟» (كنت أريد ذلك.) «عديني ألا تفشيه.» (وعدتها بذلك.) قالت: «ربما لا ينبغي أن أخبركِ. فأبوكِ يرتاد منزلها طَوال الوقت. هو معجب بها، أليس كذلك؟» دورت أصبعها في شعرها المُجعَّد وتركت عينيها الزرقاوين الواسعتين تهيمان في السقف. «هي تدعى «السيدة» كادافر، أليس كذلك؟ هل تساءلتِ قط عما حدث «للسيد» كادافر؟»

«لم أفكر من قبل في ...»

قالت فيبي: «أظن أنني أعرف، وما حدث له مريع، مريع بحق.»

الفصل الخامس

امرأة في ورطة

لما وصلت قصتي عن فيبي إلى تلك النقطة، قالت جَدتي: «كنت أعرف فتاة مثل بيبي ذات يوم.»

قلتُ، مصححةً: «فيبي.»

«أجل، صحيح. كنت أعرف فتاة مثل بيبي، لكنها كانت تُدعى جلوريا. كانت جلوريا تحيا في عالم جامحٍ وخياليٍّ لأبعد الحدود — عالم مخيف — لكنه أكثر إثارة بكثير من عالمي.»

قال جدي: «جلوريا؟ أتلك هي الفتاة التي حذرتكِ من الزواج مني؟ تلك التي قالت لكِ إنني سأكون سببًا في هلاككِ؟»

قالت جدتي: «صه! كانت جلوريا محقة بشأن ذلك على الأقل.» ووكزت جدي بمرفقها. «كما أنها لم تقل ذلك إلا لأنها أرادتك لنفسِها.»

قال جدي وهو يوقف السيارة في استراحة على جانب طريق أوهايو السريع: «يا للهول! أنا متعب.»

لم أرغب في التوقُّف. كانت الرياح والسماء والسحب والأشجار كلها تهمس: «هيا، هيا، هيا.»

لو أن كل ما كان يريده هو أن ينال قسطًا من الراحة، لم يكن ثمة ضرر في ذلك، وما كان الأمر سيستغرق وقتًا كبيرًا. لكن سهولة وقوع جدَّيَّ في المتاعب تماثل سهولة أن تحط ذبابة على بطيخة.

قبل سنتين أثناء سفرهما بالسيارة إلى واشنطن العاصمة، أُلقي القبض عليهما بتهمة سرقة الإطارات الخلفية لسيارة سيناتور ما. كان تفسير جدي هو: «لقد فرغ الهواء من إطارَين مهترئين بسيارتنا، فأردنا «استعارة» إطاري السيناتور فحسب. كنا

ننوي إعادتهما.» في مدينة بايبانكس، كنتاكي، يمكن للمرء أن يفعل ذلك. يمكن استعارة الإطارين الخلفيين لسيارة أحدهم وإعادتهما لاحقًا، لكن لم يكن من الممكن أن تفعل ذلك في واشنطن العاصمة، خاصةً لسيارة سيناتور.»

في العام الماضي أثناء رحلة جدَّيَّ بالسيارة إلى ولاية فيلادلفيا، أوقفتهما الشرطة بتهمة القيادة بتهور. قال الشرطي لجدي: «لقد كنت تسير في حارة الطوارئ.» قال جدي: «حارة الطوارئ؟ ظننتها حارة إضافية. تلك حارة طوارئ ضيقة جدًّا.»

ها نحن ذا، بعد مُضي بضع ساعات من انطلاقنا في رحلتنا إلى لويستون، أيداهو، توقَّفنا سالمين في استراحة. ثم لاحظ جدي امرأة تستند إلى رفرف سيارتها. كانت المرأة تنظر إلى محرك السيارة وتمسح بمنديل أبيض عدة أجزاء مشحمة فيه.

قال جدي بإقدام: «عذرًا، أعتقد أني أرى امرأةً واقعةً في ورطة»، ثم انطلق كي ينقذها.

ظلت جدتي جالسةً تربت على ركبتَيها وتدندن: «لاقني عند أزهار التيوليب عندما تتفتح ...»

تدلَّى منديل المرأة الأبيض الذي تبقع بالشحم الأسود من بين أطراف أناملها وهي تبتسم ناظرةً إلى جدي الذي أخذ مكانها منحنيًا فوق المحرك.

قال: «ربما المشكلة من «الكاربراتير» أو ربما لا.» نقر على بضعة خراطيم. وقال: «وربما المشكلة في تلك الثعابين اللعينة.»

قالت المرأة: «يا إلهي! ثعابين؟ في محرك سيارتي؟»

هز جدي أحد الخراطيم. وقال: «هذا ما أسميه ثعبانًا.»

قالت المرأة: «آه! فهمت. وأنت تظن أن تلك ... تلك الثعابين قد تكون هي المشكلة؟»

«ربما.» شد جدي أحدها فانفك. وقال: «أترين؟ لقد انخلع.»

«أجل، لكنك الذي ...»

قال جدي وهو يجذب واحدًا آخر: «تلك الثعابين اللعينة.» فانخلع الخرطوم. «أرأيت! ها قد انفكَّ واحد آخر.»

ابتسمت المرأة ابتسامة سريعة قلقة. «لكن ...»

بعد ساعتين، لم يبقَ «ثعبان» واحد متصلًا بما كان من المفترض أن يكون متصلًا به. واستقر «الكاربراتير» مفككًا على الأرض. بينما تناثرت أجزاء أخرى من محرك سيارة المرأة هنا وهناك.

اتصلت المرأة بميكانيكي، وما إن اطمأنَّ جَدي إلى أنه رجل أمين بوسعه أن يصلح لها سيارتها بالفعل، تابعنا رحلتنا.

قالت جدتي: «أخبرينا بالمزيد عن بيبي يا سالامنكا.»

قلت مُصححةً: «اسمها فيبي. فيبي وينتربوتوم.»

قالت جدتي: «أجل، صحيح. بيبي.»

الفصل السادس

التوت البري

سألت جدتي: «أي مصير مريع لاقاه السيد كادافر؟ أنتِ لم تخبرينا بعد.»

شرحت لهما أنه بينما كانت فيبي تهم بإخباري بالحادثة المريعة التي وقعت للسيد كادافر، عاد والدها من العمل وجلسنا جميعًا على مائدة العشاء: أنا وفيبي والسيد والسيدة وينتربوتوم، وبرودنس أخت فيبي.

ذكرني والدا فيبي كثيرًا بجدَّي بيكفورد. مثل جدَّي بيكفورد، كان السيد وينتربوتوم وزوجته يتحدثان بهدوء وبجمل قصيرة ويجلسان منتصبَي الظهر وهما يأكلان طعامهما. كانا يتعاملان فيما بينهما بتهذيب مفرِط، ويقولان عبارات مثل «أجل يا نورما»، و«أجل يا جورج»، و«هلا ناولتِني البطاطس يا فيبي من فضلك؟» و«هل تود ضيفتكِ المزيد؟»

وكانا مدققَين في اختيار طعامهما. كان أبي سيصف كل ما يأكلانه من أصناف بأنه «أطباق جانبية»؛ كالبطاطس، والكوسة، وسلطة الفاصوليا، وطاجن غامض لم أتبين ماهيته. كانا لا يأكلان اللحم، ولا يستعملان الزبد. إذ كانا شديدَي الحذر من الكوليسترول.

مما استطعت جمعه من معلومات استشففت أن السيد وينتربوتوم يمتهن عملًا مكتبيًّا يختص برسم خرائط الطرق. بينما كانت زوجته تخبز وتنظف وتغسل الملابس وتبتاع الطلبات. وانتابني شعور غريب بأن السيدة وينتربوتوم لم تكن تحب ما تفعله من خَبزٍ وتنظيف وغسيل الملابس والتسوق، وهو شعور لا أعرف له سببًا، لأنه لو أصغيتَ إلى «الكلمات» التي كانت تقولها، فستبدو لك مثالًا لربة المنزل المثالية.

على سبيل المثال قالت السيدة وينتربوتوم في لحظة ما: «أعتقد أني طهوت في الأسبوع الماضي عددًا لا يمكنني أن أحصيَه من الفطائر.» قالت ذلك بصوت مبتهج، لكن أثناء الصمت القصير الذي ساد بعدها، لما لم يعلق أحد على فطائرها، تنهَّدت تنهيدةً خافتةً

وأطرقت إلى صحنها. تعجبت من أن تخبز كل تلك الفطائر بينما تبدو قلقةً جدًّا بشأن الكوليسترول.

بعد برهة قالت: «لم أستطع أن أجد نوع حبوب الإفطار الذي تحبه كثيرًا يا جورج، لكني اشتريت نوعًا شبيهًا.» واصل السيد وينتربوتوم تناول طعامه، وفي فترة الصمت التي تلت، تنهَّدت السيدة وينتربوتوم وتمعَّنت في صَحنها.

سعدت لأجلها حين قالت إنها تفكر في العودة إلى عملها بعدما عادت فيبي وبرودنس إلى المدرسة. يبدو أنها كانت تعمل موظفة استقبال بدوام جزئي في متجر «روكي رابر» أثناء وقت الفصول الدراسية. وعندما لم يعلق أحد على عَوْدها إلى العمل، تنهَّدت مرةً أخرى وقلبت البطاطس في صَحنها.

مرات قليلة نادت السيدة وينتربوتوم زوجها «عزيزي» أو «حبيبي». قالت: «هل تريد المزيد من الكوسة يا حبيبي؟» و«هل ما أعددته من البطاطس كافٍ يا عزيزي؟»

لسبب ما، فاجأني ذلك، أعني مخاطبتها له بهاتين الكلمتين المحببتين. كانت ترتدي تنورةً بنية بسيطة وبلوزة بيضاء. وكانت تنتعل حذاءً عمليًّا عريضًا ذا كعب مستوٍ. ولم تكن تضع مساحيق تجميل. ومع أن وجهها كان عذبًا مستديرًا وشعرها كان أشقر اللون طويلًا مجعدًا، تركت لديَّ انطباعًا بأنها اعتادت أن تكون بسيطة عادية، وأنها لا ينبغي أن يصدر منها أي شيء صادم جدًّا.

وكان السيد وينتربوتوم يلعب دور «الأب». فكان يجلس على رأس المائدة مرتديًا قميصه الأبيض وقد شمَّر كميه بعناية. ولم يكن قد خلع رابطة عنقه المخططة بالأحمر والأزرق. كانت تعابير وجهه تتسم بالجدية، وكان صوته جهورًا، وكلماته واضحة. كان يقول بصوت جهوري واضح: «أجل يا نورما.» و«كلا يا نورما.» بدا أقرب إلى الثانية والخمسين منه إلى الثامنة والثلاثين، وهو شيء ما كنت لأحب أبدًا أن ألفت انتباهه — أو انتباه فيبي — إليه.

كانت برودنس أخت فيبي في السابعة عشرة من عمرها، لكنها كانت تتصرف مثل أمها. تأكل بأناقة وتومئ برأسها بأدب، وتختم كلامها دومًا بابتسامة.

كان الأمر برمته يبدو غريب الأطوار. إذ كانوا منمقين ومهذبين لدرجة مبالغ فيها.

بعد العشاء، سارت معي فيبي إلى بيتي. قالت: «قد يدل مظهر السيدة كادافر على ذلك، لكنها قوية كالثور.» وتلفتت فيبي خلفها وكأنما تتوقع أن ثمة من يتبعنا. «لقد رأيتها تقطع أشجارًا وتجرجر بقاياها عبر باحتها الخلفية. أتعلمين ما أظن؟ أظن أنها ربما تكون قد قتلت السيد كادافر وقطعت جثته إلى أشلاء ودفنتها في الباحة الخلفية.»

قلتُ مستنكرةً: «فيبي!»

«أنا أخبركِ بما أظنه ليس إلَّا.»

في تلك الليلة، وأنا مستلقية على سريري، فكرتُ في السيدة كادافر، وأردت أن أصدق أنها قادرة على قتل زوجها وتقطيع جثته ودفنها في الباحة الخلفية.

ثم ما لبثت أفكاري أن حادت إلى التوت البري وتذكرت تلك المرة التي سرت فيها مع أمي حول أطراف الحقول والمراعي في بايبانكس لنقطف التوت البري. كنا لا نقطفه من أسفل الشجيرة ولا من قمتها. إذ كانت أمي تقول إن حبات التوت التي تنبت بالأسفل من نصيب الأرانب وتلك التي تنمو على القمة من نصيب الطيور. أما تلك التي تنبت في مستوى قامة البشر فهي من نصيبهم.

وأنا مستلقية على السرير أتذكر حبات التوت البري تلك، تذكرت شيئًا آخر. كان شيئًا حدث منذ بضعة أعوام، في أحد الصباحات التي كانت أمي تتأخر في الاستيقاظ فيها. كان ذلك أثناء فترة حملها. كان أبي قد تناول الإفطار بالفعل، وخرج إلى الحقول. على الطاولة، ترك أبي زهرةً في كل من كوبي العصير؛ زهرة نرجس بري أمام مقعدي، وزهرة بتونيا بيضاء أمام مقعد أمي.

حين دخلت أمي المطبخ ذلك اليوم، قالت: «رباه!» وقربت وجهها من كلا الزهرتين. «لنذهب ونجده.»

صعدنا التل إلى الحظيرة، وزحفنا بين أسلاك السياج، ثم عبرنا الحقل. كان أبي واقفًا عند طرف الحقل المقابل وقد أسند يديه على فخذيه، ينظر إلى مقطع من السياج.

أبطأت أمي من سَيرها حين وقعت عيناها عليه. كنت في إثرها مباشرةً. بدا لي أنها تريد أن تتسلل خلسة وتفاجئه، لذا لزمت الصمت أنا أيضًا وتقدمت بحذر. استطعت بصعوبة شديدة أن أمنع نفسي من الضحك. بدا أن التسلل إلى حيث كان أبي فعلًا جريئًا، وكنت متأكدة من أن أمي كانت ستطوقه بذراعيها وتقبله وتعانقه وتخبره كم أحبت الوردة التي تركها على طاولة المطبخ. لطالما كانت أمي تحب أي شيء ينمو أو يحيا بالخارج — أي شيء — السحالي والشجر والبقر واليرقات والطيور والأزهار والصراصير والضفادع والنمل والخنازير.

حين أوشكنا على بلوغ أبي، التفت. أجفلت أمي من ذلك وارتبكت. وتوقفَت.

قال: «شوجر ...»

فغرت أمي فاها، وقلت لنفسي: «هيا! طوقيه بذراعيك! أخبريه!» لكن قبل أن يتسنَّى لها أن تتكلم، أشار أبي إلى السياج وقال: «انظري إلى ذلك. استغرق نهارًا كاملًا.» أشار إلى قطعة جديدة من سلك ممدود بين عمودين جديدين. كان العرق يكسو وجهه وذراعيه.

في تلك اللحظة لاحظتُ أن أمي كانت تبكي. لاحظ أبي ذلك أيضًا. قال: «ماذا ...»

قالت: «أوه، أنت طيب جدًّا يا جون. طيب جدًّا. أنتم يا آل هيدل جميعكم طيبون جدًّا. لن أكون في مثل طيبتكم يومًا. لن أستطيع يومًا أن أفكر في كل تلك الأشياء التي ...»

خفض أبي نظره إليَّ مستفسرًا. فقلت: «الزهرتان.»

«أوه!» طوَّقها بذراعيه المتعرقتين، لكنها كانت لا تزال تبكي، ولم يجرِ الأمر كما تخيلتُه. كان موقفًا حزينًا لا سعيدًا.

صباح اليوم التالي، حين دلفت إلى المطبخ، كان أبي يقف بجوار الطاولة ينظر إلى صحنين من التوت البري — الذي كان لا يزال يلمع من أثر الندى — واحد أمام مقعدي والآخر أمام مقعده. قلت له: «شكرًا لك.»

قال: «ليس ذلك صنيعي بل صنيع أمكِ.»

في تلك اللحظة، دخلَت من الشرفة الخلفية. طوَّقها أبي بذراعيه وتبادلا القبل وكان الأمر رومانسيًّا، هممت أن أدير وجهي لكن أمي أمسكت بذراعي. جذبتني إليها وقالت لي — مع أن أبي هو المعني بكلامها — «أترين؟ أكاد أضاهي أباك طيبةً!» قالت ذلك بخجل، وضحكَت ضحكةً خافتةً. شعرتُ بالخيانة، لا أعرف لماذا.

مدهش هو كم الذكريات الذي يعيده لك تناول فطيرة توت بري.

الفصل السابع

إل-أه-نو-واي

صاح جدي: «انظرا إلى هذا! حدود ولاية إيلينوي!» نطق اسمها «إل-أه-نو-واي»، بنفس الطريقة التي ينطقها بها جميع سكان بايبانكس، كنتاكي، ولما سمعت تلك الطريقة في النطق اجتاحني حنين لبايبانكس.

سألَت جدتي: «أين إنديانا إذَن؟»

رد جدي: «أيتها الساهية، لقد كنا نجتاز إنديانا في الساعات الثلاث الأخيرة. لقد انهمكتِ في سماع قصة بيبي ففاتتك ملاحظة مرورنا بإنديانا. هل تتذكرين مرورنا بمدينة إلكهارت؟ لقد تناولنا الغداء في إلكهارت. ألا تتذكرين مرورنا بمدينة ساوث بِند؟ لقد توقفنا فيها لقضاء الحاجة. مرحى، لقد فاتتكِ ولاية آل «هوشر» برمتها! أيتها الساهية.» كان يرى ذلك مضحكًا جدًّا.

في تلك اللحظة، انحنى الطريق (أعني ذلك بالمعنى الحرفي — كان الأمر مباغتًا) وعلى جانبه الأيمن كان يوجد تجمُّع مائي ضخم. كانت صفحته زرقاء بلون نبات الجريس الذي ينمو خلف الحظيرة في بايبانكس، وكان ماؤه يمتد على مرمى البصر. بدا كمرعًى مائيٍّ أزرق شاسع.

سألَت جدتي: «هل وصلنا إلى المحيط؟ لا يفترض أن نمرَّ بالمحيط في طريقنا، أليس كذلك؟»

«أيتها الساهية، تلك بحيرة ميشيجان.» ولثم جدي أصبعه وطبع به قبلة على وجنة جدتي.

قالت جدتي: «أود أن أبلل قدمَيَّ بمائها.»

انحرف جدي بالسيارة قاطعًا حارتين مروريتين ودلف إلى مخرج الطريق، وفي لمح البصر كنا نقف حفاةً في ماء بحيرة ميشيجان البارد. تناثر رذاذ الموج على ملابسنا،

وحامت النوارس في حلقات فوقنا وهي تنعق في صوت واحد مثل جوقة عظيمة، وكأنما سُرَّت برؤيتنا.

«مرحى، مرحى!» قالت جدتي وهي تفرك كعبيها في الرمال. «مرحى، مرحى!»

تلك الليلة توقفنا في ضواحي ولاية شيكاجو. من نُزُل «هوارد جونسون» جلت ببصري فيما استطعت أن أتبينه من ولاية «إل-أه-نو-واي»، فبدت وكأنما تبعد سبعة آلاف ميل عن البحيرة. بدت لي تمامًا مثل شمال أوهايو، بطرقها المستوية الطويلة المستقيمة، وقلت في نفسي ما أطول تلك الرحلة التي بانتظارنا. بحلول الظلام، عادت الهمسات: «هيا، هَلُمِّي، هيا.»

استلقيت في تلك الليلة في سريري أحاول تخيُّل مدينة لويستون بأيداهو، لكن عقلي أبى أن يرتحل إلى مكان لم أزره من قبل. بل ظل يعود إلى بايبانكس.

حين غادرت أمي إلى مدينة لويستون، بأيداهو، كان أول ما خطر لي من أفكار هو: «كيف لها أن تفعل ذلك؟ كيف تهجرني؟»

بمرور الأيام، ازدادت أمور كثيرة صعوبةً وكآبةً، لكن بعض الأمور صارت أسهل على نحو غريب. عندما كانت أمي موجودة، كنت كالمرآة لها. تسعد فأسعد. تحزن فأحزن. في الأيام الأولى التي تلت رحيلها، شعَرتُ بخدَرٍ في مشاعري، فلم تنتَبْني أيُّ مشاعر. لم أدرِ ما هو الشعور المناسب الذي ينبغي أن أشعر به. كنت أجد نفسي أتلفَّت بحثًا حولي محاولةً أن أحدِّد أي مشاعر أريد أن أشعر بها.

في أحد الأيام، بعد رحيلها بنحو أسبوعين، كنت أقف أمام السياج أتطلع إلى عجل وليد يسير متمايلًا على قوائمه النحيلة. كان يتعثر في مشيته ويترنح وقد أمال رأسه الضخم نحوي يرمقني بنظرة عذبة مُحِبة. قلت في نفسي «أوه! في تلك اللحظة من الزمن ما أشعر به هو السعادة.» فوجئت بأنني أدركتُ ذلك وحدي، في غياب أمي. وفي تلك الليلة، لم أبكِ في فراشي. بل قلت لنفسي: «بوسعي أنا سالامنكا تري هيدل أن أكون سعيدة من دونها.» بدت فكرة قاسية وندمت عليها، لكني «شعرت» بأنها حقيقية.

في النُّزُل، بينما كنت أسترجع تلك الذكريات، جاءت جَدتي وجلست على جانب سريري. قالت: «هل تفتقدين أباكِ؟ هل تودين مهاتفته؟»

كنت أفتقده، وأريد مهاتفته، لكني قلت: «كلا، أنا بخير، صدقًا.» إذ ربما ظن أنني جبانة لو اضطررت إلى أن أهاتفه خلال تلك المدة القصيرة.

قالت جَدتي: «حسنًا يا صغيرتي»، ثم انحنت وقبَّلتني، فشممت رائحة مسحوق الأطفال الذي تستعمله دومًا. أثارت فيَّ تلك الرائحة حزنًا لم أدرِ سببه.

في صباح اليوم التالي، حين ضللنا الطريق أثناء مغادرتنا شيكاجو، صليت قائلة: «رجاء سلمنا من الحوادث، ويسر لنا الوصول في الوقت المناسب ...»

قال جدي: «على الأقل اليوم بديع لخوض رحلة بالسيارة.» حين وجدنا أخيرًا طريقًا يتجه غربًا، سلكناه. كانت خُطتنا هي أن ننحنيَ في الجزء الجنوبي من ولاية ويسكنسن، ومنها ندخل إلى ولاية مينيسوتا، ونقطع ولايات مينيسوتا، وساوث داكوتا ووايومينج، وندلف إلى ولاية مونتانا ونجتاز سلسلة جبال روكي ومنها ندخل إلى ولاية أيداهو. قدَّر جدي أننا سنستغرق يومًا تقريبًا لعبور كل ولاية. لم يكن ينوي التوقُّف كثيرًا حتى نبلغ ساوث داكوتا. قال: «سنزور متنزه بادلاندز. وسنزور سلسلة جبال بلاك هيلز.»

لم أرتَحْ لاسم أي من المكانين، لكني كنت أعرف سبب ذَهابنا إليهما. لقد زارتهما أمي. فقد توقفت الحافلة التي استقللتها من لويستون في جميع المعالم السياحية. وعلى أثرها كنا نسير.

الفصل الثامن

المختل

لما قطعنا شوطًا من طريق الخروج من إل-أه-نو-واي، قالت جدتي: «فلنعد إلى قصتك مع بيبي. احكي لنا ماذا حدث بعد ذلك.»

«هل أحكي لكما قصة المختل؟»

قالت جدتي: «رباه! لا بأس ما دامت ليست مفرطة الدموية. أقسم إن بيبي تلك تشبه جلوريا تمامًا. «مختل»! هل تتصورين ذلك؟»

قال جدي: «هل كانت جلوريا معجبة بي حقًّا؟»

قالت جدتي: «ربما كانت كذلك، وربما لا.»

«رباه! لقد كنت أسأل فحسب ...»

قالت جدتي: «يبدو لي أن لديك ما يكفي من المشاغل، كالتركيز على تلك الطرق، بدلًا من القلق بشأن جلوريا ...»

غمز جدي لي بعينه في مرآة الرؤية الخلفية. وقال: «يبدو أن عزيزتنا غارت.»

قالت جدتي: «كلا لم أفعل. أخبرينا عن بيبي يا صغيرتي.»

لم أود أن يتشاجر جدي وجدتي بشأن جلوريا، لذا سرني أن أتابع قصة فيبي.

في صباح يوم سبت كنت في بيت فيبي حين اتصلت بنا ماري لو فيني ودعتنا إلى منزلها. كان والدا فيبي بالخارج، فجالت فيبي في أرجاء المنزل تتأكد من أن الأبواب والنوافذ جميعها مغلقة. كانت أمها قد فعلت ذلك بالفعل، لكنها جعلت فيبي تعد بأن تفعله بنفسها أيضًا. قالت السيدة وينتربوتوم: «من باب الاحتياط ليس إلا.» لم أعرف «من باب الاحتياط» من ماذا؛ ربما من أن يكون أحد قد تسلَّل إلى داخل المنزل وفتح جميع النوافذ والأبواب في غضون الخمس عشرة دقيقة التي تخللت مغادرتها ومغادرتنا. قالت السيدة وينتربوتوم: «الحذر واجب.»

رن جرس الباب. فتطلعت أنا وفيبي من النافذة. كان يقف في الشرفة الخارجية شابٌّ يبدو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، مع أني لا أضاهي السيدة بارتريدج في حسن تقديرها لأعمار الناس. كان الشاب يرتدي تي-شيرت أسود وبنطال جينز أزرق، ويضع يديه في جيبيه. وبدا عليه التوتر.

قالت فيبي: «لا تحب أمي أن يدقَّ غرباء بابنا. فهي مقتنعة بأنه ذات يوم قد يقتحم أحدهم البيت مسلحًا بمسدس ويتبين أنه مختلٌّ عقليًّا هارب.»

قلت: «بربك يا فيبي. هل تودين أن أفتح أنا الباب؟»

التقطت فيبي نفَسًا عميقًا. «سنفتحه معًا.»

فتحت الباب وحيَّت الشاب بصوت هادئ.

قال الشاب: «أهذا هو المنزل رقم ٤٩ بشارع جراي؟»

قالت فيبي: «أجل.»

«إذَن آل وينتربوتوم يقطنون هنا؟»

بعد أن ردَّت فيبي بالإيجاب، قالت: «أمهلني دقيقة من فضلك.» وأغلقت الباب. «سال، هل تلاحظين فيه أيَّ سمات اختلال عقلي؟ لا يبدو أن في ملابسه موضعًا يمكن أن يُخبِّئ فيه مسدسًا. فسرواله الجينز ضيق جدًّا. ربما يخبئ سكينًا في جوربه.»

أحيانًا تبالغ فيبي جدًّا. قلت: «لا يرتدي جوربًا.» فتحت فيبي الباب مجددًا.

قال الشاب: «أود مقابلة السيدة وينتربوتوم، أهي موجودة؟»

قالت فيبي كذبًا: «أجل.»

تلفَّت الشابُّ إلى طرفَي الشارع. كان شعره مجعدًا أشعثَ، وكانت تعلو وجنتيه دائرتان متوردتان بشدة.

ولم تلتقِ عيناه بأعيننا مباشرةً، بل ظلَّ يحركهما يمينًا ويسارًا. قال: «أريد أن أتحدث إليها.»

قالت فيبي: «هي لا تستطيع أن تأتيَ إلى الباب في الوقت الحالي.»

حين قالت ذلك، خُيِّل لي أنه يوشك أن يشرع في البكاء. عضَّ على شفته وطرَف بعينه سريعًا ثلاث مرات أو أربعًا.

قال: «سأنتظر.»

قالت فيبي وهي تُغلق الباب: «انتظر لحظة.» وتظاهرت بالبحث عن أمها. فنادت: «أمي! أين أنت؟» صعِدَت إلى الطابَق العُلوي وهي تدبدب بصوت عالٍ على درجاته. «أمي!»

عدت أنا وفيبي إلى الباب. كان لا يزال واقفًا مكانه وهو يَدُس يديه في جيبَي بنطاله ويحدق بأسًى في منزل فيبي. قالت له فيبي: «غريب! ظننتها موجودة، لكن لا بدَّ أنها خرجت.» ثم أردفت سريعًا «لكن يوجد أناس كثيرون هنا غيرها، كثيرون جدًّا، أما السيدة وينتربوتوم فغير موجودة.»

سألها: «هل السيدة وينتربوتوم أمكِ؟»

قالت فيبي: «أجل. هل تود أن أبلغها رسالة؟»

ازدادت الدائرتان الورديتان على وجنتَيه توردًا. قال: «كلا. كلا، لا أظن ذلك. كلا.» جال ببصره بين طرفَي الشارع ثم نظر إلى الرقم المعلق فوق الباب. «ما اسمكِ؟»

«فيبي.»

كرر اسمها. «فيبي وينتربوتوم.» ظننت أنه سيهزأ به، لكنه لم يفعل. نظر إليَّ. وسألني: «هل أنت من آل وينتربوتوم كذلك؟»

قلت: «كلا. أنا ضيفة.»

بعد ذلك غادر. ببساطة دار على عقبيه ونزل درجات الشرفة على مهل وخرج إلى الشارع. انتظرنا ريثما انعطف عند الزاوية قبل أن نغادر. قطعنا الطريق إلى بيت ماري لو ركضًا. إذ كانت فيبي متيقنةً من أن الشاب سيتربص بنا. صدقًا. إنها، كما قلت، تتمتع بخيال جامح.

الفصل التاسع

الرسالة

في طريقنا إلى بيت ماري لو، قالت فيبي: «أسرة ماري لو ليست مهذبة السلوك مثل أسرتنا.»

سألتها: «كيف؟»

قالت فيبي: «أوه، سترين.»

كانت ماري لو فيني وبن فيني كلاهما يرتادان فصلنا في المدرسة. في البداية حسبتهما أخوين، لكن فيبي أخبرتني أنهما ابنا عمومة، وأن بن يسكن مع أسرة ماري لو مؤقتًا. على ما يبدو، دائمًا ما يأوي بيت آل فيني على الأقل قريبًا واحدًا يَنشُد المأوى مؤقتًا.

كانت فوضى عارمة تعم بيت آل فيني. لماري لو أخت كبرى وثلاثة إخوة. هذا بالإضافة إلى أبوَيها وبن. كانت كرات القدم وكرات السلة مبعثرةً في أرجاء البيت وكان الصبية يتزحلقون على درابزين السلم ويثبون من فوق المناضد ويتحدثون والطعام يملأ أفواههم مقاطعين الجميع بأسئلة لا حصر لها. ألقت فيبي نظرة على محيطنا وهمست لي: «يبدو أن والدَي ماري لو لا يُحكِمان قبضتهما على زمام الأمور.» أحيانًا تقول فيبي ما يوحي بالأنفة.

كان السيد فيني مستلقيًا في حوض الاستحمام بكامل ملابسه، يقرأ كتابًا. ومن نافذة غرفة نوم ماري لو، رأيت السيدة فيني مستلقية فوق سطح المرأب مسندة رأسها إلى وسادة. سألتُ: «ماذا تفعل؟»

ألقت ماري لو نظرة سريعة من النافذة. «رباه! إنها تأخذ قيلولة.»

حين نهض السيد فيني من حوض الاستحمام، خرج إلى الفناء الخلفي وشارك دينيس ودوجي، أخوَي ماري لو، تمرير كرة قدم أمريكية. كان يصيح: «إليَّ بها هنا!» و«من هنا!» و«أحسنت!»

في عطلة نهاية الأسبوع الماضي، استضافت المدرسة يومًا رياضيًّا. كان أولياء الأمور يشاهدون أبناءهم يستعرضون مهاراتهم، وأقيمت فعاليات لأولياء الأمور أيضًا، مثل السباق الثلاثي الأرجل، ولعبة تمرير حبة الليمون الهندي. لم يتمكن أبي من الحضور، لكن والدَي ماري لو حضرا، وكذلك والدا فيبي.

قالت لي فيبي حينها: «تكون الألعاب صبيانية بعض الشيء أحيانًا، لذا عادة لا يشارك أبواي فيها.» كان والداها يقفان جانبًا، بينما كان السيد فيني وزوجته يركضان في الأرجاء وهما يصيحان «هنا!» و«أحسنت!» في سباق الأرجل الثلاث، ظل السيد فيني وزوجته يتعثران. قالت فيبي: «أتساءل إن كانت ماري تشعر بالخجل من تصرفات والدَيها.»

لم أرَ ما يُخجل في تصرفاتهما. بل رأيتها لطيفة، لكني لم أفصح عن ذلك لفيبي. أظن أن فيبي في قرارة نفسها كانت مثلي ترى أن تصرفاتهما لطيفة، وتمنَّت لو تصرف والداها مثل آل فيني. لكنها لم تستطع الاعتراف بذلك، وبطريقة ما كانت تعجبني تلك الصفة في فيبي؛ أنها كانت تحاول الدفاع عن أسرتها.

في اليوم الذي التقيت فيه وفيبي المختلَ المحتمل وقصدنا بيت ماري لو، وقعت بضعة أمور غريبة أخرى. كنا نجلس على أرضية غرفة ماري لو، وكانت فيبي تخبر ماري لو عن المختل المحتمل الغامض. ظل دينيس ودوج وتومي، إخوة ماري لو، يندفعون إلى داخل الغرفة وخارجها ويقفزون على السرير ويرشوننا بمسدسات الماء.

كان ابن عم ماري لو مستلقيًا على سريرها، يحدق فيَّ بعينيه الفاحمتَي السواد. كانتا كقرصين سوداوين لامعين مثبتين في محجرَين كبيرَين دائريَّين. وكانت رموشه الداكنة طويلة وكثيفة، فكانت تلقي بظلال على وجنتيه.

قال لي: «يعجبني شعرك، هل يمكنكِ أن تجلسي عليه؟»

«أجل، يمكنني لو أردت.»

أخذ بن ورقة من مكتب ماري لو، وعاد يستلقي على السرير ورسم صورة لكائن يشبه العظاءة له شعر طويل امتدَّ على ظهره وتحول تحت مقعدته إلى كرسيٍّ له أرجل. تحت الرسمة، كتب بن «سلمندر جالسة على شعرها.»

قالت فيبي: «مضحك جدًّا.» وغادرت الغرفة تتبعها ماري لو.

التفتُّ وأعدت الرسمة إلى بن، وبينما كان ينحني للأمام ألصق شفتيه بترقوتي. استقرت شفتاه عليها لبرهة. كان أنفي في شعره، الذي تفوح منه رائحة الليمون الهندي. ثم تدحرج ناهضًا من فوق السرير، وأخذ رسمته واندفع مغادرًا الغرفة.

هل حقًّا قبَّل ترقوتي؟ وإن فعل، فلِمَ؟ هل كان ينوي أن تستقر القبلة في مكان آخر، شفتيَّ على سبيل المثال؟ كانت تلك فكرة مرعبة. هل صورت لي مخيلتي ذلك؟ ربما اصطدم بي لا أكثر وهو يتدحرج ناهضًا من فوق السرير.

في طريق عودتنا من بيت ماري لو ذلك اليوم، قالت فيبي: «ألم تجدي البيت صاخبًا للغاية؟»

قلت: «لم يضايقني ذلك.» كنت أفكر في شيء قاله أبي ذات يوم لأمي: «سنملأ هذا المنزل بالأطفال! سنملؤه حتى آخره بهم!» لكنهما لم يملآه. كنت أنا وهما فقط، وبعد ذلك لم يبقَ سواي أنا وأبي.

حين عدنا إلى بيت فيبي، كانت أمها مستلقيةً على الأريكة تمسح عينيها بمنديل. سألتها فيبي: «هل وقع خطب ما؟»

أجابتها السيدة وينتربوتوم: «أوه، كلا. كل شيء على ما يرام.»

أخبرت فيبي أمَّها عن المختل المحتمل الذي جاء إلى البيت في وقت سابق. ضايق ذلك الخبر السيدة وينتربوتوم. أرادت أن تعرف بالضبط ما قاله وما قالته له فيبي وكيف كان شكله وكيف تصرَّف وكيف تصرَّفت فيبي، وأطالت السؤال عن ذلك. أخيرًا قالت السيدة وينتربوتوم: «أظن أنه من الأفضل ألا نخبر أباكِ عن ذلك.» ومدَّت يديها وكأنما تريد معانقة فيبي، لكن فيبي ابتعدت عنها.

لاحقًا قالت لي فيبي: «غريب. عادة ما تخبر أمي أبي بكل شيء.»

«ربما تحاول أن تقيكِ عناء الوقوع في مشكلة بسبب حديثك مع شخص غريب.»

قالت: «ولو، لا أحب أن أبقيَ الأمر سرًّا عنه.»

خرجنا إلى شرفة بيتها وهناك، كان يستقر ظرف أبيض على درجة السلم العلوية. لم يكن مكتوبًا عليه اسم أو أي شيء من الخارج. ظننته أحد تلك الإعلانات عن خدمات طلاء المنازل أو تنظيف السجاد. فتحته فيبي. قالت: «رباه!» كان بداخله ورقة زرقاء صغيرة مطبوع عليها الرسالة التالية: «لا تحكم على أحد قبل أن تسير في دربه مسيرة قمرين.»

قالت فيبي: «غريب!»

حين أرت فيبي أمَّها الرسالةَ، قبضت السيدة وينتربوتوم على ياقة قميصها. سألت: «تُرى من المقصود بها؟»

دخل السيد وينتربوتوم من الباب الخلفي حاملًا مضارب الجولف الخاصة به. قالت له زوجته: «انظر يا جورج، لمن يمكن أن تكون تلك الرسالة؟»

قال السيد وينتربوتوم: «لا أدري حقًّا.»

«لكن يا جورج، لماذا يرسل إلينا أحدٌ تلك الرسالة؟»

«لا أدري يا نورما. لعلها ليست لنا.»

قالت السيدة وينتربوتوم: «ليست لنا؟ لكنها كانت على درجات سُلَّمِ بيتنا.»

«أنا جاد يا نورما. يمكن أن تكون متروكة لأي أحد. ربما هي لبرودنس. أو لفيبي.»

سألت السيدة وينتربوتوم: «فيبي، أهي لكِ؟»

قالت فيبي: «لي؟ لا أظن ذلك.»

قالت السيدة وينتربوتوم: «لمن هي إذَن؟» كان قلق شديد يعتريها. أعتقد أنها حسبت أن المختل المحتمل هو من تركها.

الفصل العاشر

مرحى، مرحى

كنت قد حكيت لتوي لجدي وجدتي عن الرسالة الغامضة حين خرج جدي من الطريق السريع. قال إنه تعب من القيادة طويلًا، وإن الخطوط البيضاء في منتصف الطريق السريع بدأت تتلوَّى أمام عينيه. فيما كان يدلف إلى مدينة ماديسون بولاية ويسكنسن، قالت جدتي: «أشعر ببعض الأسى على حال السيدة وينتربوتوم. فهي لا تبدو لي سعيدة جدًّا.»

قال جدي: «إن أردتِ رأيي، أظنهم جميعًا مخابيل.»

تابعت جدتي: «الأمومة تشبه ورطة لا خلاص منها. لو كان لديك ثلاثة أطفال أو أربعة — أو أكثر — فالأمر يشبه الرقص على صفيح ساخن طَوال الوقت. لا وقت لديك للتفكير في أي شيء آخر. ولو لديك واحد أو اثنان فقط، فالأمر يكاد يكون أصعب. إذ يكون لديك أوقات فراغ؛ مساحات خاوية تعتقد أنه يتعين عليك أن تملأها.»

قال جدي: «الأبوة هي الأخرى ليست هينة.»

ربَّتت جدتي على ذراعه. قالت: «هراء.»

ظللنا نجول بالسيارة حتى لمح جدي مساحة ركن. رصدها أيضًا قائد سيارة أخرى، لكن جدي سبقه إليها، وحين لوَّح سائق السيارة الأخرى بقبضته، قال جدي: «أنا من المحاربين القدامى. أترى ساقي هذه؟ ما زالت تحمل شظايا من بنادق الألمان. لقد أنقذتُ وطننا!»

لم يكن معنا العملات المعدِنية المطلوبة لعداد الانتظار؛ لذا خط جدي ملاحظة طويلة تفيد بأنه زائر من بايبانكس، كنتاكي، وأنه من المشاركين في الحرب العالمية الثانية تحمل ساقه شظية من بنادق الألمان، وأنه يقدر لسكان مدينة ماديسون الجميلة السماح له بالانتظار في مساحة الركن تلك وإن لم يكن معه عملات معدنية مناسبة للعداد. وضع تلك الملاحظة على الزجاج الأمامي.

سألته: «هل فعلًا في ساقك شظية ألمانية؟»

رفع جدي بصره إلى السماء. قال: «ما أجمل هذا اليوم!»

كانت الشظية خيالية. أحيانًا يكون استيعابي لمثل تلك الأمور بطيئًا. قال لي أبي ذات مرة إني ساذجة كسمكة. حسبت أنه يقول «سائغة». ظننت أنه يعني أن مذاقي طيب.

تمتد مدينة ماديسون بين بحيرتين، بحيرة ميندوتا وبحيرة مونونا، وتتفرع من هاتين البحيرتين بحيرات صغيرة أخرى. بدا لي أن المدينة كلها في عطلة؛ إذ كان الناس يتجولون بدرجاتهم ويتمشَّون بجانب البحيرات ويطعمون البط ويأكلون ويجدفون ويركبون القوارب الشراعية. كان منظرًا لم أرَ مثله من قبل. ظلت جَدتي تردد: «مرحى، مرحى!»

في المدينة جزء لا يُسمَح بدخول السيارات فيه، وكان الآلاف من الناس يتمشون فيه وهم يأكلون المثلجات. دخلنا إلى مطعم «إيلا» لأطعمة الكوشر (كوشر أو كشروت هو الطعام الحلال حسب الأحكام اليهودية) والمثلجات وتناولنا شطائر البسطرمة والخيار المخلل، ثم أتبعناه بالمثلجات بنكهة التوت البري. بعد أن تجولنا قليلًا على الأقدام، هاجمنا الجوع مرة أخرى، فشربنا شايًا بالليمون وأكلنا كعكًا بالتوت الأزرق في مقهى «ستيب آند برو».

طَوال الوقت، كنت أسمع الهمسات: «هيا، هلُمِّي، هيا.» كان جدي وجدتي يتحركان ببطء شديد. ظللت أسألهما: «ألم يحن الوقت للرحيل؟» لكن جدتي كانت ترد: «مرحى، مرحى!» بينما يقول جدي: «ننطلق قريبًا، يا صغيرتي، قريبًا.»

سألتني جدتي: «ألا تريدين إرسال أي بطاقات بريدية؟»

«كلا، لا أريد.»

«ولا حتى لأبيك؟»

«كلا.» وقد كان لديَّ سبب وجيه لذلك. على مدى رحلتها، كانت أمي ترسل لي بطاقات بريدية. كتبت تقول: «ها أنا ذا في متنزه بادلاندز، أفتقدكِ بشدة،» و«ها هو جبل راشمور، لكني لا أرى أي وجوه لرؤساء، لا أرى إلا وجهكِ.»

وصلت البطاقة البريدية الأخيرة بعد يومين من اكتشافنا أنها لم تكن تنوي العودة. كانت مُرسلة من مدينة كور ديلين بولاية أيداهو. كان على وجه البطاقة صورة لبحيرة زرقاء بديعة يحيط بها أشجار باسقة دائمة الخضرة. وكانت قد كتبت على ظهرها: «غدًا أصل إلى مدينة لويستون. أحبك يا سالامنكا تري يا صغيرتي.»

أخيرًا قال جدي: «أكره أن أعود إلى القيادة على الطريق، لكن الوقت يضيع!»

قلت في نفسي: أجل، أجل، أجل!

استرخت جدتي في مقعدها لتأخذ قيلولة، فيما تلوتُ بضعة آلاف من الصلوات الإضافية. ولم أدرِ أين نحن حتى خرج جدي من الطريق السريع مرة أخرى. قال:

«انظرا. إنها بلدة ويسكنسن ديلز.» دخل بالسيارة إلى موقف سيارات شاسع، وقال: «لمَ لا تستكشفان المكان؟ سآخذ قيلولة قصيرة.»

دخلت أنا وجدتي متطفلين إلى قلعة قديمة، ثم جلسنا على العشب نراقب مجموعة من السكان الأصليين يرقصون ويقرعون الطبول. لم تحب أمي لفظة «السكان الأصليين». كانت تراها تحمل دلالة على البُدائية والجمود. قالت: «جدة جدتي كانت من قبيلة سينيكا، من قبائل الهنود الحمر، وأنا أفخر بذلك. لم تكن من قبيلة سينيكا التابعة للسكان الأصليين. كلمة «الهنود الحمر» تحمل معنى الشجاعة والرقي.» في المدرسة، كان معلمونا يطلبون منا استخدام لفظة السكان الأصليين، لكني كنت أتفق مع أمي. فوقعُ لفظة الهنود الحمر أجمل بكثير. أحببت أنا وأمي تلك المسحة الهندية في سلالتنا. قالت إنها جعلتنا نُقدِّر عطايا الطبيعة؛ جعلتنا أوثق صلةً بالأرض.

استلقيت على ظهري وأغمضت عيني، أصغي إلى قرع الطبول يقول: «هيا، هيا، هيا»، والراقصون ينبسون: «هلُمِّي، هلُمِّي، هلُمِّي.» كان أحدٌ ما يقرع الأجراس أيضًا، ولوهلة تذكرت عيد الميلاد المجيد وأجراس مزلجته. ولما فتحت عينيَّ مجددًا، لم أجد جدتي.

تلفتُّ حولي أحاول تذكُّر أين ركنَّا السيارة. نظرت خلال الحشد، وإلى الأشجار ورائي، وإلى كشك الأكلات السريعة. قلت في نفسي: «لقد رحلا. تركاني ورحلا.» شققت طريقي بين الناس.

كان الحشد يصفق، والطبول تُقرع. التبست عليَّ الاتجاهات ولم أستطع أن أتذكر من أي طريق أتينا. كانت توجد ثلاث لافتات، تشير إلى ثلاثة مواقف سيارات مختلفة. هدرت الطبول. توغلتُ أكثر بين الحشد الذي علا تصفيقه متماشيًا مع الطبول.

شكَّل الهنود دائرتَين؛ دائرة وبداخلها أخرى، وكانوا يقفزون. كان الرجال يرقصون في الدائرة الخارجية مرتدين أغطية رأس من الريش ومآزر قصيرة من الجلد. وكانوا ينتعلون خفافًا في أقدامهم، وتذكرت مجددًا رسالة فيبي: «لا تحكم على أحد قبل أن تسير في دربه مسيرة قمرين.»

داخل الدائرة التي شكلها الرجال، كانت النساء اللاتي ارتدين أثوابًا طويلة وسلاسل من الخرز قد شابكن أذرعهن وكنَّ يرقصن حول امرأة عجوز ترتدي ثوبًا قطنيًّا عاديًّا. على رأسها كان غطاء رأس ضخم انزلق إلى جبهتها.

أمعنت النظر. كانت المرأة التي تقف في المنتصف تقفز. وكانت تنتعل حذاءً أبيض مستوي الكعب. بين قرع الطبول، سمعتها تقول: «مرحى، مرحى.»

الفصل الحادي عشر

إجفال

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، تركنا ولاية ويسكنسن وتابعنا المسير، نَنهَب الطريق الذي يمرُّ بمحاذاة الحدود الجنوبية لولاية مينيسوتا. هنا كانت الأرض مكتسيةً بالمرتفعات والخضرة، واحتشدت الغابات على جانبَي الطريق، وكان الهواء يحمل رائحة الصنوبر.

قال جدي: «أخيرًا، منظر طبيعي بديع! أحب الأماكن ذات المناظر الطبيعية الجميلة، ماذا عنكِ يا صغيرتي؟»

لم أكن قد تفوَّهت بكلمة عما حدث أمس؛ عن الهلع الذي تملَّكني حين ظننت أنهما تركاني ورحلا. لا أعرف ماذا دهاني. منذ أن رحلت أمي عنا في ذلك اليوم من شهر أبريل، وأنا أتوقع أن الجميع سيرحل عني، واحدًا تلو الآخر.

سرني أن تأتيَني فرصة لمتابعة سرد قصة فيبي، لأني حين أحكي عنها، يكاد ذهني لا ينشغل بسواها.

سألت جدتي: «هل تلقت بيبي أي رسائل أخرى؟»

أجل، تلقت رسائل أخرى. في يوم السبت التالي، كنت أنا وفيبي ذاهبتين إلى بيت ماري لو مجددًا. وأثناء مغادرتنا منزل فيبي، وجدنا على الدرجات الأمامية ظرفًا أبيض آخر بداخله ورقة زرقاء. كانت الرسالة تقول: «لكلٍّ أجندتُه الخاصة.»

تطلَّعتُ أنا وفيبي إلى طرفَي الشارع. ولم نرَ أثرًا لمن ترك الرسالة. رأت ماري لو الرسالتين (تلك والأخرى) مثيرتين للاهتمام. قالت: «كم هذا مثير! ليت أحدًا يترك لي رسائل!»

أما فيبي فرأت الرسالتين مخيفتين. لم تكن كلماتهما ما يقلقها — فليس فيهما شيء يبعث على الخوف — بل فكرة أن أحدًا ما تسلل وتركها على شرفتها. كانت تخشى أن يكون ثمة من يراقب منزلهم، يتحين اللحظة المناسبة لترك الرسالة. كانت فيبي تحترف القلق.

حاولنا أن نتبين معنى الرسالة. قالت فيبي: «حسنًا، الأجندة هي قائمة بالموضوعات التي ستُناقش في اجتماع ما ...»

قلت مقترحة: «إذَن ربما تكون لأبيكِ. هل يحضر اجتماعات عمل؟»

قالت فيبي: «أظن ذلك. يومه كله مشغول دائمًا.»

قالت ماري لو: «ربما الرسالة من مديره. ربما قصَّر أبوك في إدارة اجتماعاته.»

قالت فيبي: «أبي منظم جدًّا.»

سألت ماري لو: «ماذا عن الرسالة الأخرى؟ «لا تحكم على أحد قبل أن تسيرَ في دربه مسيرة قمرين».»

قلت: «أعرف ما تعنيه. سمعت أبي يستخدمها كثيرًا. كنت أتخيل قمرين يستقران في زوج من أحذية الهنود الحمر، لكن أبي قال لي إنها تعني أن المرء يجب ألَّا يحكم على أحد إلا بعد أن يسير في دربه. أي بعد أن يضع نفسه في ظروفه. يتخيل نفسه مكانه.»

سألت فيبي: «وهل يردد أبوكِ تلك العبارة كثيرًا؟»

قلت: «أعرف فيمَ تفكرين، لكن أبي ليس مَن يتسلل ويترك تلك الرسائل. فهذا ليس خط يده.»

حين دخل بن إلى غرفة ماري لو، سألته عما يظن أنها تعنيه. أخذ ورقة من مكتبها، ورسم رسمًا كارتونيًّا سريعًا. كان مخيفًا بعض الشيء، إذ كان ما رسمه مطابقًا لما كانت ترسمه لي مخيلتي: زوج من أحذية الهنود الحمر يستقر فيه قمران.

قالت ماري لو لفيبي: «ربما يتسرع أبوك في الحكم على زملائه في العمل. ويحتاج لأن يضع نفسه في ظروفهم أولًا.»

قالت فيبي: «أبي لا يتسرع في الحكم على الناس.»

قال بن: «لا داعي للنبرة الدفاعية.»

«أنا لا أستعمل نبرة دفاعية. بل أوضح أن أبي لا يتسرع في الحكم على الناس.»

لاحقًا قصدنا المتجر. كنت أظن أنني سأذهب أنا وفيبي وماري لو فحسب، لكن حين غادرنا المنزل كنا قد ضممنا إلينا تومي ودوجي أيضًا. وفي اللحظة الأخيرة، قال بن إنه أيضًا قادم معنا.

قالت فيبي لماري لو: «لا أعرف كيف تطيقين ذلك؟»

«أطيق ماذا؟»

أشارت فيبي إلى تومي ودوجي اللذين كانا يركضان حولنا مثل لعبتين زنبركيتين، يقلدان صوت القطار والطائرة، ويندفعان بيننا ثم يركضان أمامنا ويسقط بعضهما فوق بعض ويصيحان ثم يقفزان ناهضين ويضرب أحدهما الآخر ويطاردان النحل الطنان.

قالت ماري لو: «اعتدتُ الأمر. فإخوتي يفعلون أمورًا خرقاء طَوال الوقت.»

طَوال الطريق، كان بن يسير خلفي مباشرة، وهو ما جعلني متوترة. ظللتُ ألتفتُ لأرى ما يفعله بالخلف، لكنه كان يتمشَّى ليس إلا، تعلو وجهه ابتسامة. ارتطم بي تومي، وحين بدأت أهوي إلى الخلف أمسك بي بن. لفَّ خَصري بذراعَيه وظلَّ مُمسكًا بي، حتى بعد أن تأكد من أنني لن أسقط. شممت رائحة الليمون البري الغريبة مجددًا وشعرت بوجهه يستقر على شعري. قلت له: «أفلتني.» لكنه لم يفعل. اجتاحني شعور غريب، وكأن كائنًا ضئيلًا كان يزحف على عمودي الفقري. لم يكن شعورًا مريعًا، بل بالأحرى كان خفيفًا ويشبه الدغدغة. ظننت أنه ربما أسقط شيئًا ما في قميصي. كررت بإصرار: «أفلتني!» فأفلتني أخيرًا.

في المتجر، انتابني الخوف قليلًا. ربما كنتُ قد تشرَّبت بحكايات فيبي عن المجانين والسفاحين الذين يقتلون ضحاياهم بالفأس. كنتُ أنا وفيبي نطالع المجلات حين شعرت أن ثمة مَن يراقبنا. نظرت إلى حيث كان يقف بن، لكنه كان منهمكًا هو وماري لو في تنقيب ألواح الشوكولاتة. لم يتبدَّد ذلك الشعور. التفتُّ إلى الجهة الأخرى، فإذا بالشاب اليافع المتوتر، الذي كان قد أتى إلى بيت فيبي، واقفًا على الجانب المقابل من المتجر. كان أمام صندوق الدفع، يدفع ثمن شيء ما، لكنه كان يُحدِّق فينا وهو يناول العامل النقود. وكزتُ فيبي. قالت: «رباه! إنه المختل.» هُرعَت فيبي إلى حيث كان يقف بن وماري لو. «انظرا بسرعة، إنه المختل.»

«أين؟»

«عند صندوق الدفع.»

قالت ماري لو: «لا أحد هناك.»

قالت فيبي: «صدقًا، لقد كان هناك، أقسم لكما. اسألا سال.»

قلت: «كان هناك بالفعل.»

لاحقًا، بعد أن تركنا ماري لو متجهتين إلى منزل فيبي، سمعنا وقع أقدام شخص يركض خلفنا. ظنت فيبي أننا هلكنا. قالت: «لو هشَّم المختل رأسينا وتركنا هنا على الرصيف ...»

شعرت بيدٍ على كتفي، ففتحت فمي لأصرخ لكن صوتي لم يخرج. كان عقلي يقول: «اصرخي! اصرخي!» لكن صوتي أبى أن يخرج.

كان هذا هو بن. قال: «هل أخفتك؟»

قالت فيبي: «لم يكن ذلك مضحكًا.»

قال: «سأوصلكما إلى البيت. تحسبًا لوجود أي ... أي ... مختلين.» وجد صعوبة في قول كلمة «مختلين». في الطريق إلى منزل فيبي، قال بن بعض الأشياء الغريبة. في البداية قال: «ربما لا ينبغي أن تصفاه بالمختل.»

سألته فيبي: «ولِمَ لا؟»

«لأن كلمة مختل ... لأن الكلمة تعني ... فيها دلالة على ... لا عليكِ.» لم يفسر، وبدا خجلًا من قوله ذلك من الأساس. ثم قال لي: «ألا يتلامس أهل بيتكِ؟»

«ماذا تعني؟»

قال: «أتساءل ليس إلَّا. فأنت تجفلين كلما لمسكِ أحد.»

«لا أفعل.»

«بل تفعلين.» ولمس ذراعي. أعترف بأن غريزتي كانت تدفعني لأن أجفل، لكني أحجمت عن ذلك. تظاهرت بأني لا ألاحظ أن يده تستقر على ذراعي. عاد ذلك الكائن الذي يدغدغ عمودي الفقري. همهم بنبرة طبيب يفحص مريضة: «مم! مم!» ثم رفع يده. «أين أمكِ؟»

لم أكن قد أتيت على ذكر أمي لأي أحد، ولا حتى فيبي، عدا تلك المرة التي سألتني فيها عنها فلم أزد عن قول إنها لا تعيش معنا.

قال بن: «رأيت أباكِ مرةً، لكني لم أرَ أمكِ قَط. فأين هي؟»

«في أيداهو. لويستون، أيداهو.»

سأل بن: «ماذا تفعل هناك؟»

«لا أودُّ إخبارك.» لم يخطر لي أن أسأله أين أمه هو.

لمس ذراعي مجددًا. وحين أجفلتُ، قال: «أها! كشفتكِ!»

ضايقني ما قاله. خطر لي أن أبي لم يَعُد يعانقني كثيرًا مثل ذي قبل، وأني ربما بدأت فعلًا أجفل كلما لمسني أحد. لم يكن الوضع هكذا من قبل. كنا فيما مضى أسرة تحب العناق. بينما كنت أسير مع بن وفيبي، تذكرت شيئًا حدث وأنا في التاسعة أو العاشرة. صعدت أمي إلى سريري وعانقتني وقالت: «لنصنع طَوفًا ونطفو مبتعدتين به في نهر.»

لطالما راودتني فكرة الطوف تلك، بل إني صدقت أننا ذات يوم ربما نصنع طوفًا ونطفو مبتعدتين به في نهر معًا. لكنها حين ذهبت إلى لويستون، أيداهو، ذهبت وحدها.

لمس بِن ذراع فيبي. فأجفَلَتْ. فقال: «أها! كشفتكِ. أنت تجفلين أيضًا يا «فري بي».»

ضايقني ذلك أيضًا. لم تفتني ملاحظة أجواء التوتر السائدة بين جميع أفراد أسرة فيبي، وكم تبدو أسرتها منمقة ووقورة و«جامدة» للغاية. هل أصير مثلها؟ ما الذي جعل أسرتها هكذا؟ رأيت أم فيبي تحاول بضع مرات لمس فيبي أو برودنس أو السيد وينتربوتوم، لكنهم كانوا جميعًا يصدونها. وكأنما لم يعودوا بحاجة إليها.

هل كنت أصد أمي؟ هل كانت لديها مساحات خاوية؟ ألهذا رحلت؟

حين وصلنا إلى مدخل منزل فيبي، قال بن: «أظن أنكما وصلتما إلى بر الأمان الآن. أظن أنني سأذهب.»

قالت فيبي: «تفضل.»

وصلت السيدة كادافر تحك الرصيف بسيارتها الفولكسفاجن الصفراء، وشعرها الأحمر الجامح يتطاير حولها كشعر ساحرة شريرة. لوَّحت لنا محييةً وبدأت تُخرِج مشترياتها من السيارة وتنزلها بإهمال على الممر الجانبي.

سأل بن: «من هذه؟»

«السيدة كادافر.»

«اسمها كادافر؟ أي جيفة؟»

«أجل.»

نادت السيدة كادافر: «مرحبًا يا سال.» ألقت كومة من الأكياس المكتنزة في الممر الجانبي. سألها بن إن كانت تحتاج إلى أي مساعدة. قالت السيدة كادافر وهي ترمقه بعينيها الرماديتين الجامحتين: «كم أنت مهذب!»

قالت فيبي: «هي تثير هلعي.» وهمست إلى بن قائلة: «لا تدخل بيتها.»

قال: «لمَ لا؟» ويبدو أنه قالها بصوت مرتفع للغاية؛ إذ رفعت السيدة كادافر بصرها إليه وقالت: «ماذا قلت؟»

قالت فيبي: «لا شيء؟»

قالت السيدة كادافر: «هل تودين الدخول يا سال؟»

قلتُ، سعيدةً بأن لديَّ عذرًا: «كنتُ ذاهبةً لتوي إلى منزل فيبي.»

خرجت والدة فيبي إلى الباب الأمامي. «فيبي؟ ماذا تفعلين؟ هل ستدخلين؟»

تركنا بن. أثناء دخولنا إلى بيت فيبي، رأيناه يرفع شيئًا من الممر الجانبي. كان هذا الشيء فأسًا جديدًا لامعًا.

قالت والدة فيبي: «هل هذا أخو ماري لو؟ هل كان يوصلكما إلى البيت؟ أين ماري لو؟»

قالت فيبي: «أكره أن تسأليني ثلاثة أسئلة متتالية.» من النافذة، رأينا بن يجرجر الفأس صاعدًا السلالم الأمامية لمنزل السيدة كادافر. نادته فيبي قائلة: «لا تدخل!» لكن لما أمسكت السيدة كادافر الباب لإبقائه مفتوحًا، اختفى بن بالداخل.

سألتها والدتها: «ماذا تفعلين يا فيبي؟»

عندئذٍ أخرجت فيبي من جيبها الظرف الذي يحوي الرسالة الجديدة. قالت فيبي: «وجدت هذا بالخارج.»

فتحت السيدة وينتربوتوم الظرف بحذر، وكأنما يحوي قنبلة مصغرة. قالت: «عزيزتي، تُرى من أرسله؟ ولمن؟ وماذا يعني؟» شرحت لها فيبي ما هي الأجندة. «أعرف ما الأجندة يا فيبي. لكن ذلك الأمر برمته يقلقني. أود أن أعرف من يرسل هذه الرسائل.»

كنت أنتظر أن تخبرها فيبي برؤيتنا الشاب المتوتر في المتجر، لكن فيبي لم تأتِ على ذكر أمره. بعدها بقليل رأينا بن خارجًا من بيت السيدة كادافر. كان يبدو سليمًا معافًى.

حين وصلت إلى البيت ذلك اليوم، كان أبي في المرأب يفحص السيارة. كان منحنيًا فوق المحرك فلم أتبين وجهه في البداية. «أبي، في ظنك ماذا يعني أن يجفل المرء حين يلمسه شخص آخر؟ أتظن أن ذلك يعني أن مشاعره بدأت تتبلد؟»

التفت أبي ببطء. كانت عيناه حمراوين محتقنتين. أظن أنه كان يبكي. وكان الشحم يلطخ يديه وقميصه، ولكن حين عانقني، لم أجفل.

الفصل الثاني عشر

فراش الزوجية

حين بدأت أروي قصة فيبي، كان جدي وجدتي يستمعان إليَّ في صمت. كان جدي منشغلًا بالطريق وجدتي تحدق من النافذة. أحيانًا، كانا يعلقان متعجبَين: «يا للهول!» أو «حقًّا؟» لكن بتقدم أحداث القصة، بدأت مقاطعاتهما لي تزداد تدريجيًّا.

حين أخبرتهما عن الرسالة التي تقول «لكلٍّ أجندتُه الخاصة»، طرقت جدتي على لوحة العدادات وقالت: «أليست تلك هي الحقيقة! رباه! أليس هذا هو مربط الفرس؟»

سألتها: «ماذا تعنين؟»

«كلٌّ منا يمضي في الحياة لا يكترث إلا بمشاكله وحياته ومخاوفه. وكلنا ننتظر من الآخرين أن يشاركونا أجندتنا. ولسان حالنا يقول «تلك هي مخاوفي. قاسموني إياها. شاركوني حياتي. اكترثوا لمشكلاتي. اهتموا بي».» تنهَّدت جدتي.

حك جدي رأسه. «هل ستتحولين إلى فيلسوفة؟»

قالت: «فلتركز في أجندتك.»

حين ذكرتُ أن بن سألني عن أمي وقلت إنها في لويستون، لكني لم أرغب في أن أوضح أكثر، تبادل جدي وجدتي النظرات. قال جدي: «ذات مرة، رحل أبي لستة أشهر دون أن يخبر أحدًا بمكانه. حين سألني صديقي المقرب عن مكانه، ثرت ولكمته في فكه. وهو صديقي المفضل. لكمته في فكه لا أقل.»

قالت جدتي: «لم تخبرني بذلك من قبل. أتمنى أن يكون قد رد لك الضربة.»

أشار جدي إلى فلجة في أسنانه. «أترين ذلك؟ لقد كسر لي سني.»

وحين أخبرتهما عن إجفالي عندما لمسني بن وعن عثوري على أبي في المرأب عند عودتي إلى البيت، فكت جدتي حزام أمان مقعدها واستدارت بكامل جسدها إلى الخلف

وانحنت فوق ظهر المقعد. وأمسكت يدي وقبلتها. قال جدي: «أعطها قبلةً أخرى نيابةً عني.» فقبَّلَت يدي مرةً أخرى.

وفي مرات عديدة، بينما كنت أصف عالم فيبي الذي يعج بالمجانين والسفاحين، علقت جدتي قائلة: «مثل جلوريا، مثل جلوريا تمامًا.» في إحدى تلك المرات، بعد أن قالت ذلك، ارتسمت على وجه جدي نظرة حالمة، فقالت جدتي: «كف عن التفكير في جلوريا. أعرف ما يدور في ذهنك.»

قال جدي: «أتسمعين يا صغيرتي؟ هذه الماكرة تعرف كل ما يدور في ذهني. أليست رائعة؟»

قبل أن نبلغ حدود ولاية ساوث داكوتا، سلك جدي طريقًا فرعيًّا يتجه شمالًا لأنه رأى لافتةً إعلانيةً عن نصب بايبستون التذكاري الوطني، في مدينة بايبستون، بولاية مينيسوتا. كانت اللافتة تحمل صورة لأحد الهنود الحمر يدخن غليونًا.

سألته جدتي: «لماذا تريد الذَّهاب لرؤية هندي عجوز يدخن غليونًا؟» كانت كأمي لا تحب لفظة «السكان الأصليين».

قال جدي: «أود ذلك دون سبب وجيه. قد لا تتسنى لنا الفرصة لرؤية ذلك مرة أخرى.»

سألت جدتي: «رؤية هندي يدخن غليونًا؟»

«هل سيستغرق ذلك وقتًا طويلًا؟» سألتُ بينما كان الهواء يصيح: «هيا، هيا، هيا.»

«لن يستغرق طويلًا يا صغيرتي. يجب أن ندع «كاربراتير» السيارة يبرد. تلك الطرق تستنزف طاقتي.»

كان الطريق الفرعي الذي سلكناه إلى بايبستون يتعرج خلال غابة باردة مظلمة، لو أغمضت عينيك فيها وشممت الهواء، فسيُخيَّل لك أنه يحمل رائحة هواء بايبانكس، كنتاكي. بايبستون بلدة صغيرة. أينما ذهبنا، كان الناس يتبادلون الحديث واقفين، أو جالسين على مقعد، أو سائرين في الشارع. أثناء مرورنا بهم، كانوا يرفعون بصرهم إلينا ويطالعون وجوهنا مباشرة ويقولون «أهلًا» أو «مرحبًا»، ومع أن قول ذلك قد يبدو مبتذلًا، لكننا شعرنا بالألفة هناك. كانت تشبه بايبانكس، حيث يتوقف كل من تقابله ليقول لك شيئًا، لأن الجميع يعرفك ولطالما عرفك طوال حياته.

ذهبنا إلى نُصب بايبستون التَّذكاري ورأينا الهنود الحمر يصيحون عند الصخرة في مقلع الحجارة هناك. سألت أحدهم إن كان ينتمي إلى السكان الأصليين، لكنه أجابني:

«كلا، أنا شخص عادي.» فقلت: «لكن هل أنت شخص عادي تنتمي إلى السكان الأصليين؟» قال: «كلا أنا شخص عادي من الهنود الحمر.» فقلت: «وأنا كذلك. أنحدر من سلالتهم.»

شاهدنا أشخاصًا آخرين من الهنود الحمر يصنعون غلايين من الحجارة. في متحف الغلايين، عرفنا عن الغلايين أكثر مما ينبغي لأي إنسان أن يعرف. في الفسحة خارج المتحف، جلس شخص من الهنود الحمر على جذع شجرة يدخن غليونًا تقليديًّا هنديًّا طويلًا. وقفنا نراقبه خمس دقائق، ثم سأله جدي إن كان بوسعه أن يجربه.

ناول الرجل الغليون لجدي الذي جلس على العشب ونفث منه نفثتين ثم ناوله لجدتي. لم تتردد ولو لحظة حتى. نفثت منه نفثتين ثم ناولته لي. كانت ثمة نكهة حلوة على طرف الغليون. وضعت طرفه في فمي، وقبلته قبلتين خفيفتين، كما بدا لي أن جدَّيَّ فعلا. خرج الدخان في فمي، وحبسته بالداخل فيما أعدت الغليون لجدي وجدتي.

حبست الدخان في فمي برهةً فيما واصل جدي وجدتي تدخينه. باعدت بين شفتيَّ قليلًا فتدفَّق خيط خفيف من الدخان وتلوى في الهواء، لسبب ما ذكَّرني حين رأيته بأمي. لم يكن ذلك منطقيًّا على الإطلاق، لكن بينما كنت أراقب الدخان يتبدد في الهواء، كان عقلي يقول لي: «ها هي أمك تتلاشى.»

في المتجر الملحق بمتحف الغلايين، ابتاع جدي غليونَين تقليديَّين. أخذ واحدًا وأعطاني الآخر. قال: «ليس لتدخنيه. بل لتحتفظي به للذكرى.»

بتنا تلك الليلة في نُزُل «إينجون جوز بيس بالاس» الهندي. في لافتة معلقة في رَدْهته، شطب أحد ما كلمة «إينجون» (الهندي) وكتب «السكان الأصليون»، فصارت العبارة المكتوبة عليها: «نُزُل «جوز بيس بالاس» الذي يديره السكان الأصليون.» في غرفتنا، غُيِّرَت كلمة «الهندي» المطرزة على المناشف إلى «الهندي الأحمر». تمنيت أن يستقر الجميع على رأي واحد.

بحلول ذلك الوقت صرت معتادةً على المبيت في غرفة برفقة جدي وجدتي. كل ليلة حين يدخلان إلى السرير، كانا يستلقيان جنبًا إلى جنب على ظهرَيهما، وكان جدي يقول كل ليلة: «هذا ليس فراش الزوجية، لكنه سيفي بالغرض.»

في الأغلب، كان أعز شيء في العالم عند جدي — بجانب جدتي — هو فراش زوجيتهما. كان ما يدعوانه فراشهما في ديارنا في بايبانكس، كنتاكي. يذكر جدي في إحدى الحكايات التي يحب أن يرويَها أنه ولد هو وإخوته على ذلك الفراش، وأن أولاده من جدتي ولدوا عليه أيضًا.

حين يحكي جدي هذه القصة، يبدؤها منذ أن كان في السابعة عشرة ويعيش مع والديه في بايبانكس. قابل جدتي في تلك الفترة. كانت تزور خالتها التي كانت تسكن على الجانب المقابل من المرج الذي أمام بيت جدي. قال جدي: «كنت شابًّا جامحًا آنذاك، ولم تلفت نظري أي فتاة، أؤكد لكِ ذلك.» كانت الفتيات هن من يطاردنه. لكن حين وقعت عيناه على جدتي وهي تركض في المرج، بشعرها الطويل الحريري كشعر مُهرة، كان هو من بادر بالمطاردة. «على ذكر الأشياء الجامحة! كانت جدتك المخلوقة الأكثر جموحًا وتمردًا وعندًا وحسنًا على وجه الأرض.»

قال جدي إنه طَوال اثنين وعشرين يومًا ظلَّ يتبعها مثل كلب عجوز أوهنه المرض، وفي اليوم الثالث والعشرين، قصد والدها وطلب يدها للزواج. قال له والدها: «لو استطعت جعلها تقف ساكنة لما يكفي، ولو قَبلَت بك فأظن أن لك ذلك.»

حين طلب جدي يدها للزواج، ردت: «هل تملك كلبًا؟» أجابها جدي بالإيجاب، إذ كان يملك في الواقع كلبة بيجل عجوزًا سمينة تدعى سايدي. قالت جدتي: «وأين تنام الكلبة؟»

تلعثم جدي قليلًا ثم قال: «في الحقيقة، تنام بجواري، لكن إن تزوجنا فسوف ...»

سألت جدتي: «وحين تدخل من الباب ليلًا، ماذا تفعل الكلبة؟»

لم يفهم جدي إلامَ ترمي؛ لذا أخبرها الحقيقة. «تقفز إليَّ وتلعقني وتعوي.»

قالت جدتي: «عندئذٍ ماذا تفعل أنت؟»

قال جدي: «رباه ...» لم يودَّ أن يُقرَّ بذلك، لكنه قال: «أُجلِسُها في حجري وأربِّت عليها حتى تسكن، وأحيانًا أغني لها أغنيةً. أنت تشعرينني بحُمقي.»

قالت: «لا أقصد ذلك. لقد أخبرتني بكل ما أحتاج لمعرفته. أعتقد أنك إن كنت تُحسن معاملةَ كلبة، فستعاملني أفضل. وأعتقد أنه لو أن الكلبة العجوز سايدي تحبك كثيرًا، فعلى الأرجح سأحبك أكثر. أجل، أقبل الزواج بك.»

تزوَّجا بعد ذلك بثلاثة أشهر. وفي الفترة التي تخللت طلب يدها ويوم زفافهما، بنى جدي وأبوه وإخوته بيتًا صغيرًا في الأرض التي تقع خلف المرج الأول. قال جدي: «لم يكن لدينا الوقت لإتمامه، ولم نكن قد وضعنا به قطعة أثاث واحدة، لكن لا يهم. كنا ننوي أن نبيت فيه ليلةَ زفافنا رغم ذلك.»

عقدا قرانهما في أيكة من أشجار الحور الرجراجي، في يوم مشرق من أيام شهر يوليو، وأقاما بعده وليمة زفاف على ضفاف النهر ووجها إلى أصدقائهما وأقاربهما الدعوةَ لحضورها. في أثناء العشاء، لاحظ جدي غياب أبيه واثنين من إخوته. ظن أنهم

ربما يخططون لاحتفالية نبيذ، حيث يخطف الرجال العريس لساعة أو نحوها ويخرجون إلى الغابة ليتشاركوا احتساء قنينة نبيذ. قبل انتهاء العشاء، عاد أبوه وأخواه، لكنهم لم يخطفوه لأجل احتفالية نبيذ. سُر جَدي لذلك، إذ كان يريد أن يحتفظ بصفاء ذهنه تلك الليلة.

في نهاية العشاء، حمل جدي جدتي بين ذراعيه وعبر بها المرج. وخلفهما كان الجميع يغنون: «لاقيني بين أزهار التيوليب حين تتفتح أزهار التيوليب ...» وهي أغنية تُغنى عادة في حفلات الزفاف أثناء مغادرة العروسين. كان يفترض بها أن تكون دعابة، وكأنما سيرحل جدي وجدتي وحدهما ولن يظهرا إلا في الربيع القادم حين تتفتح أزهار التيوليب.

حمل جدي جدتي عبر المرج وخلال الأشجار إلى الأرض التي يستقر بها بيتهما الصغير. ثم دخل بها عبر الباب، ولما ألقى نظرة حوله بدأ يبكي.

كان ما دفع جدي للبكاء حين دخل البيت حاملًا جدتي هو أنه وجد في منتصف غرفة النوم سرير والديه، السرير الذي وُلِد عليه جدي وإخوته جميعًا، والذي طالما نام فيه أبواه. وكان هذا سبب اختفاء أبيه وأخويه أثناء وليمة الزفاف. كانوا يَنقُلون السرير إلى بيت جدي وجدتي الجديد. على طرَف السرير، جلست سايدي، كلبة جدي العجوز، تهز ذيلها وتصدر صوتًا فرِحًا.

دائمًا ما يختم جَدي تلك القصة بقوله: «ذلك السرير موجود منذ ولدت، وسوف أموت فيه، وبهذا لن يخفى عليه شيء من أمري.»

لذا كل ليلة من الليالي التي قضيناها في رحلتنا إلى أيداهو، كان جدي يربت على السرير الموجود في النزل ويقول: «هذا ليس فراش الزوجية لكنه سيفي بالغرض»، بينما أنا مستلقية في السرير المجاور أتساءل إن كنت سأحظى يومًا بفراش زوجية كفراشهما.

الفصل الثالث عشر

بيركواي المرح

آن الأوان لأن أحكي لجدي وجدتي عن السيد بيركواي.

كان السيد بيركواي غريب الأطوار للغاية. لم أستطع فهمه. كنت أرى أنه ربما به شيء من الخبل. كان أحد أولئك المعلمين المفعمين بالنشاط الذين يكنون حبًّا مستميتًا لمادتهم، وكان يقفز في حجرة الدرس بأسلوب درامي، يلوح بذراعيه ويقبض على صدره ويخبط التلاميذ على ظهورهم.

كان من عادته أن يصيح: «رائع!» و«مذهل!» و«بديع!» كان طويلًا نحيل الجسد، منحه شعره الأسود الكث مظهرًا جامحًا، لكن كانت له عينان واسعتان بنيتان داكنتان كعيون البقر، وكانتا تتألقان وهو يجول في جميع أرجاء المكان، وتشعر حين يسلطهما عليك أن لا غرض له في الحياة سوى أن يقف مصغيًا إليك وحدك دون سواك.

في منتصف الحصة الأولى، طلب السيد بيركواي من الجميع تسليم دفاتر يومياتهم الصيفية. ذرعَ الممراتِ جيئةً وذَهابًا يجمع دفاتر اليوميات وكأنها عطايا سماوية. كان يقول لكل من يعطيه دفتره: «رائع!»

اعتراني القلق. إذ لم يكن معي دفتر يوميات.

على تخت ماري لو فيني كانت تستقر ستة دفاتر. ستة. قال السيد بيركواي: «عجبًا. رحماك يا إلهي. هل أنتِ ... أيعقل أن تكوني شكسبير الجديد؟» عَدَّ الدفاتر. «ستة! رائع! بديع!»

على الجانب الآخر من الغرفة، تهامست كريستي وميجان، وهما فتاتان كوَّنتا جماعة خاصة بهما تدعى جي بي بي (لا فكرة لدي عما يعنيه ذلك)، ورمقتا ماري لو بنظرات خبيثة. لم ترفع ماري لو يدها عن الدفاتر حين مد السيد بيركواي يده إليها ليأخذها. قالت بصوت خافت: «لا أريدك أن تقرأها.»

هتف السيد بيركواي: «ماذا؟ لا أقرؤها؟» خيم الصمت على حجرة الفصل. وفي لمح البصر، أطبق السيد بيركواي على دفاتر ماري لو. وقال: «لا تكوني حمقاء. رائع! شكرًا لكِ!»

وبدت فتاة أخرى، هي بيث آن، وكأنها قد تبكي. وبعثت فيبي إليَّ برسائل بحاجبيها مفادها أنها متضايقة أيضًا. أحسب أنهم كانوا جميعًا يأمُلون ألا يقرأ السيد بيركواي تلك الدفاتر حقًّا.

دار السيد بيركواي في حجرة الفصل كلها يختطف دفاتر اليوميات. كان دفتر يوميات أليكس تشيفي مكسوًّا بملصقات تخصُّ كرة السلة. بينما كان غِلافا دفترَي كريستي وميجان مليئَين بصور عارضي أزياء. أما غِلاف دفتر بن فكان مرسومًا عليه صورة لصبي له رأس طبيعي، لكن ذراعيه وساقيه أقلام رصاص، تقطر من أطراف أصابعه وقدميه كلمات.

حين وصل السيد بيركواي إلى تخت فيبي، التقط دفترها غير المزين واسترق النظر بين صفحاته. كانت فيبي تحاول أن تغوص لأسفل في مقعدها. قالت: «لم أدوِّن الكثير. في الواقع، أكاد لا أذكر ما دونت عنه أساسًا.»

حين وصل إليَّ السيد بيركواي، كان قلبي يدق بقوة بالغة حتى إنه خُيِّل لي أنه قد يثب خارجًا من صدري. قال: «أيتها الطفلة المحرومة. حُرِمتِ فرصة تدوين دفتر مذكرات.»

«أنا مستجدة ...»

«مستجدة؟ ليس في الكون أفضل من مستجد!»

«لذا لم أكن أعرف بأمر دفاتر اليوميات ...»

قال السيد بيركواي: «لا داعي للقلق! سأفكر في حلٍّ ما.»

لم أعرف يقينًا ما يعنيه. ظننت أنه ربما سيكلفني بقدر كبير من الواجب المنزلي الإضافي أو ما شابه. باقي اليوم، كنت أرى مجموعات صغيرة من الناس يسأل بعضهم بعضًا: «هل كتبت عني؟» أسعدني جدًّا أنني لم أكتب شيئًا.

لبعض الوقت، لم يردنا خبر عن دفاتر اليوميات. ولم نتصور أبدًا كم المشكلات التي ستسببه.

الفصل الرابع عشر

شجيرة الورد

في أحد أيام السبت، ذهبت إلى بيت فيبي مجددًا. كان أبوها يلعب الجولف، وأمها تقضي بعض الحاجات. قرأت علينا السيدة وينتربوتوم قائمة طويلة من الأماكن التي ستكون موجودة فيها حال احتجنا إليها. لو سمعنا أي جلبة، فعلينا أن نتصل بالشرطة فورًا. قالت السيدة وينتربوتوم: «بعد أن تتصلا بالشرطة، اتصلا بالسيدة كادافر. أظن أنها في منزلها اليوم. أنا واثقة من أنها ستأتي إليكما على الفور.»

همست فيبي في أذني: «بالطبع. ستكون آخر شخص أتصل به.» تخيلت فيبي أن أي جلبة نسمعها مصدرها المختل يحاول أن يتسلل إلى داخل البيت أو تارك الرسائل المجهول يتسلل كي يترك ملاحظة أخرى. كانت متوترة للغاية حتى إنها نقلت إليَّ عدوى توترها.

بعد أن غادرت أمها، قالت فيبي: «ألا تجدين مواعيد عمل السيدة كادافر غريبة؟ أحيانًا تعمل كل ليلة طيلة أسبوع، وتعود إلى البيت متبخترة في موعد استيقاظ الناس، لكنها تعمل أثناء النهار في بعض الأحيان.»

قلت: «هي ممرضة، لذا أظن أنها تناوب في أوقات متفرقة.»

ذلك اليوم، كانت السيدة كادافر موجودة في بيتها تُنجز بعض الأعمال المتفرقة في حديقتها. رأيناها من نافذة غرفة نوم فيبي. في الواقع، ليس أداء بعض الأعمال هو الوصف الأمثل. بل كان ما تفعله أقرب إلى التقليم والتقطيع. كانت السيدة كادافر تقتلع الأغصان من الأشجار وتحملها وتضعها فوق كومة من الأغصان التي اقتلعتها الأسبوع الفائت.

قالت فيبي: «قلت لك إنها تتمتع بقوة بدنية هائلة.»

بعد ذلك بدأت السيدة كادافر تقطع وتقلم شجيرة ورد هزيلة تحاول تسلق جانب منزلها. ثم جزت الأجزاء العلوية من السياج الشجري الذي يحد فناء بيت فيبي. ثم انتقلت إلى شجيرة ورد، حين توقفت سيارة في مسار السيارات أمام بيتها. ترجَّل منها رجل فارع الطول ذو شعر أسود أشعث، ووثب فعليًّا إلى الخلف حيث تقف. تعانقا.

قالت فيبي: «يا إلهي!» كان الرجل ذو الشعر الأسود الأشعث هو السيد بيركواي معلم اللغة الإنجليزية.

أشارت السيدة كادافر إلى شجيرة الورد ثم إلى الفأس، لكن السيد بيركواي هزَّ رأسه نفيًا. اختفى داخل المرأب ثم عاد حاملًا رفشين. ثم ظل هو والسيدة كادافر ينقران التربة ويزيحانها ويحفرانها حتى سقطت شجيرة الورد المسكينة على جانبها. حملاها إلى الجانب المقابل من الفناء حيث استقرت كومة من التربة وأعادا زراعتها هناك.

قالت فيبي: «ربما يوجد شيء ما مخفي تحت الشجيرة.»

«مثل ماذا؟»

«مثل السيد كادافر، كما سبق أن أخبرتكِ. ربما ساعدها السيد بيركواي على تقطيع جثة زوجها ودفنها وربما بدأ القلق يساورهما فقرَّرا أن يخفيا تلك الرقعة بشجيرة ورد.» لا بدَّ أن وجهي عكس تشككًا. قالت فيبي: «سال، لا يمكن أن تعرفي أبدًا. ولا أظن أنه ينبغي أن تذهبي أنت أو أبوك إلى بيتها بعد اليوم.»

وافقتها بالتأكيد على تلك النقطة الأخيرة. كنت أنا وأبي نزورها منذ ليلتين، وكنت لا أكاد أستطيع الجلوس ساكنة. بدأت ألاحظ الكثير من الأشياء المرعبة في بيت مارجريت: أقنعة مخيفة، وسيوف قديمة، وكتب تحمل عناوين مثل «جرائم شارع مورج» و«الجمجمة والفأس». حاصرتني مارجريت في المطبخ وقالت: «إذن، ماذا قال لكِ أبوكِ عني؟»

قلت: «لا شيء.»

«أوه!» بدت عليها خيبة الأمل.

كان سلوك أبي يختلف دائمًا في بيت مارجريت. في بيتنا كنت أجده في بعض الأحيان جالسًا على فراشه يحملق في الأرضية، أو يتصفح رسائل قديمة، أو يحدق في دفتر صور. كان يبدو حزينًا وحيدًا. أما في بيت مارجريت فكان يبتسم، ويضحك أحيانًا، وذات مرة لمست يده فترك يدها تستقر فوق يده. لم أحب ذلك. لا أرضى الحزن لأبي، لكن على الأقل حين يكون حزينًا، كنت أعرف أنه يتذكر أمي. هكذا حين اقترحت فيبي ألا أذهب أنا وأبي إلى بيت مارجريت، كنت مستعدة تمامًا لموافقتها على تلك الفكرة.

حين عادت والدة فيبي إلى البيت بعد أن قضيت مهامها كلها، كان مظهرها مريعًا. كانت تتمخط وتمسح أنفها.

قالت فيبي إننا سنذهب لإنهاء واجبنا المنزلي. حين صعِدنا إلى الطابق العلوي، قلت لها: «ربما كان يجب أن نساعدها في رص البقالة.»

قالت فيبي: «هي تحب فعل ذلك بنفسها.»

سألتها: «هل أنتِ واثقة؟»

قالت: «بالطبع واثقة. فقد عشت هنا طَوال حياتي، أليس كذلك؟»

«بدت وكأنما كانت تبكي. ربما ثمة خطب ما. ربما ثمة ما يزعجها.»

«إن صح ذلك، ألا تظنين أنها كانت ستُفصِح عنه؟»

قلت: «ربما تخشى أن تفعل.» تساءلت لماذا كان سهلًا عليَّ أن أرى أن والدة فيبي قلقة وبائسة بينما غاب ذلك عن نظر فيبي؛ وإن لم يغب عنها فهي تتجاهله. ربما لا تريد رؤيته. ربما كان الأمر جِدَّ مرعبٍ لها. تساءلت إن كان الأمر كذلك مع أمي. هل كان ثمة أشياء فاتتني ملاحظتها؟

لاحقًا في عصر ذلك اليوم، حين نزلت أنا وفيبي إلى الطابَق السفلي، كانت السيدة وينتربوتوم تتحدث مع برودنس. سألتها: «في رأيك هل أعيش حياة تافهة؟»

قالت برودنس وهي تبرد أظافرها: «ماذا تعنين؟ هل لديك مزيل لطلاء الأظافر؟»

جلبت والدة فيبي زجاجة مزيل طلاء الأظافر من الحمام.

قالت برودنس: «أوه! قبل أن أنسى؛ هل تظنين أن بإمكانك أن تقصري طرف تنورتي كي أتمكن من ارتدائها غدًا؟ رجاءً؟» أمالت برودنس رأسها جانبًا، وجذبت خصلة من شعرها مثلما تفعل فيبي تمامًا، وزمت شفتيها.

سألت: «ألا تعرف برودنس الخياطة؟»

قالت فيبي: «بالطبع تعرفها. لِمَ تسألين؟»

«أتساءل فحسب لمَ لا تخيط تنورتها بنفسها؟»

«لقد أصبحتِ كثيرة الانتقاد، يا سال.»

قبل أن أترك بيت فيبي ذلك اليوم، أعطت السيدة وينتربوتوم إلى برودس تنورتها البنية وقد خيط طرفها، وظللت أتساءل طَوال الطريق إلى البيت عما قصدت بقولها إنها تعيش حياة تافهة. إذا كانت لا تحب الخَبز والتنظيف والذهاب لإحضار زجاجات مزيل طلاء الأظافر وخياطة أطراف التنانير، فلمَ تفعل تلك الأشياء؟ لمَ لا تطلب منهم أن يفعلوا

بعض تلك الأمور بأنفسهم؟ ربما تخشى ألا يتبقى لها شيء تفعله. ألَّا تعد ثمة حاجة إليها، وحينها يصير وجودها كعدمه لا يلاحظه أحد.

حين وصلت إلى البيت ذلك اليوم، أعطاني أبي حزمة. قال: «تلك هدية من مارجريت.»

«ما هي؟»

«لا أدري. لمَ لا تفتحينها؟»

كان بداخلها سترة زرقاء. أعدتها إلى الصندوق وصعدت إلى الطابق العلوي. تبعني أبي. «سال؟ سال ... هل أعجبتكِ؟»

قلت: «لا أريدها.»

«هي تحاول فقط أن ... هي تحبك ...»

قلت: «لا يهمني إن كانت تحبني أم لا.»

وقف أبي مكانه وعيناه تهيمان في أرجاء الغرفة. قال: «أريد أن أخبركِ أمرًا بشأن مارجريت.»

«وأنا لا أود سماعه.» كنت أشعر بالعناد يتملَّكني. حين غادر أبي الغرفة، كان صوتي لا يزال يتردد في أذني قائلًا: «لا أود سماعه.» قلتها بأسلوب كأسلوب فيبي تمامًا.

الفصل الخامس عشر

لدغة ثعبان

كان الحر لافحًا في ساوث داكوتا في مدينة سيوكس فولز، خلع جدي قميصه. وأثناء مرورنا بمدينة ميتشل، فكَّت جَدتي أزرار قميصها حتى خصرها. بعد مدينة تشامبرلين، انعطف جدي إلى نهر ميزوري. وأوقف السيارة تحت شجرة مُطلة على ضفة رملية.

خلع جدي وجدتي حذاءيهما. كان السكون يعم والحرارة شديدة. لم يُسمع إلا صوت غراب يصيح في مكانٍ ما من النهر والهدير البعيد للسيارات التي تسير في الطريق السريع. لفح الهواء الساخن وجهي، وتدلَّى شعري مثل دِثار ساخن ثقيل على عنقي وظهري. كانت الحرارة شديدة حتى إنك تشم رائحة تحمص الحجارة والتربة على ضفة النهر.

خلعت جدتي ثوبها، وفك جدي حزام بنطاله وتركه يسقط على الأرض. بدآ يركل كل منهما الماء على الآخر ويغرفانه بكفَّيهما ثم يسكبانه على وجهيهما. خاضا في الماء حتى ركبتيهما وجلسا.

نادى جدي قائلًا: «تعالَي يا صغيرتي.»

قالت جدتي: «الماء لذيذ!»

تطلعتُ إلى طرفَي النهر. لم يقع بصري على أي مخلوق. بدا الماء باردًا صافيًّا. جلس جدي وجدتي في النهر مبتسمَين. خضت إليهما وجلست. كان الماء يتماوج حولنا، وتحيط بنا السماء العالية الزرقاء، وتتمايل الأشجار على الضفتَين، كأننا في الجنة.

طفا شعري حولي. كان شعر أمي أسود طويلًا كشعري، لكنها قصته قبل رحيلها بأسبوع. قال لي أبي: «لا تقصي شعرك يا سال. أرجوكِ لا تقصيه.»

قالت أمي: «كنت أعرف أنك لن تحب أن أقص شعري.»

قال أبي: «لم أعلق على قصك شعرك.»

قالت: «لكني أعرف ما يدور في ذهنك.»

قال: «كنت أحب شعرك يا شوجر.»

احتفظت بشعرها. جمعته من أرضية المطبخ ولفته في كيس بلاستيكي وخبأته تحت ألواح الأرضية في غرفتي. لا يزال في مكانه هناك، وكذلك البطاقات البريدية التي أرسلتها لي.

بينما كنت أجلس مع جدي وجدتي في نهر ميزوري، حاولت أن أبعد تلك البطاقات البريدية عن تفكيري. حاولت أن أركز على السماء العالية والماء الفاتر. كان المكان سيصبح مثاليًّا لولا ذلك الغراب العنيد الذي ظل يصيح: «كار-كار-كار». سألت: «هل سنطيل البقاء هنا؟»

خرج الصبي من العدم. كان جدي أول من رآه، فهمس: «قفي خلفي يا صغيرتي.» ثم مخاطبًا جدتي: «وأنتِ أيضًا.» كان الصبي في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، وشعره داكن أشعث. كان يرتدي بنطالًا من الجينز دون قميص فبدا صدره أسمرَ مفتولًا. كان يقبض بيده على سكين باوي، ثبت غمدها في حزامه. ووقف على الضفة بجوار بنطال جدي.

تذكرت فيبي فأيقنت أنها لو كانت هنا الآن، لحذرتنا من أن يكون ذلك الصبي مختلًّا ينوي تمزيقنا جميعًا إلى أشلاء. تمنيت لو لم نتوقف عند النهر، وودت لو كان جداي أكثر حذرًا، ولو كانا فيهما شيء من حذر فيبي التي ترى الخطر في كل مكان حولها.

لما حدَّق بنا الفتى، قال جدي: «مرحبًا.»

قال الفتى: «ذلك المكان ملكية خاصة.»

تطلع جدي حوله. «حقًّا؟ لم أرَ أيَّ لافتات تشير إلى ذلك.»

«هو ملكية خاصة.»

قال جدي: «عجبًا، هذا نهر. لم أسمع قط بنهر يقع ضمن ملكية خاصة.»

التقط الفتى بنطال جدي ودسَّ يده في أحد جيوبه.

«تلك الرقعة التي أقف عليها ملكية خاصة.»

ارتعبت من الفتى وأردت أن يبادر جدي بفعل شيء ما، لكن جدي بدا عليه الهدوء ورباطة الجأش. وكأن لا هم له في الحياة، لكني عرفت أنه قلق من الطريقة التي ظلَّ يتقدم بها أمامي أنا وجدتي.

تحسست قاع النهر، وأخرجت حجرًا مستويًا ورميته على صفحة الماء. راقب الفتى الحجر، وعَدَّ ارتداداته عن صفحة الماء.

تلوَّى ثعبان على الضفة ثم انسلَّ إلى الماء.

قال جدي: «أترى تلك الشجرة؟» أشار إلى صفصافة عجوز تنحني فوق الماء حيث يقف الصبي.

قال الفتى وهو يدسُّ يده في جيب آخر ببنطال جدي: «أراها.»

قال جدي: «أترى تلك العقدة بها؟ راقب ما بوسع تلك الصغيرة فعله بعقدة.» غمز لي جدي بعينه. كانت عروق عنقه نافرةً. كان بالإمكان رؤية اندفاع الدم عبرها.

تحسست قاع النهر من حولي وأخرجت حجرًا مستويًا مسننًا آخر. فعلت ذلك الأمر ملايين المرات من قبل في رقعة السباحة في بايبانكس. أرجعت ذراعي إلى الوراء ورميت الحجر مستهدفة الشجرة مباشرة. انغرس طرفه في العقدة. توقف الفتى عن التفتيش في جيوب بنطال جدي ونظر إليَّ.

قالت جدتي وهي تضرب الماء بيديها: «آه!» مدت يدها لأسفل وأخرجت ثعبانًا ورمقت جدي بنظرة مرتبكة. قالت: «هذا ثعبان ماء من نوع موكاسين، أليس كذلك؟ هو نوع سام، أليس كذلك؟» تلوى الثعبان وتَمعَّج صابيًا إلى الماء. «أعتقد أنه لدغني في ساقي.» حدَّقت في جدي.

تسمَّر الفتى على الضفة ممسكًا بمحفظة جدي. حمل جدي جدتي وخرج بها من الماء. كانت لا تزال ممسكة بالثعبان، فقال لها جدي: «هلا أسقطت ذلك الشيء؟» ثم قال لي: «اخرجي من عندكِ يا صغيرتي.»

حين وضع جدي جدتي أرضًا على الضفة، جاء الفتى وجثا على ركبتيه إلى جوارها. قال جدي وهو يمدُّ يده إلى سكينه: «أنا جدُّ سعيد أن تحمل هذه السكين.» حين أحدث بها شقًّا في موضع لدغة الثعبان في ساق جدتي، تقطرت منه الدماء على كاحلها. أمسكت بيد جدتي فيما شخص بصرُها إلى السماء. جثا جدي ومصَّ الدماء من الجرح، لكن الفتى قال له: «سوف أفعل أنا ذلك عنك.» قرب الفتى فمه من ساق جدتي الدامية. وظل يمص الدماء ويبصقها. ارتعش جفنا جدتي.

قال جدي: «هل بوسعك أن ترشدنا إلى مستشفًى؟»

أومأ الفتى برأسه وهو يبصق. حمل جدي بمساعدة الفتى جدتي إلى السيارة ووضعاها على المقعد الخلفي فيما انتشلت ثيابهما من على ضفة النهر. أسندنا رأس جدتي إلى حجري وقدميها على حجر الفتى، الذي لم يكفَّ عن المص والبصق. فيما بين ذلك كان يوجهنا إلى المستشفى. تشبثت جدتي بيدي.

حمل جدي، الذي كان لا يزال بسرواله الداخلي يقطر من جسده الماء، جدتي إلى المستشفى. وطَوال الوقت لم يبرح فم الفتى ساقها، فظل يمص ويبصق.

باتت جدتي الليلة في المستشفى. في غرفة الانتظار، تكوَّم الفتى الذي لقيناه على ضفة النهر على أحد الكراسي. قدمت له منديلًا ورقيًّا. قلت: «ثمة دماء تلطخ فمك.» مددت يدي إليه بورقة نقدية بقيمة خمسين دولارًا. «طلب مني جدي أن أعطيك هذه. هي كل ما معه من أوراق نقدية الآن. وطلب مني أن أشكرك. كان سيأتي إليك بنفسه لولا أنه لا يريد ترك جدتي.»

نظر إلى الخمسين دولارًا التي أحملها بيدي. «لست بحاجة إليها.»

قلت: «لست مضطرًّا إلى البقاء.»

جال بنظره في غرفة الانتظار. وقال: «أعرف.» أشاح ببصره عني ثم قال: «يعجبني شعركِ.»

«كنت أفكر في قصه.»

«لا تفعلي.»

جلست بجواره.

قال: «لم يكن المكان ملكيةً خاصة في الحقيقة.»

«لم أظنه كذلك.»

لاحقًا، حين دخلت لزيارة جدتي، كانت ترقد في السرير شاحبة وناعسة. إلى جوارها على السرير الضيق، كان جدي مستلقيًا على الأغطية، يربِّت على شعرها. دخلت ممرضة وأجبرته على ترك السرير. كان حينئذٍ قد ارتدى بنطاله، لكن مظهره كان مزريًا.

سألت جدتي كيف تشعر. طرفت بعينها بضع مرات وقالت: «تبًّا.»

قال جدي: «لا بدَّ أنهم أعطَوها مخدرًا ما. فهي لا تعي ما تقول.»

انحنيت وهمست في أذنها. «لا تتركينا يا جدتي.»

قالت جدتي: «تبًّا.»

حين غادرت الممرضة الغرفة، عاد جدي إلى السرير واستلقى إلى جوار جدتي. ربَّت على السرير. وقال: «هذا ليس فراش الزوجية، لكنه سيفي بالغرض.»

الفصل السادس عشر

الشجرة الشادية

خرجت جدتي من المستشفى صباح اليوم التالي على الأرجح بسبب عنادها. أراد جدي أن تمكث يومًا آخر، لكنها نهضت من السرير وقالت: «أين ملابسي الداخلية؟»

قال جدي: «أظن أن تلك المشاكسة ستخرج من هنا.»

أظن أن الخوف جعلنا جميعًا عصبيي المزاج بعض الشيء. كنت قد قضيت الليلةَ في غرفة الانتظار. عرض جدي عليَّ أن يؤجر لي غرفةً بنُزُل، لكني خشيت إن غادرت المستشفى ألا أرى جدتي مجددًا. تكوَّم الفتى الذي قابلناه عند النهر في مَقعد ذي مسندي ذراع، لكني أظن أنه لم ينم كذلك. تحدث في الهاتف مرة. سمعته يقول: «أجل، سأعود إلى البيت في الصباح. أنا برفقة بعض الأصدقاء.»

أيقظني الفتى في السادسة صباحًا وقال إن جدتي تحسنت كثيرًا. وأعطاني ورقة. «ذلك عنواني، حال أردت أن تراسليني أو ما شابه، لكني سأتفهم إن لم ترغبي ...»

فتحت الورقة. «ما اسمك؟»

ابتسم. «أجل، صحيح.» أخذ الورقة وأضاف اسمه: توم فليت. قال: «أراكِ لاحقًا.»

أثناء إنهاء إجراءات مغادرة المستشفى، سألت إذا كان يجب أن نتصل بأبي. قال جدي: «لقد فكرت في ذلك يا صغيرتي، لكن هذا سيثير قلقه. هل ترين أنه يمكن تأجيل الاتصال به حتى نصل إلى أيداهو؟»

كان جدي محقًّا، لكن شعرت بخيبة أمل. كنت قد تهيأت للاتصال بأبي. رغبت بشدة في سماع صوته، لكني خشيت أيضًا إن اتصلت به أن أطلب منه أن يأتيَ ليأخذني.

خارج المستشفى، سمعت هزيج طائر، وكان هزيجًا مألوفًا بشدة حتى إني وقفت أُصغي السمع محاولة تبيُّن مصدره. كان صف من أشجار الحور يحيط بموقف السيارات.

وكان الصوت قادمًا من مكانٍ ما بقمة إحدى تلك الأشجار، فتذكرت على الفور الشجرة الشادية في بايبانكس.

بجوار شجرة القَيْقب السكري المفضلة لديَّ المتاخمة للحظيرة، توجد شجرة حور رجراجي باسقة. في طفولتي، كنت أسمع أعذب الأغاريد تأتي من تلك الشجرة. لم تكن نداءات؛ بل أغرودة فعلية، ذات زقزقات وهزيج. وقفت أسفل الشجرة لأطول مدة ممكنة، آملةً أن ألمح الطائر صاحب تلك الأغرودة. لكني لم أرَ أيَّ طائر؛ لم أرَ سوى أوراق الشجرة تتهادى مع النسيم. كلما أطلت النظر إلى الأوراق، كان يُخيَّل لي أن الشجرة نفسها هي التي تشدو. كلما مررت بتلك الشجرة، كنت أتوقف وأرهف السمع. كنت أسمعها تشدو أحيانًا، وتظل صامتة أحيانًا أخرى، لكن منذ ذلك الحين سميتها الشجرة الشادية.

في صباح اليوم الذي تلا معرفة أبي بخبر عدم عودة أمي، غادر متجهًا إلى لويستون بأيداهو. جاء جدي وجدتي ليمكثا معي. رجوته أن يأخذني معه، لكن أبي قال إنه يريد إعفائي من خوض ذلك الأمر. ذلك اليوم، تسلقت شجرة القَيْقب وراقبت الشجرة الشادية منتظرة أن تشدو. مكثت مكاني طَوال النهار حتى مطلع المساء. لكن الشجرة لم تشدُ.

عند الغسق، فرش جدي ثلاثة أكياس نوم تحت الشجرة، وهناك نمنا أنا وهو وجدتي طَوال الليل. لكن الشجرة لم تشدُ.

في موقف سيارات المستشفى، سمعت جدتي أيضًا الأغرودة. قالت: «سالامنكا، إنها شجرة شادية!» ثم جذبت كم قميص جدي.

«ذلك فأل حسن، ألا تظن ذلك؟»

أثناء اجتيازنا أراضي ساوث داكوتا متجهين إلى متنزَّه بادلاندز، لم تَعُد الهمسات تقول «هيا، هيا» أو «هلُمِّي، هلُمِّي.» بل صارت تقول «على مهل، على مهل». لم أفهم سبب ذلك. بدا لي تحذيرًا من نوع ما، لكن وقتي لم يتسع للتفكير فيه، إذ كنت منشغلةً برواية قصة فيبي.

الفصل السابع عشر

على مدى عمر كامل

بعد مرور بضعة أيام على رؤيتي أنا وفيبي للسيدة كادافر والسيد بيركواي يقطعان شجيرة الورد، سرت مع فيبي إلى منزلها. كانت عنيدة ومتكدرة المزاج للغاية لسبب لا أعرفه. سألتني عن سبب عدم إخباري لأبي بشأن السيدة كادافر والسيد بيركواي، فأخبرتها أنني أنتظر اللحظة المناسبة.

قالت فيبي: «كان أبوك عندها أمس. لقد رأيته. أحرى به أن يأخذ حذره. ماذا أنت فاعلة لو قطَّعَت السيدة كادافر أباكِ؟ هل ستذهبين للعيش مع أمك؟»

تفاجأت حين قالت فيبي ذلك، إذ تذكرت أنني لم أخبرها أي شيء عن أمي. «أجل، أظن أنني سأذهب للعيش معها.» كنت أعرف أن ذلك مستحيل، لسبب يتعذر عليَّ إطلاع فيبي عليه، لذا كذبت.

حين دخلنا كانت والدة فيبي تجلس إلى طاولة المطبخ. أمامها كانت تستقر صينية بها كعكة شوكولاتة محروقة. تمخطت. ثم قالت: «يا عزيزتي، لقد أجفلتِني. كيف كانت؟»

سألت فيبي: «كيف كانت ماذا؟»

«المدرسة بالطبع. كيف كانت؟ كيف سارت الحصص؟»

«على ما يرام.»

«ألن تزيدي على ذلك؟» انحنت السيدة وينتربوتوم فجأة وطبعت قبلة على وجنة فيبي.

قالت فيبي وهي تمسح أثر القبلة: «لم أعد طفلة كما تعلمين».

غرست السيدة وينتربوتوم سكينًا في كعكة الشوكولاتة. وسألت: «أتريدين قطعة؟»

قالت فيبي: «إنها محروقة. كما أني سمينة للغاية.»

قالت السيدة وينتربوتوم: «يا عزيزتي، أنت لست سمينة.»

«بل أنا كذلك.»

«لا لستِ كذلك.»

صاحت فيبي في أمها قائلة: «بل أنا سمينة، أنا سمينة! لست مضطرة لأن تصنعي مخبوزات لأجلي. فأنا سمينة جدًّا. ولست مضطرة لأن تنتظرينني هنا حتى أعود. فقد صرت في الثالثة عشرة.»

ثم اندفعت إلى الطابَق العلوي. عرضت عليَّ السيدة وينتربوتوم قطعةً من كعكة الشوكولاتة، فجلست إلى الطاولة. ما بدأت أفعله هو أنني تذكرت اليوم الذي سبق رحيل أمي. لم أكن أعرف أنه سيكون آخر يوم لها في البيت. ذلك اليوم، سألتني أمي عدة مرات إن كنت أود أن أتمشى معها في الحقول. كان رذاذ المطر يتساقط بالخارج، وكنت أرتب مكتبي، ولم أشعر برغبة في الذَّهاب. ظللت أجيبها: «ربما لاحقًا.» حين سألتني للمرة العاشرة تقريبًا، قلت: «كلا! لا أريد الذَّهاب. لمَ تلحِّين عليَّ بالسؤال؟» لا أعرف لمَ فعلت ذلك. لم أقصد بذلك أي شيء، لكن تلك كانت إحدى آخر ذكرياتها معي، وتمنيت لو استطعت أن أمحوَها.

اندفعت برودنس أخت فيبي إلى البيت وصفدت الباب خلفها. قالت، نادبةً: «لقد أفسدتُ الأمر، أعرف ذلك!»

قالت أمها: «عزيزتي.»

قالت برودنس: «لقد أفسدته، أفسدته، أفسدته!»

قطعت السيدة وينتربوتوم كعكة الشوكولاتة المحروقة بغير حماس، وسألت برودنس إن كانت ستحظى بفرصة أخرى في تجارب أداء فريق المشجعات.

«أجل، غدًا. لكني أعرف أنني سأضيعها!»

قالت أمها: «ربما سآتي معكِ وأشاهدك.»

استشففت أن السيدة وينتربوتوم كانت تحاول التغلب على حزن عميق يغالبها، لكن ذلك غاب عن برودنس. كان لبرودنس أجندتها الخاصة، مثلما كان لي أجندتي الخاصة يوم أرادتني أمي أن أتمشَّى معها. غابت عني رؤية حزن أمي.

قالت برودنس: «ماذا؟ تأتين معي و«تشاهدينني»؟»

«أجل، ألن يكون ذلك لطيفًا؟»

قالت برودنس: «كلا! كلا، كلا، كلا. لا يمكنكِ أن تأتي. سيكون ذلك مريعًا.»

سمعتُ الباب الأمامي ينفتح وينغلق، ثم دخلت فيبي المطبخ ملوحةً بظرفٍ أبيض. قالت: «خمنوا ماذا وجدت على الدَّرَج؟»

أخذت السيدة وينتربوتوم الظرف وظلت تقلبه، ثم فتحته بروية وأخرجت الرسالة.

قالت: «أف! تُرى من يفعل هذا؟» رفعَت الورقة، التي كُتب عليها: «على مدى عمر كامل، هل سيكون للأمر أهمية؟»

قالت برودنس: «أؤكد لكِ أن لديَّ أمور أهم أقلق بشأنها. أنا أعرف أني سأفشل في تجارب أداء فريق المشجعات تلك. أعرف ذلك.»

وظلت تتذمر حتى قالت فيبي: «تبًّا يا برودنس، على مدى عمرك كله، هل سيكون لذلك قيمة؟»

في تلك اللحظة، خُيِّل إليَّ أن السيدة وينتربوتوم أدركت شيئًا بغتة. فقد وضعت يدها على فمها وحملقت خارج النافذة. كانت كالعدم لبرودنس وفيبي. إذ لم تلاحظا ما فعلَته.

قالت فيبي: «هل تجارب أداء فريق المشجعات تلك مُهمَّة؟ هل ستتذكرينها بعد خمس سنوات؟»

قالت برودنس: «أجل! أجل، قطعًا سأتذكرها.»

«وبعد عشر سنوات؟ هل ستتذكرينها بعد عشر سنوات؟»

قالت برودنس: «أجل!»

في طريقي إلى البيت، فكرت في الرسالة. «على مدى عمر كامل، هل سيكون للأمر أهمية؟» ظللت أرددها مرارًا وتَكرارًا. ظللت أتساءل عن مرسل الرسائل الغامض، وظللت أفكر في جميع الأشياء التي لن يكون لها أهمية على مدى عمر كامل. لم أظنَّ أن تجارب أداء فريق المشجعات ستكون لها أهمية، لكني لم أكن متيقنةً من أن صياح المرء في وجه أمه لن تكون له قيمة. غير أني كنت واثقة من أن رحيل الأم، سيكون أمرًا ذا شأن في حياة المرء وإن طالت.

الفصل الثامن عشر

الرجل الطيب

ينبغي أن أذكر والدي.

وأنا أحكي قصة فيبي لجدي وجدتي، لم أذكر الكثير عن أبي. فهو ابنهما، وبجانب أنهما يعرفانه أفضل مما أعرفه، ولكن كما كانت جدتي تقول كثيرًا، كانا يعتبرانه قرة أعينهما. كان لهما من الأبناء ثلاثة غيره في وقتٍ ما من حياتهما، لكن أحدهم تُوفي حين انقلب جرار فوقه، ومات آخر إثر اصطدامه بشجرة أثناء التزلج، ومات الثالث حين قفز في ماء نهر أوهايو المتجمد لإنقاذ أقرب أصدقائه (نجا الصديق ولم ينجُ عمي).

كان أبي هو ولدهما الوحيد المتبقي على قيد الحياة، وحتى لو ظل أبناؤهما على قيد الحياة، لظل أبي قرة أعينهما، لأنه كان رجلًا طيبًا صادقًا بسيطًا صالحًا. لا أعني ببسيط أنه ساذَج؛ بل أعني أنه يحب الأمور الواضحة البسيطة. كان يفضل من الثياب القمصان المصنوعة من قماش الفلانيلا وسروال جينز أزرق عمره عشرين عامًا. كره بشدة شراء قمصان بيضاء وبذلة لأجل وظيفته الجديدة في يوكليد.

كان يحب المزرعة لأنه فيها يكون في الهواء الطلق الحقيقي، وكان لا يرتدي قفازات العمل لأنه يحب أن تلمس يداه التربة والخشب والحيوانات. كان الانتقال إلى عمل مكتبي حين انتقلنا أمرًا مؤلمًا له. لم يحب أن يقبع في مكان مغلق لا تمس فيه يداه أيَّ شيء طبيعي.

تلازمنا السيارة نفسها منذ خمسة عشر عامًا، وهي سيارة شيفروليه زرقاء. لم يطق مفارقتها لأنه لمس — وأصلح — كل جزء فيها. أظن أيضًا أنه لم يطق فكرة أن يبيعها لأحد خشية أن تئول إلى ساحة الخردة. كره أبي فكرة تخريد السيارات القديمة برمتها. كان كثيرًا ما يتجول في ساحات الخردة ويلمس السيارات القديمة ويشتري المبادلات والمكربنات القديمة لا لشيء إلا البهجة التي تعود عليه من تنظيفها وإصلاحها. لم يتقن جدي يومًا ميكانيكا السيارات، لذا كان يرى أبي عبقريًّا.

كانت أمي محقة بقولها إن أبي رجل طيب. كان دومًا ما يفكر في أشياء بسيطة يبهج بها غيره. كاد ذلك أن يدفع بأمي إلى الجنون إذ كانت تريد أن تضاهيه في تلك الصفة، لكنها لم تملك تلك الموهبة الفطرية كأبي. كان إذا رأى في الحقل شجيرة مزهرة قد تعجب بها جدتي، استخرجها بجذورها وأخذها إلى حديقتها وأعاد زراعتها هناك. وإذا هطل الجليد كان يستيقظ فجرًا ويسير إلى منزل والديه ويزيح الجليد عن ممر السيارات به.

وإذا قصد البلدة لابتياع مستلزمات للمزرعة، يعود وقد اشترى شيئًا لي وشيئًا لأمي. كانت أشياء بسيطة، كوشاح قطني أو كتاب أو ثقالة ورق زجاجية؛ لكنه شيء كان من شأننا أن نَبتاعَه لأنفسنا بعينه أيًّا كان.

لم أرَه غاضبًا قط. كانت أمي تقول له: «أحيانًا يخيل لي أنك لست بشرًا.» كانت تقول مثل تلك الأشياء قبل رحيلها مباشرة، وكان هذا يضايقني، إذ كان يُشعرني بأنها تريده أن يكون أكثر قسوةً وأقل طيبة.

قبل رحيلها بيومين، حين سمعتها تذكر لأول مرة أمر الرحيل، قالت: «أشعر بالدونية مقارنةً بك.»

قال: «شوجر، أنتِ لستِ دوني.»

قالت: «أترى؟ أترى؟ لمَ لا تستطيع على الأقل أن تراني دنيئة؟»

قال: «لأنكِ لستِ كذلك.»

قالت إنها مضطرة للرحيل كي تصفِّي ذهنها، وقلبها من كل الأمور السيئة. كانت تحتاج لأن تعرف من هي.

قال لها: «بوسعك أن تفعلي ذلك هنا يا شوجر.»

قالت: «أحتاج لأن أفعله وحدي. لا أستطيع التفكير. هنا لا أرى سوى ما لست عليه. أنا لست شجاعة. ولست طيبة. وأتمنى أن يناديَني أحد ما باسمي الحقيقي. اسمي ليس شوجر. اسمي تشانهاسِن.»

لم تكن على ما يرام. لا أنكر أنها تعرضت لصدمات مريرة، لكني لم أفهم لمَ لا تستطيع أن تتعافى وسطنا. ترجيتها أن تصحبني معها، لكنها قالت إنني يجب ألَّا أغيب عن المدرسة وإن أبي يحتاجني، كما أنها يجب أن تذهب وحدها. يجب عليها ذلك.

ظننت أنها قد تغيِّر رأيها، أو على الأقل تخبرني بموعد مغادرتها. لكنها لم تفعل أي الأمرين. بل تركت لي رسالة تشرح فيها أنها لو ودعتني فسيكون الوداع جدَّ مؤلم، وسيكون له طابع الرحيل الدائم. أرادتني أن أعرف أنها تفكر فيَّ في كل دقيقة، وأنها ستعود قبل تفتُّح أزهار التوليب.

لكنها بالطبع لم تَعُد قبل تفتُّح أزهار التوليب.

كنت أعرف أن رحيلها كاد يقتل أبي حزنًا، لكنه احتفظ بعاداته كما هي، يصفِّر ويدندن ويجلب هدايا صغيرة للناس. ظل يجلب الهدايا لأمي ويكنزها في كومة في حجرة نومهما.

في اليوم الذي اكتشف فيه أنها لا تنوي العودة، ركب الطائرة إلى لويستون، أيداهو، ولما عاد، قضى ثلاثة أيام يكحت المدفأة التي كانت مختفية خلف الجدار الجصي. كان الملاط الذي يتخلل لبناتها يحتاج إلى الاستبدال في بعض المواضع، فخط اسمها في الملاط الجديد. كتب «تشانهاسِن»، وليس «شوجر».

بعد ثلاثة أسابيع عرض المزرعة للبيع. حينها كان قد بدأ يتلقَّى رسائل من السيدة كادافر، وكنت أعرف أنه كان يجيب رسائلها. بعدها سافر بالسيارة لمقابلة السيدة كادافر فيما بقيت أنا مع جدي وجدتي. عند عودته، قال إننا سننتقل للعيش في يوكليد. كانت السيدة كادافر قد ساعدته في إيجاد وظيفة.

لم أتساءل حتى كيف تعرَّف إلى السيدة كادافر أو كم دامت معرفته بها. بل تجاهلتُ وجودها بالكلية. كما أني كنت منشغلةً بالدخول في نوبات غضب عارمة. رفضت الانتقال. أبيت أن أغادر مزرعتنا وشجر القيقب وبركة السباحة والخنازير والدجاج وشَونة التبن. أبيت أن أترك المكان الذي هو ملكي. أبيت أن أغادر المكان الذي كنت مقتنعة أن أمي قد تعود إليه.

في البداية لم يجادلني أبي. بل تركني أنفث عن غضبي كدبٍّ وحشي. ثم أخيرًا أزال لافتة «للبيع» ووضع لافتة «للإيجار». قال إنه سيؤجر المزرعة ويعين من يعتني بالحيوانات والمحاصيل، ويؤجر بيتًا لنا في يوكليد. ستظل المزرعة ملكًا لنا وسنتمكن من العودة لها يومًا ما. قال: «لكن في الوقت الحالي، علينا أن نغادر، فطيف أمكِ يطاردني ليلَ نهار. أراها في الحقول، في الهواء، في الحظيرة، في الجدران، في الأشجار.» قال إننا نُقدِم على تلك الخطوة لنتعلم معنى الشجاعة والإقدام. كان ذلك مألوفًا جدًّا لي.

في نهاية المطاف، أظن أن مخزوني من الغضب نفد. إذ توقفت نوبات الغضب. لم أساعد في حزم الأمتعة، لكن لما حان الوقت، ركبت السيارة وانضممت إلى أبي في رحلة انتقالنا إلى يوكليد. لم أشعر أني شجاعة، ولا جسورة.

لم أذكر أيًّا من ذلك وأنا أحكي لجدي وجدتي قصة فيبي. إذ كانا يعرفانه بالفعل. يعرفان أن والدي رجل طيب، وأني لم أرِدْ ترك المزرعة، وأن أبي شعر أننا مضطران إلى

تركها. كانا يعرفان أيضًا أن أبي حاول مرات عديدة أن يوضح لي بشأن مارجريت لكني كنت أرفض الإصغاء إليه.

في ذلك اليوم الطويل الذي تركت فيه وأبي مزرعتنا متجهَين إلى يوكليد، تمنيت لو لم يكن أبي على هذا القدر من الطيبة، كي أجد من ألقي عليه اللوم لرحيل أمي. لم أرِدْ أن ألومها هي. كانت أمي، بضعة مني.

الفصل التاسع عشر

أماني فارغة

قالت جدتي: «أين توقفنا في قصة بيبي؟ ما آخر ما حدث؟»

سألها جدي: «ما الخطب يا عزيزتي، هل لدغ ذلك الثعبان دماغكِ؟»

قالت: «كلا. لم يلدغ دماغي. كنت أحاول أن أنعش ذاكرتي ليس إلا.»

قال جدي: «لنرَ، كانت بيبي تريدك أن تخبري أباكِ بشأن تقطيع السيدة كادافر والسيد بيركواي لزوجها، أليس كذلك؟»

أجل، هذا ما أرادته فيبي، وما حاولت أنا فعله. ذات يوم أحد، بينما كان أبي يطالع ألبومات الصور، سألته إن كان يعرف الكثير عن السيدة كادافر. رفع بصره إليَّ بسرعة. وقال: «هل أنتِ مستعدة للحديث عن مارجريت؟»

«ثمة بضعة أمور أود أن أذكرها ...»

قال: «لطالما أردت أن أشرح لكِ ...»

قاطعته وتابعت كلامي. لم أرد أن يشرح لي. بل أردت أن أحذره. «رأيتها أنا وفيبي تقطع وتجز الشجيرات في فنائها الخلفي.»

سأل: «وهل في ذلك سوء؟»

جربتُ طريقةً أخرى. «صوتها يشبه فحيح أوراق الشجر الجافة التي تذروها الرياح، وشعرها مخيف.»

قال: «فهمت.»

«وثمة رجل يزورها ...»

«سال، يبدو لي ما تقولين تجسسًا.»

«وأرى أنك لا ينبغي أن تذهب إلى بيتها بعد اليوم.»

خلع أبي نظارته وظل يمسحها في قميصه لما يقرب من خمس دقائق. ثم قال: «سال، تلك أماني فارغة. أمك لن تعود.» بدت محاولاتي كأنها غيرة من السيدة كادافر لا أكثر.

في حضرة أبي الهادئة، بدا كل ما قالته فيبي عن السيدة كادافر حماقات.

قال أبي: «أود أن أوضح لكِ بشأنها.»

«لا عليك. فلتنسَ أني ذكرتها من الأساس. لست بحاجة إلى أي تفسيرات.»

لاحقًا، بينما كنت أؤدي واجبي المنزلي، وجدت نفسي أرسُم رسومًا عبثية في هامش كتاب اللغة الإنجليزية. رسمت شكل امرأة شعثاء لها عينان شريرتان يلتف حبل حول عنقها. ورسمت شجرة، ثم ربطت الحبل بالشجرة وشنقتها.

في المدرسة في اليوم التالي، تأملت السيد بيركواي وهو يثب ويقفز مرحًا في أرجاء حجرة الدرس. إذا كان قاتلًا، فهو قاتل مفعم بالحيوية لا ريب. لطالما تخيلت القتلة كئيبين متجهمين. كنت آمل أن يكون السيد بيركواي واقعًا في حب مارجريت كادافر وأن يتزوجها ويأخذها بعيدًا حتى أستطيع أنا وأبي العودة إلى بايبانكس.

أكثر ما أدهشني من أمر السيد بيركواي أنه كان يذكرني كثيرًا بأمي؛ على الأقل قبل أن يتملك منها الحزن. فكلاهما مفعم بالحيوية، ومولع — شغوف — بالكلمات وبالحكايات.

في ذلك اليوم، حدثنا السيد بيركواي عن الأساطير الإغريقية، وبدأت تراودني أحلام يقظة بطلتها أمي، التي كان حبها للكتب يضاهي حبها لجميع كنوز الهواء الطلق تقريبًا. كانت تحب أن تحمل في جيبها كتبًا صغيرة، وأحيانًا حين نخرج إلى الحقول، كانت تجلس على العشب وتبدأ القراءة بصوت مسموع.

كانت قصص الهنود الحمر هي الأقرب لقلب أمي. كانت تعرف آلهة الرعد، وخالقي الأرض، والغربان الحكيمة، والذئاب الماكرة، وأرواح الظل. كانت قصصها المفضلة هي تلك التي تدور حول أشخاص عادوا بعد الموت في هيئة طائر أو نهر أو حصان. كانت تعرف قصةً عن محاربٍ مسنٍّ عاد في هيئة حبة بطاطا.

لما انتبهت من أحلام يقظتي، كان السيد بيركواي يقول: «أليس كذلك يا فيبي؟ هل أنت مستيقظة؟ ستقدمين أنت التقرير الثاني.»

قالت: «تقرير؟»

وضع السيد بيركواي يده على قلبه. «سيقدم بن تقريرًا شفهيًّا عن بروميثيوس يوم الجمعة القادم. وأنت ستقدمين تقريرًا عن باندورا يوم الإثنين القادم.»

غمغمت فيبي قائلة: «يا لحسن حظي!»

طلب مني السيد بيركواي أن أمكث برهةً بعد الحصة. أرسلت إليَّ فيبي رسائل تحذيرية بحاجبيها. أثناء مغادرة الجميع الحجرة، قالت لي فيبي: «سأمكث معك إن أردتِ.»

«لماذا؟»

«لأنه مزَّق جثة السيد كادافر إلى أشلاء، ذلك هو السبب. لا أظن أنكِ يجب أن تبقَي معه وحدكِ.»

غير أنه لم يمزقني إلى أشلاء. بل كلَّفني بواجب خاص، «دفتر يوميات مصغر». قلت: «لا أعرف ماذا يكون.» كانت فيبي تقف خلفي ملاصقةً لي. قال السيد بيركواي إن عليَّ أن أكتب عن أي شيء يثير اهتمامي. سألته: «مثل ماذا؟»

«مثل مكان، غرفة، شخص؛ لا تفكري كثيرًا في الأمر. بل اكتبي أول ما يخطر ببالِكِ.»

سرت أنا وفيبي برفقة ماري لو وبن عائدين إلى البيت. كان ذهني مشوشًا، إذ كنت أحاول ألا أجفل كلما لامسني بن. حين تركنا بن وماري لو وانعطفنا إلى شارع فيبي، لم يكن ذهني حاضرًا جدًّا. أظن أنني أدركت أن شخصًا ما يسير في اتجاهنا في المسار الجانبي، لكني لم ألحظ من يكون إلا بعد أن صار على بُعد ثلاث أقدام منا.

كان ذلك الشخص هو مختل فيبي، وكان يحدق فينا مباشرةً. توقف أمامنا، فسدَّ الطريق.

قال مخاطبًا فيبي: «أنت فيبي وينتربوتوم، أليس كذلك؟»

صدر صوتها على هيئة صرير خافت. الصوت الوحيد الذي خرج منها كان «أجل ...» الذي قالته بصوت واهن.

سألها: «ما الأمر؟» ثم دسَّ يده في جيبه.

دفعته فيبي، وجذبتني من ذراعي وبدأت تركض. قالت: «يا إلهي! يا إلهي!»

كنت ممتنةً لأننا كنا قد وصلنا إلى بيت فيبي تقريبًا، لذا إن طعننا في وضح النهار، فقد يعثر علينا أحد جيرانها ويأخذنا إلى المستشفى قبل أن ننزف حتى الموت. كنت قد بدأت أصدق أنه مختل بالفعل.

أدارت فيبي مقبض الباب لكنه كان موصدًا. طرقَت على الباب ففتحته أمها بغتة. كان يبدو عليها الشحوب والاضطراب هي الأخرى.

قالت فيبي: «كان الباب موصدًا! لمَ كان موصدًا؟»

قالت السيدة وينتربوتوم: «يا عزيزتي، كل ما في الأمر أنَّ ... ظننتُ أنَّ ...»

واسترقت النظر حولنا ثم إلى طرفَي الشارع. «هل رأيتِ أحدًا ... هل أخافكِ أحدٌ ...»

قالت فيبي: «إنه المختل. رأيناه لتونا.» كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة. «ربما يجب أن نتصل بالشرطة ... أو نخبر أبي.»

أمعنتُ النظر إلى والدة فيبي. لم تبدُ لي قادرة على الاتصال بالشرطة، أو بالسيد وينتربوتوم. أظن أن خوفها فاق خوفنا. دارت في أرجاء البيت توصد جميع الأبواب.

خلا ذلك المساء من أي أحداث أخرى، وحين عدت إلى البيت، لم يبدُ لي أن المختل يمثل خطرًا كبيرًا. لم يتصل أحد بالشرطة، وعلى حد علمي لم تكن السيدة وينتربوتوم قد أخبرت زوجها بعد، لكن قبل أن أغادر بيت فيبي مباشرة، قالت لي: «إن رأيتُ المختل مرةً أخرى فسأتصل بالشرطة بنفسي.»

الفصل العشرون

قبلة بالتوت البري

تلك الليلة، حاولت أن أدوِّن في دفتر مذكراتي الصغير لأجل السيد بيركواي. في البداية، كتبت قائمة تضم جميع الأشياء التي أحبها، وكانت جميعها أشياء من بايبانكس؛ الأشجار والأبقار والدجاج والخنازير والحقول وبقعة السباحة. كانت أشياء عشوائية تمامًا، وحين حاولت أن أكتب عن أي منها، انتهى بي المطاف بالكتابة عن أمي، فكلها كانت مرتبطة بها. أخيرًا، كتبت عن قبلة التوت البري.

ذات صباح، حين استيقظت مبكرًا، رأيت أمي تسير صاعدة التل إلى الحظيرة. كان الضباب يخيم قريبًا من الأرض، والحساسين تغرد في شجرة البلوط المجاورة للبيت، وبطن أمي الحبلى تبرز أمامها. كانت تتمشى صاعدة التل، تأرجح ذراعيها وتغني:

لا تقعي في حب بَحَّار،
في حب بَحَّار، في حب بَحَّار،
لا تقعي في حب بَحَّار،
وإلا أخذ قلبكِ معه إلى البِحار ...

حين دنت من جانب الحظيرة حيث تستقر شجرة القيقب السكري، قطفت بضع حبات من التوت البري من شجيرة منفردة ووضعتها في فمها. جالت ببصرها في كل ما حولها؛ إلى البيت وراءها، وفي أرجاء الحقول، وفي الأغصان الظليلة فوقها. خطت بضع خطوات إلى جذع شجرة القيقب، وأحاطتها بذراعيها وقبَّلتها بقوة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، تفحصتُ جذع الشجرة ذاك. حاولت أن ألفَّه بذراعي، لكنه كان أكبر بكثير مما بدا لي من نافذتي. رفعت بصري إلى حيث ينبغي أن يكون فمها

قد لامس الجذع. تبينت بقعة صغيرة داكنة، وكأنما خلفتها قبلة بالتوت البري، أو أن ذلك كان على الأرجح من نسج خيالي.

ألصقت أذني بالجذع وأصغيت. ثم أدرت وجهي لمقابلة الشجرة مباشرةً وقبلتها بقوة. حتى يومنا هذا، لم تفارقني رائحة لحائها الخشبية العذبة، وملمس نتوءات اللحاء، ومذاقها المميز على شفتي.

اعترفت في دفتر يومياتي المصغر بأني منذئذٍ قبَّلت شتى أنواع الأشجار، ووجدت أن لكل عائلة منها — البلوط والقيقب والدردار والبتولا — نكهة مميزة تنفرد بها عن سواها. كان يخالط نكهة كل شجرة فريدة نفحة يسيرة من التوت البري لم أجد لها تفسيرًا.

في اليوم التالي، سلَّمتُ تلك القصة للسيد بيركواي. لم يقرأها أو ينظر إليها حتى، بل قال وهو يودعها حقيبته: «رائع! مدهش! سأضمها إلى الدفاتر الأخرى.»

سألتني فيبي: «هل كتبتِ عني؟»

وسألني بن: «هل كتبتِ عني؟»

جاب السيد بيركواي أرجاء الحجرة وكأن فكرته عن النعيم هي أن ينعم بالفرصة للتدريس لنا. قرأ قصيدة للشاعر إي إي كامنجز بعنوان «المُهر الوليد» التي كان الحرف الوحيد الكبير في عنوانها باللغة الإنجليزية هو الحرف الأخير، حرف Y، لا لسبب إلا لأن السيد كامنجز أراده أن يكون كذلك.

قالت فيبي: «على الأرجح لم يدرس الإنجليزية قط.»

بدا لي حرف Y في عنوان القصيدة الإنجليزية مثل المُهر الوليد الواقف على ساقَيه الهزيلتين.

كانت القصيدة تتحدث عن مهر حديث عهد بالحياة لا يعرف أي شيء لكنه يشعر بكل شيء. ويحيا في عالم «مكنون جميل دافئ». أعجبني ذلك الوصف. لم أعرف كنهه بالضبط، لكنه أعجبني. كان يغلب على القصيدة برمتها طابع الرقة والأمان.

ذلك اليوم، غادرت فيبي المدرسة مبكرًا، إذ كان لديها موعد مع طبيب الأسنان. بدأت أسير عائدة إلى البيت وحدي، لكن انضم لي بن. لم أكن مستعدةً على الإطلاق لما حدث في الطريق إلى البيت، ولما سيحدث بعده. كنا نسير أنا وبن حين سألني: «هل قرأ لكِ أحد كَفَّكِ من قبل؟»

«كلا.»

قال: «أعرف كيف أقرأ الطالع. هل تحبين أن أقرأ كفَّكِ؟» أمسك كفي وظل يحدق به وقتًا طويلًا. كانت يده ملساء دافئة. وكانت يدي تتعرق بغزارة. ظل يهمهم ويتتبع

خطوط يدي بأصبعه. أصابني هذا بقشعريرة في جسدي، لكنها لم تكن قشعريرة سيئة. كانت الشمس تلفحنا بحرِّها، وشعرت أنني أود أن أظل واقفةً معه للأبد وهو يمرر أصبعه على كفي مثلما كان يفعل. راود أفكاري المهرُ الوليد الذي لا يعرف شيئًا لكنه يشعر بكل شيء. وفكرت في العالم المكنون الجميل الدافئ. أخيرًا، قال بن: «هل تريدينني أن أبدأ بالأنباء الحسنة أم السيئة؟»

«بالسيئة. هي ليست بالغة السوء، أليس كذلك؟»

تنحنح بن. «النبأ السيئ هو أني لا أستطيع قراءة الطالع.» (انتزعت يدي من يديه.) سألني: «ألا تريدين معرفة النبأ الحسن؟» (بدأت أسير.) «أما النبأ الحسن فهو أنكِ تركتِني ممسكًا بيدكِ لخمس دقائق دون أن تجفلي ولو مرة.»

لم أعرف كيف أفسر تصرفه. رافقني إلى البيت، مع أني أبيتُ أن أتحدث معه. وانتظرني على الشرفة حتى تجهزت للذَّهاب إلى بيت فيبي، ثم رافقني إلى هناك.

حين طرقتُ باب بيت فيبي، قال بن: «سأذهب الآن.» رمقته بنظرة خاطفة والتفتت إلى الباب، لكنه في اللحظة التي أدرت فيها رأسي مال للأمام وأعتقد أن شفتيه استقرتا على أذني. لم أكن واثقةً إن كانت أذني هي المقصودة. في الواقع، لم أكن واثقةً من أن ذلك حدث من الأساس، إذ لم أدرِ إلا وهو يسير مبتعدًا بعد أن هُرع نازلًا الدَّرَج. انفتح الباب قليلًا وطالعني وجه فيبي المستدير وقد اعتراه شحوب وخوف بالغان. قالت: «بسرعة، ادخلي.» وقادتني إلى المطبخ. على طاولة المطبخ كانت تستقر فطيرة تفاح، وإلى جوارها ثلاثة أظرف: أحدها موجه إلى فيبي، والثاني إلى برودنس، والثالث إلى أبيهما.

قالت فيبي وهي تريني رسالتها: «لقد فتحت الملاحظة الموجهة إليَّ.» كانت تقول: «أبقي جميع الأبواب موصدة واتصلي بأبيك لو احتجتِ أي شيء. أحبك يا فيبي.» كانت موقعةً «أمكِ».

لم أرَ في الأمر خطبًا جللًا. قلت: «فيبي ...»

«أعرف، أعرف. هي لا تبدو مريعة أو ما شابه. في الواقع أول ما قلته لنفسي كان: «هذا جيد، هي تعرف أني كبرت بما يكفي لأبقى هنا وحدي.» ظننت أنها خرجت للتسوق أو ربما حتى قررت أن تعود إلى العمل، مع أنه لم يكن مقررًا أن تعود إلى متجر «روكي رابر» حتى الأسبوع القادم. لكن بعد ذلك عادت برودنس إلى البيت فأعطيتها ملاحظتها.»

أرتني فيبي الملاحظة المتروكة لبرودنس. كانت تقول: «رجاءً سخني صوص السباجيتي واغليها. أحبك يا برودنس.» كانت موقعة «أمكِ.»

لم أرَ فيها ما يريب أيضًا، لكن فيبي كانت مرتابةً. طهت برودنس السباجيتي، بينما ساعدتُ فيبي في إعداد المائدة. وصنعنا أنا وفيبي سلاطة. قالت فيبي: «أشعر بالاستقلال نوعًا ما.»

حين عاد والد فيبي، أرته فيبي الملاحظة المتروكة له. فتحها وجلس يحدق في الورقة. اشرأبت فيبي من وراء كتفه وقرأت الملاحظة بصوت مسموع: «اضطررت للرحيل. لا يسعني أن أفسر. سأتصل بك في غضون بضعة أيام.»

اجتاح الخوف قلبي.

بدأ سيل من الأسئلة ينهال من برودنس. «ماذا تعني؟ الرحيل إلى أين؟ لِمَ لا يسعها أن تفسر؟ لمَ لم تخبرك؟ هل سبق أن ذكرت هذا؟ بضعة «أيام»؟ إلى أين ذهبت؟»

قالت فيبي: «ربما ينبغي أن نتصل بالشرطة. أظن أنها اختُطفَت أو شيئًا من هذا القبيل.»

قال السيد وينتربوتوم: «فيبي، الأمر جدي.»

قالت: «وأنا جادة فيما أقول. ربما دخل المختل البيت وجرجرها ...»

«فيبي ما تقولينه ليس مضحكًا.»

«أنا لا أقصد المزاح. بل أعني ما أقول. يمكن لذلك أن يحدث.»

كانت برودنس لا تزال مستمرة في أسئلتها. «أين ذهبَت؟ لمَ لمْ تذكر ذلك؟ ألم تخبركَ؟ إلى أين ذهبت؟»

قال أبوها: «برودنس، صدقًا أنا لا أعرف.»

كررت فيبي: «أظن أنه ينبغي أن نتصل بالشرطة.»

«فيبي، بافتراض أنها اختُطفَت، هل سيسمح لها المختل — كما تقولين — بأن تجلس وتكتب تلك الرسائل؟ ما قولكِ؟»

نهض وخلع معطفه وقال: «هيا نأكل.»

وأنا أغادر، قالت فيبي: «لقد اختفت أمي. لا تخبري أحدًا يا سال. لا تخبري أي أحد.»

في البيت كان أبي منكبًّا على دفتر الصور. اعتاد أن يغلق الدفتر بسرعة حين أدخل إلى الغرفة، وكأنما يخجل من أن أراه ممسكًا به. لكنه مؤخرًا لم يَعُد يتكبَّد عناء إغلاقه. وكأنما لم يَعُد يقوى على ذلك.

كانت في الصفحة المفتوحة صورة لأبي وأمي وهما جالسَين على العشب تحت شجرة القيقب السكري. كان يحيطها بذراعيه ويضمها إليه. وكان وجهه ملاصقًا لوجهها وامتزج شعرهما. بدوَا كأنهما ملتصقان.

قلت: «لقد رحلت والدة فيبي.»

رفع بصره إلي.

«تركَت بضع ملاحظات. تقول إنها ستعود، لكني لا أصدق ذلك.»

صعدت للطابق العلوي وحاولت أن أنجز شيئًا من تقرير علم الأساطير الذي كُلِّفتُ به. وقف أبي عند مدخل الغرفة وقال: «عادةً ما يعود الناس.»

أرى الآن أن قوله كان عامًا، وأنه كان يحاول به أن يطمئنني، لكن وقتئذٍ — في تلك الليلة — سمعت فيما قاله شيئًا من التأكيد على أمر كنت أفكر فيه وآمُل حدوثه. كنت أصلي طالبة أن تعود أمي بمعجزة ما وأن نعود إلى بايبانكس وأن يعود كل شيء كما كان.

الفصل الحادي والعشرون

أرواح

في اليوم التالي بالمدرسة، رسمت فيبي على وجهها تعبيرًا ثابتًا؛ ابتسامة خفيفة جامدة. لا بدَّ أن الاحتفاظ بتلك الابتسامة كان صعبًا عليها، فبحلول موعد حصة اللغة الإنجليزية، كان ذقنها يرتجف من فرط الإرهاق. كانت صامتة للغاية طَوال اليوم. لم تتحدث إلى أحد سواي، ولم تقل لي سوى: «أمضي ليلةَ غدٍ معي في البيت.» لم يكن طلبًا؛ بل أمرًا.

أعطانا السيد بيركواي تمرينًا مدته خمس عشرة ثانية. بأسرع ما يمكن، ودون تفكير، كان علينا أن نرسُم شيئًا ما. وسيخبرنا بما سنرسمه حينما يستعد الجميع. قال: «تذكروا، «لا تفكروا»، بل ارسموا فحسب. لديكم خمس عشرة ثانية. مستعدون؟ ارسموا «روحكم». فلتبدءوا الآن.»

أهدرنا خمس ثوانٍ نحملق به ببلاهة. وحين أدركنا أنه كان يعني ما يقول، وأنه يراقب الساعة، بدأت أقلامنا الرَّصاص تخط الورق. لم أفكر. لم يكن ثمة وقت للتفكير.

حين صاح السيد بيركواي: «توقفوا!» رفعنا جميعًا بصرنا إليه ذاهلين. ثم نظرنا إلى أوراقنا، فدبت الحماسة في الفصل. اندهشنا مما رسمته أقلامنا.

دار السيد بيركواي في أرجاء الفصل يجمع الأوراق. ظل يقلبها ثم لصقها على لوح الإعلانات. قال: «ها قد صار لدينا رسم لروح كل منكم.» احتشدنا جميعًا حول اللوح.

أول شيء لاحظته هو أن كل شخص رسم شكلًا محوريًّا؛ قلبًا أو دائرةً أو مربعًا أو مثلثًا. استغربت ذلك. أعني لم يرسُم أحدٌ حافلةً أو سفينةَ فضاء أو بقرة، بل رسم الجميع تلك الأشكال البسيطة. لاحظتُ أيضًا أن داخل كل شكل كان يوجد تصميمٌ مميز. في البداية ظننت أن التصاميم كلها مختلفة. كان من بينها صليب، وشخبطة داكنة، وعين، وفم، ونافذة.

وكان بداخل أحدها دمعة، ظننت أنه حتمًا رسم فيبي.

ثم قالت ماري لو: «انظروا إلى هذا؛ يوجد رسمان متماثلان تمامًا.» ردد الجميع: «عجبًا!» و«يا إلهي!» و«لمن هما؟»

كان الرسمان المتطابقان هما: دائرة في داخلها ورقة شجرة قيقب كبيرة، تلامس أطرافها حدود الدائرة. كانت إحدى رسمتَي الدائرة ذات ورقة القيقب لي. والأخرى كانت رسمة بن.

الفصل الثاني والعشرون

أدلة

بِتُّ الليلةَ التاليةَ في بيت فيبي، لكني لم أستطع النوم تقريبًا. ظلت فيبي تقول: «هل سمعت تلك الضجة؟» ثم تُهرَع لتسترق النظر من النافذة تحسبًا لعودة المختل لينال منا جميعًا. في إحدى تلك المرات، رأت السيدة كادافر في حديقتها وهي تحمل كشَّافًا.

لا بدَّ أني نمت بعدها، إذ استيقظت على صوت فيبي وهي تبكي في نومها. حين أيقظتها أنكرت ذلك. «لم أكن أبكي. قطعًا لم أكن أبكي.» في الصباح أبت فيبي أن تستيقظ. اندفع أبوها إلى الغرفة وقد تدلت رابطتا عنق من عنقه وكان يمسك حذاءه في يده. «لقد تأخرتِ يا فيبي.»

قالت: «أنا مريضة. لديَّ حمى ومعدتي تؤلمني.»

وضع أبوها يده على جبهتها، وأمعن النظر في عينيها وقال: «يؤسفني أن أقول إنك مضطرة للذَّهاب إلى المدرسة.»

قالت: «أنا مريضة. صدقًا مريضة. قد يكون السرطان.»

«فيبي، أعلم أنكِ قلقة، لكن لا يسعنا سوى الانتظار. يجب أن نتابع حياتنا. لا يسعنا أن نتمارض.»

قالت فيبي: «لا يسعنا ماذا؟»

«أن نتمارض، هاك، ابحثي عن معناها.» التقط القاموس من مكتبها وألقى به إليها، ثم اندفع إلى الرَّدْهة.

قالت فيبي: «أمي مفقودة وأبي يعطيني قاموسًا.» بحثت عن معنى «تمارض» وقرأت التعريف: «ادعاء المرض للتملص من أداء واجب أو عمل.» أغلقت القاموس بعنف. «أنا لا أتمارض.»

كانت برودنس في غاية انفعالها. «أين قميصي الأبيض؟ فيبي، هل رأيتِ ...؟ أكاد أقسم إنني ...!» أخرجت محتويات خزانة ملابسها وطوحتها على السرير.

أخرجت فيبي قميصًا وتنورة مكرمشين من الخزانة وبدلت ملابسها على مضض. في الطابق السفلي، كانت مائدة المطبخ خاوية. قالت فيبي: «لا آنية موسلي، ولا أكواب عصير برتقال، ولا شرائح خبز القمح الكامل.» لمست سترة بيضاء كانت معلقة على ظهر كرسي. وقالت: «تلك سترة أمي البيضاء المفضلة.» التقطت السترة ولوحت بها أمام أبيها. «انظر إلى تلك! هل كانت ستتركها؟ أجبني؟»

مد يده ولمس كم السترة، وفرك نسيجها بين أصبعيه لوهلة يتحسسه. «فيبي، تلك سترة قديمة.» ارتدتها فيبي فوق قميصها المكرمش.

شعرتُ بالضيق لأن كل ما حدث في بيت فيبي ذلك الصباح ذكرني بيوم رحيل أمي. لأسابيع، ظللت أتخبط أنا وأبي كالعميان. لم يكن أي شيء في مكانه الصحيح. دبت الحياة في المنزل، فصار يفقس أكوامًا من الأطباق والملابس المتسخة والصحف والغبار. لا بدَّ أن أبي قد ردَّد عبارة: «تبًّا» ثلاثة آلاف مرة. أصاب القلق الدجاجات، واضطربت الأبقار، وحزنت الخنازير واكتأبت. وظلت كلبتنا مودي بلو، تئن لساعات متواصلة.

حين أخبرني أبي أن أمي لن تعود، أبيت أن أصدقه. أحضرت جميع البطاقات البريدية التي أرسلتها لي من حجرتي، وقلت: «لقد كتبت لي كل هذه البطاقات، سوف تعود لا محالة.» ومثلما فعلت فيبي وهي تلوح بسترة أمها في وجه أبيها، جئت بدجاجة من الحظيرة وسألته: «هل كانت أمي ستترك دجاجتها المفضلة؟ هي تحب تلك الدجاجة.»

ما كنت أعنيه في الحقيقة: «كيف لها ألا تعود إليَّ؟ هي تحبني.»

في المدرسة وضعت فيبي كتبها على مكتبها بعنف. قالت بث آن: «قميصك مكرمش قليلًا يا فيبي ...»

قالت فيبي: «أمي مسافرة.»

قالت بيث آن: «أنا أكوي ملابسي بنفسي الآن. أنا حتى أكوي ...»

همست فيبي في أذني قائلة: «أعتقد أني سأصاب بسكتة قلبية حقيقية.»

تذكرت أرنبًا صغيرًا اصطادته كلبتنا، مودي بلو، وظلت تجول حاملة إياه؛ لم تكن تنوي أن تأكل الأرنب، بل كانت تلعب ليس إلَّا. أخيرًا أقنعت مودي بلو أن تترك الأرنب، وحين التقطته كان قلبه ينبض بسرعة رهيبة. وظل نبضه يتسارع، ثم ما لبث أن توقف فجأة.

أخذت الأرنب إلى أمي. قالت: «لقد مات يا سالامنكا.»

قلت: «لا يعقل أن يكون قد مات. كان حيًّا منذ لحظات.»

تساءلت عما سيحدث لو ظل نبض فيبي يتسارع حتى يتوقف قلبها مثل ذلك الأرنب، وتسقط صريعة في مكانها هنا في المدرسة. لن تعلم أمها حتى بوفاتها.

بعد الانتهاء من تسجيل الحضور والغياب، قالت ماري لو لفيبي: «هل سمعتكِ تقولين إن أمكِ مسافرة ...؟»

تجمعت حولنا كريستي وميجان. قالت كريستي: «هل سافرت أمكِ في رحلة عمل؟ دائمًا ما تسافر أمي إلى فرنسا في رحلات عمل. فأين أمكِ؟ هل هي في رحلة عمل؟»

أومأت فيبي برأسها.

سألت ميجان: «إلى أين ذهبت؟ طوكيو؟ السعودية؟»

قالت فيبي: «لندن.»

قالت كريستي: «أوه، لندن. زارت أمي لندن.»

التفتت فيبي إليَّ وقد بدا عليها الارتباك. أظن أنها فوجئت مما قالت، لكني أعرف تمامًا ما الذي دفعها إلى الكذب. كان ذلك أسهل أحيانًا. لجأتُ إليه حين كان الناس يسألونني عن أمي. قلت: «لا تقلقي يا فيبي.»

انفجرت قائلة: «لست قلقة.»

كنت قد فعلت ذلك أيضًا. كلما حاول أحد أن يواسيَني لرحيل أمي، كنت أنفجر غضبًا في وجهه. كنت أتصرف بعُنُود حمار عجوز. حينما كان أبي يقول: «لا بدَّ أنكِ متضايقة جدًّا»، كنت أنكر ذلك. وكنت أقول له: «لست متضايقة. أنا لا أشعر بأي شيء على الإطلاق.» لكنني كنت متضايقة. كنت لا أشعر برغبة في الاستيقاظ صباحًا، وفي المساء كنت أخشى الخلود إلى النوم.

بحلول موعد الغداء، ظل الناس يمطرون فيبي بوابل من الأسئلة. سألت ماري لو: «إلى متى ستغيب أمكِ في لندن؟ هل ستحتسين الشاي بصحبة الملكة.»

قالت كريستي: «قولي لها أن تزور منطقة كونفنت جاردن. تحب أمي كونفنت جاردن كثيرًا.»

قالت ماري لو: «اسمها كوفنت جاردن أيتها الخرقاء.»

قالت كريستي: «كلا، غير صحيح. أنا واثقة من أن اسمها كونفنت جادرن.»

بعد انتهاء اليوم المدرسي، سرنا عائدين إلى البيت برفقة بن وماري لو. لم تنطق فيبي كلمة. سألها بن: «ما الخطب يا فري بي؟ تكلمي.»

دون سابق إنذار، قلت: «لكلٍّ أجندته الخاصة.» تعثَّر بن في حافة الرصيف، ورمقتني ماري لو بنظرة استغراب. لم يبارحني الأمل في أن تكون والدة فيبي في البيت. ظللت آمل ذلك حتى حين وجدنا الباب موصدًا. قلت: «هل أنتِ واثقة من أنك تريدينني أن أدخل؟ ربما تودين البقاء وحدكِ.»

قالت فيبي: «لا أريد البقاء وحدي. اتصلي بأبيكِ واسأليه إن كان بوسعكِ أن تتناولي العشاء معنا اليوم أيضًا.»

في الداخل، نادت فيبي: «أمي!» جالت في أرجاء المنزل تبحث عنها في كل غرفة. قالت فيبي: «كفى، سوف أبحث عن أدلة، قرائن على أن المختل جاء واختطف أمي عنوةً.» أردت أن أقول لها لا طائل من ذلك، وإن أمها على الأرجح لم تُختطَف، لكني كنت أعرف أنها لم تكن تريد سماع ذلك.

لمَ لم ترجع أمي، دارت في ذهني أفكار كثيرة. ربما أصيبت بالسرطان وتريد إخفاء الأمر عنَّا فذهبت لتختبئ في أيداهو. ربما ارتطم رأسها فأصيبت بفقدان ذاكرة، وتهيم على وجهها في لويستون، لا تدري من هي أو تظن أنها شخص آخر. قال لي أبي: «لم تصب بالسرطان يا سال. ولا تعاني فُقدان ذاكرة. تلك أماني فارغة.»

لكني لم أصدقه. فربما كان يحاول حمايتها؛ أو حمايتي.

جالت فيبي في أرجاء المنزل تتفحص الجدران والسجاد بحثًا عن آثار دماء. عثرت على بضع بقع مثيرة للريبة وخصلات شعر. علَّمت فيبي البقع بقطع من الشريط اللاصق وجمعت خصلات الشعر في ظرف.

عادت برودنس إلى البيت في غاية الحماس. قالت: «نجحت! نجحت!» كانت تتقافز هنا وهناك فرحًا. «اجتزت تجارب أداء فريق المشجعات!» حين ذكرتها فيبي بأن أمها قد اختُطفَت، قالت برودنس: «أمي لم تُختطف يا فيبي.» توقفت عن القفز وتطلعت حولها في المطبخ. «إذن ما الذي من المفترض أن نأكله على العشاء؟»

فتشت فيبي في الخزانات. وفتحت برودنس حجيرة التجميد في الثلاجة وقالت: «انظرا إلى هذا.» لوهلة مريعة، ظننتُ أنها وجدت فيها أشلاء جثة. ثمة احتمال، احتمال ضئيل أن تكون فيبي محقة. ربما قتل مختلٌ أمها. لم أقوَ على النظر. سمعت برودنس تحرك أشياء داخل حجيرة التجميد. على الأقل لم تكن تصرخ.

لم تحتوِ حجيرة التجميد على أشلاء جثة. بل كانت بها حاويات بلاستيكية لُصقَت على كل منها ملاحظة. قرأتها برودنس: «طاج بروك–عد، ٣٥٠، ساعة»، و«معكرو بالجبن، ٣٢٥,٤٥ دقيقة» إلخ.

قلت: «ما طاج بروك–عد؟»

فتحت فيبي الغطاء. بالداخل كانت توجد كتلة مجمدة باللونين الأصفر والأخضر. قالت: «طاجن بروكلي وعدس.»

حين عاد أبوهما وفوجئ برؤية عشاء على المائدة، أرته برودنس محتويات حجيرة التجميد. همهم أبوها. تناولنا جميعًا العشاء في صمت.

سألت برودنس أباها: «ألم تردك أي أخبار من ... من أمي؟»

قال: «كلا، لم يردني منها شيء بعد.»

قالت فيبي: «أظن أن علينا أن نبلغ الشرطة.»

«فيبي!»

«أنا «جادة» فيما أقول. لقد وجدتُ بضع بقع مريبة.» أشارت فيبي إلى موضعين لُصقَ عليهما شريط لاصق أسفل مائدة غرفة الطعام.

سألها: «ما غرض من وضع ذلك الشريط اللاصق هنا؟»

شرحت له فيبي أمر البقعتين اللتين يُحتمل أن تكونا بقعتَي دماء. قالت برودنس: «دماء؟» ثم توقفت عن الأكل.

أخرجت فيبي الظرف وأفرغت خصلات الشعر على المائدة. قالت مفسرة: «شعرات غريبة.»

قالت برودنس: «يا للقرف!»

نقر السيد وينتربوتوم بشوكته سكينه. ثم نهض وقال، ممسكًا بذراع فيبي: «اتبعيني.» ساقها إلى الثلاجة، وفتح حجيرة التجميد وأشار إلى الحاويات البلاستيكية. «لو أن مختلًّا قد اختطف أمكِ، هل كانت ستحظى بوقتٍ لإعداد كل تلك الوجبات؟ هل كانت ستقول له: «معذرة يا سيد مختل، أمهلني حتى أجهز عشرة أو عشرين وجبة لأسرتي ليأكلوها بينما أنا مخطوفة»؟»

قالت فيبي: «أنت لا تكترث. لا أحد يكترث. لكل منكم أجندته السخيفة.»

غادرتُ بعد العشاء بقليل. كان السيد وينتربوتوم في مكتبه، يهاتف أصدقاء زوجته لعلهم يعرفون إلى أين يمكن أن تكون ذهبت.

قالت لي فيبي: «على الأقل هو يفعل شيئًا، لكني ما زلت أرى أننا يجب أن نبلغ الشرطة.»

فيما كنت أغادر منزل فيبي، ناداني صوت مارجريت كادافر الحاد، الذي يشبه تكسُّر أوراق الشجر الجافة، من المنزل المجاور: «سال؟ هل تودين الدخول؟ أبوكِ هنا ... نحن نتناول الحلوى. انضمي إلينا.»

ظهر أبي من خلفها. قال: «تعالَي يا سال. لا تكوني سخيفة.»

قلت: «لست سخيفة. لقد أكلت حلوى بالفعل، وسأذهب إلى البيت لكتابة تقرير اللغة الإنجليزية.»

التفت أبي إلى مارجريت. «من الأفضل أن أرافقها. آسف ...»

لم تقل مارجريت شيئًا. كل ما فعلَته أنها وقفت مكانها بينما ذهب أبي لإحضار مِعطفه ثم انضم لي. كنت أعلم أن ذلك كان ينمُّ عن اللؤم، لكني شعرت أنني أحرزت فوزًا بسيطًا على مارجريت كادافر.

في الطريق إلى البيت، حين سألني أبي إن كانت والدة فيبي قد عادت، قلت: «كلا. تظن فيبي أن مختلًّا اختطفها.»

«مختل؟ ألا ترين ذلك مستبعدًا بعض الشيء؟»

«هذا ما ظننته في بادئ الأمر، لكنه ليس مستحيلًا، أليس كذلك؟ أعني أنه وارد الحدوث. يمكن أن يكون مختلًّا هو من ...»

«سال!»

كنت سأحكي لأبي عن الشاب المتوتر والرسائل الغامضة، لكنه كان سينعتني بالسخافة. فقلت: «كيف تعرف يقينًا أن أحدًا ما — ليس مختلًّا بالضرورة بل شخصًا عاديًّا — لم يجبر أمي على الرحيل إلى أيداهو؟ ربما لجأ للابتزاز ...»

«سال. لقد رحلت أمك بإرادتها.»

«كان ينبغي أن نمنعها.»

«البشر ليسوا طيورًا. لا يمكنك أن تحبسي شخصًا.»

«ما كان ينبغي لها أن ترحل. لو أنها لم ترحل ...»

«سال، أنا واثق من أنها كانت تنوي العودة.» كنا قد وصلنا إلى البيت، لكننا لم ندخل. بل جلسنا على درجات سُلَّم الشرفة. قال أبي: «لا يسعكِ التنبؤ ... لا يمكن توقع ... لا تعرفين أبدًا ...»

وأشاح بنظره، فلم يسعني إلا أن أشاطره حزنه. اعتذرت له عن تعنُّتي وعن مضايقته. لفَّني بذراعه وظللنا جالسَين مكاننا على الشرفة، ضائعين ويُرثى لحالنا.

الفصل الثالث والعشرون

متنزه بادلاندز

قال جدي: «كيف حال ساقكِ التي لدغها الثعبان يا عزيزتي؟»

كان قلقًا على جدتي، لكن ساقها لم تقلقه بقدر أنفاسها المتحشرجة. «سنتوقف في متنزه بادلاندز.» أومأت جدتي برأسها.

كلما دنَونا من متنزَّه بادلاندز، ازدادت الهمسات المتناثرة في الهواء التي تقول: «على مهل، على مهل، على مهل.» قلت مقترحةً: «ربما من الأفضل ألا نزور بادلاندز.»

قالت جدتي: «ماذا؟ لا نزوره؟ بالطبع علينا أن نزوره. لقد كدنا نصل. إنه كَنز وطني.»

لا بدَّ أن أمي قد سلكت هذا الطريق. تُرى فيمَ كانت تفكر حين وقعت عيناها على هذه اللافتة، أو تلك؟ متى بلغت هذا الجزء من الطريق؟

لم تكن أمي تعرف القيادة. كانت تخشى السيارات. قالت: «لا أحب تلك السرعة العالية. بل أحب أن أكون المتحكمة في وجهتي وسرعتي.» حين قالت إنها ذاهبة إلى مدينة لويستون بولاية أيداهو، بالحافلة، اندهشت أنا وأبي.

لا أعرف لمَ اختارت أيداهو. خطَر لي أنها ربما فتحت كتاب خرائط وأشارت بأصبعها إلى موضع عشوائي قديم، لكني عرفت فيما بعد أن لها ابنة خالة تعيش في لويستون بأيداهو. قالت أمي: «لم أرَها منذ خمسة عشر عامًا، وهذا أمر جيد، إذ ستخبرني من أكون حقيقة.»

قال أبي: «بوسعي أن أخبركِ أنا بذلك يا شوجر.»

«كلا، أعني قبل أن أصير زوجة وأمًّا. تحت تلك القشرة، حين كنت تشانهاسن الحقيقية.»

بعد أن قطعنا بالسيارة مسافةً طويلةً في براري ساوث داكوتا المستوية، اعترتنا الصدمة حين وصلنا إلى بادلاندز. بدا المتنزه وكأنما حصد شخص ما جميع التلال

والوديان والصخور من ساوث داكوتا وحشدها جميعًا في تلك البقعة. في منتصف السهول المستوية، كانت تستقر قمم مُسننة وأخوار منحدرة. كانت السماء الزرقاء الشاهقة تعلونا، وبالأسفل كانت توجد الصخور الوردية والسوداء والأرجوانية. يمكنك أن تقف على حافة قمم الشعاب فتطالعك من أسفل وهدان خطيرة ذات حواف حادة ناتئة. تتوقع أن ترى هياكل عظمية بشرية تتدلى في أرجائها.

حاولت جدتي أن تقول: «مرحى، مرحى!» لكن أنفاسها لم تُسعفها. قالت بأنفاس متحشرجة: «مرحـ... مرحـ...» فرش جدي دِثارًا على الأرض حتى تجلس وتتطلع إلى المنظر.

أرسلت أمي بطاقتين بريديَّتين من متنزه بادلاندز. كانت إحداهما تقول: «سالامنكا هي ذراعي اليمنى. أفتقد ذراعي اليمنى.»

حكيت لجدي وجدتي قصةً كانت أمي قد حكتها لي عن السماء الشاهقة، التي بدت هنا أعلى مما هي في أي مكان زرته من قبل. منذ زمن بعيد، كانت السماء منخفضة جدًّا حتى إن رأسك قد يرتطم بها إن لم تحاذر، ومنخفضة جدًّا إلى حد أن الناس أحيانًا كانوا يختفون في داخلها. لمَّا فاض بالناس الكيل من انخفاضها، صنعوا أعمدةً طويلةً، وذات يوم رفعوا جميعًا أعمدتهم ودفعوا. دفعوا السماء لأعلى ما يمكن.

قال جدي: «وانظرا إليها الآن. لقد دفعوها بقوة بالغة إلى حد أنها ظلت ثابتة.»

بينما كنت أحكي تلك القصة، جاءت امرأة حبلى ووقفت على مقربة منا، تجفف وجهها بمنديل. قال جدي: «تلك المرأة تبدو منهكة للغاية.» سألها إن كانت تود أن تستريح على دِثارنا المفروش.

قلت: «سأُلقي نظرة على المكان.» كنت أخاف النسوة الحوامل.

بعد أن أخبرتني أمي بنبأ حملها، أردفت: «أخيرًا! سنملأ حقًّا ذلك البيت بالأولاد.» في البداية، لم ترُق لي الفكرة. فلمَ لا تكتفي بي أنا فقط؟ كنت أنا وأمي وأبي نشكِّل فريقًا صغيرًا.

حين نما الطفل بداخل أمي، أسمعتني أمي نبضه، وجعلتني أشعر بركلاته في بطنها، فبدأت أتشوق لرؤيته. كنت آمُل أن يكون بنتًا، فأحظى بأخت. زينت مع أبي وأمي غرفة الطفل. طلينا جدرانها باللون الأبيض اللامع وعلقنا ستائر صفراء. أزال أبي الطلاء من وحدة أدراج قديمة وأعاد طلاءها. وأهدانا الناس ملابس رضع صغيرة جدًّا. غسلنا وطوينا كل قميص منها وكل حلة وكل حلة نوم منها. واشترينا حفَّاظات قماشية جديدة لأن أمي كانت تحب منظر الحفَّاظات المنشورة على حبل الغسيل في الهواء الطلق.

الشيء الوحيد الذي لم نستطع فعله هو اختيار اسم. لم يبدُ أي اسم مناسبًا تمامًا. لم يكن ثمة اسم مثالي بشكل كافٍ لهذا الطفل. بسبب ذلك بدا أبي أكثر قلقًا من أمي. قالت أمي: «سوف يخطر لنا اسم مناسب. سيأتينا الاسم المثالي فجأة ذات يوم.»

قبل موعد ولادة الطفل بثلاثة أسابيع، كنت في الغابة التي تقع وراء أبعد حقل. كان أبي قد ذهب إلى البلدة ليُنجز بعض المهام؛ وكانت أمي تدعك أرضية البيت. قالت إن دعك الأرضية يخفف ألم ظهرها. لم يكن أبي يحب لها أن تفعل ذلك، لكنها أصرت. لم تكن أمي امرأة هشة واهنة الصحة. بل كان من عادتها أن تفعل مثل تلك الأشياء.

في الغابة، تسلقتُ شجرة بلوط وأنا أغني أغنية أمي: «لا تقعي في حب بَحَّار، في حب بَحَّار، في حب بَحَّار ...» ظللت أصعد وأصعد. «لا تقعي في حب بَحَّار ...»

فجأة انكسر الغصن الذي وطِئْتُه بقدمي، فأمسكت بآخر، لكنه كان غصنًا ميتًا فانخلع في يدي. هويت وظللت أهوي وكأنما تباطأ الزمن. رأيت أوراق شجر. أدركت أني أسقط.

حين استعدت وعيي، وجدتني مستلقيةً على الأرض ووجهي في التراب. كانت ساقي اليمنى قد التوت تحتي، وحين حاولت أن أتحرك، شعرت بوخز حاد في ساقي كلها. حاولت أن أجرَّ جسدي على الأرض، لكن الوخز امتدَّ إلى دماغي فاكتسى كل شيء بالسواد. كان ثمة ضجيج حاد في رأسي.

لا بدَّ أني غبت عن الوعي مرة أخرى، لأنني لما فتحت عيني بعدها كانت الغابة أكثر إظلامًا والهواء أبرد. سمعت أمي تنادي. كان صوتها بعيدًا وخافتًا، قادمًا من مكان قريب من الحظيرة. أجبتها، لكن صوتي انحشر في صدري.

وجدتني أمي وحملتني عبر الغابة والحقول ونزلت بي التل الطويل إلى المنزل. اتصلت بجديَّ ليأتيا ويقلانا إلى المستشفى. استغرق وضع ساقي في جبيرة وقتًا طويلًا، وحين عدنا إلى البيت كنا جميعًا منهكين. شعر أبي بالذنب لأنه كان بعيدًا، وظل يطمئن علينا باستمرار.

تلك الليلة وُلِد الطفل. سمعت أبي يهاتف الطبيب. قال: «لن تصمد، لقد بدأت الولادة بالفعل.»

مستعينة بعكازَيَّ الجديدين، خطوت بصعوبة إلى آخر الرَّدْهة. كان رأس أمي غائرًا في الوسادة، وكانت تتعرق وتتألم. قالت لأبي: «ثمة خطب ما.» رأتني واقفةً مكاني وقالت: «لا ينبغي أن تشاهدي هذا. لا أحسبني أجيد هذا الأمر.»

في الرواق خارج حجرتها، جلست على الأرض. جاء الطبيب. صرخت أمي صرخةً واحدةً، نواح طويل حزين مفجوع، ثم ساد السكون.

حين خرج الطبيب من الغرفة حاملًا الطفل، طلبت أن أراه. كان يشوب بَشَرتَه شحوبٌ مائلٌ للزرقة، وكانت توجد علامات على عنقه خلَّفها الحبل السري الذي خنقه. قال الطبيب لأبي: «يحتمل أن يكون قد مات منذ ساعات. لا يمكنني أن أجزم.»

سألته: «أكان ولدًا أم بنتًا؟»

أجابني الطبيب هامسًا: «كانت بنتًا.»

سألت إن كان يمكنني أن ألمسها. كانت لا تزال دافئةً لوجودها في جسد أمي. بدت جميلة ومستكينة، ومتكومة على نفسها، أردت أن أحملها لكن الطبيب لم يحبذ ذلك. ظننت أنه ربما إن حملتها فقد تستيقظ.

بدا أبي مضطربًا، لكنه لم يَعُد يعنيه أمر الرضيعة. ظل يدخل الغرفة ويربت على أمي. قال لي: «لا ذنب لكِ يا سال ... لم يحدث ذلك لأنها حملتكِ. إياكِ أن تظني ذلك.»

لم أصدقه. عرجت إلى غرفة أمي واندسست في السرير إلى جوارها. كانت تحملق في السقف.

قالت: «دعيني أحمله.»

«تحملين ماذا؟»

قالت: «الطفل.» كان صوتها غريبًا ذاهلًا.

دخل أبي فطلبَت منه أن يعطيَها الطفل.

انحنى وقال لها: «أتمنى ... أتمنى ...»

قالت: «الطفل.»

قال: «لقد مات.»

قالت: «أريد أن أحمل الطفل.»

كرر: «لقد مات.»

قالت بذلك الصوت الرتيب: «لا يمكن أن يكون ميتًا. كان حيًّا منذ لحظات.»

ظللتُ نائمة بجوارها حتى سمعتها تنادي أبي. حين أشعل ضوء الغرفة، رأيت الدماء تلطخ السرير بأكمله. بللت المُلاءات والبطانية؛ وجص جبيرتي الأبيض.

وصلت سيارة إسعاف وأخذتها هي وأبي. وجاء جدي وجدتي ليمكثا معي. أخذت جدتي جميع الملاءات وغلتها. ودعكت الدماء لتُزيلها عن جبيرتي قدر استطاعتها، لكن ظلت بها بقعة وردية داكنة.

عاد أبي إلى البيت من المستشفى في اليوم التالي، لكنه لم يمكث طويلًا. قال: «ينبغي أن نسميَ الطفلة على أية حال. هل لديكِ أي اقتراحات؟»

خطر لي الاسم من حيث لا أدري. قلت: «تيوليب.»

ابتسم أبي. «ستحبه أمكِ. سندفن الطفلة في المقبرة الصغيرة القريبة من غابة الحور الرجراجي؛ حيث تنمو أزهار التوليب كل ربيع.»

خضعت أمي لجراحتين في اليومين التاليين. ظلت تنزف بلا توقُّف. لاحقًا قالت أمي: «لقد أزالوا جميع أعضائي التناسلية الداخلية.» لن تتمكن من إنجاب المزيد من الأطفال.

في متنزه بادلاندز، جلستُ على حافة أحد الأخوار أنظر خلفي إلى جدتي وجدي والمرأة الحبلى على الدثار. تظاهرت بأن تلك المرأة هي أمي وأنها لا تزال حبلى وأن كل شيء سيسير كما ينبغي. ثم حاولت أن أتخيل أمي جالسة هنا، في طريقها إلى لويستون، أيداهو. هل ترجَّل جميع ركاب الحافلة وتجولوا معها أم جلست وحدها مثلي؟ هل جلست في تلك البقعة، وهل رأت تلك القمة المدببة الوردية؟ هل كانت تفكر فيَّ؟

التقطتُ حجرًا مسطحًا ورميته في الخور حيث ارتطم بالجدار المقابل وسقط مرتدًا عن النتوءات الحادة. حكت لي أمي ذات مرة قصة من قصص قبيلة بلاكفوت، عن نابي، الرجل المسن الذي أوجد الرجال والنساء. كي يقرر نابي إن كان سيمنح أولئك البشر الجدد حياة أبدية أم فانية، اختار حجرًا. وقال: «لو طفا الحجر، فستحظون بحياة أبدية. وإن غاص، فستكونون فانين.» ألقى نابي الحجر في الماء. فغرق. وصار الناس فانين.

سألت: «لمَ استخدم نابي حجرًا؟ لِمَ لَم يستخدم ورقة شجر؟»

هزت أمي كتفَيها. وقالت: «لو كنتِ موجودة معه، لكان بإمكانكِ أن تجعلي الحجر يطفو.» كانت تشير إلى مهارتي في رمي الحجر فيصطدم بسطح الماء ويرتد عنه متحركًا فوقه.

التقطتُ حجرًا ورميته في الخور، فاصطدم مثل سابقه بالجدار المقابل وهوى لأسفل. ليس ذلك بنهر. بل حفرة. فماذا كنتُ أتوقع؟

الفصل الرابع والعشرون

طيور الحزن

أثناء مغادرتنا متنزه بادلاندز، سب جدي سائقًا مرَّ من أمامنا قاطعًا الطريق بغتة. عادةً حين كان جدي يسب مثلما فعل، كانت جدتي تهدده بالعودة إلى مشتري البيض. لا أعرف القصة كاملة، كل ما أعرفه هو أنه ذات مرة، حين لعن جدي عاصفة، هربت جدتي مع الرجل الذي كان يشتري البيض بانتظام من جدي. مكثت جدتي مع مشتري البيض ثلاثة أيام بلياليها حتى ذهب جدي ليأخذها ووعدها أن يكف لسانه عن السباب.

سألتُ جدتي ذات مرة إن كانت ستعود حقًّا إلى مشتري البيض إذا أفرط جدي في التلفظ بالسباب. قالت: «لا تخبري جدكِ، لكني لا أمانع القليل من السباب واللعن. إضافةً إلى ذلك، فشَخير مشتري البيض مرتفع جدًّا.»

«إذن أنتِ لم تتركي جدي بسبب إطلاقه السباب؟»

«سالامنكا، أنا لا أتذكر لمَ فعلتُ ذلك من الأساس. أحيانًا تعرفين في قرارة نفسكِ أنكِ تحبين شخصًا، لكن عقلكِ لا يدرك ذلك إلا بعد أن تبتعدي عنه.»

في تلك الليلة، بِتنا في نُزُل خارج بلدة وول، بولاية ساوث داكوتا. لم يكن لديهم سوى غرفة واحدة شاغرة بها سرير واحد، لكن جدي كان مرهقًا فقال إنها ستفي بالغرض. كان السرير كبير الحجم ذا مرتبة مائية. قال جدي: «يا إلهي، انظرا إلى ذلك.» تماوجت حين ضغط بيده عليها. «يبدو أننا سنُضطر الليلةَ إلى أن نطفوَ فوق ذلك الطوف جميعًا الليلة.»

ألقت جدتي بجسدها على السرير وهي تقهقه. قالت بصوتها المبحوح: «مرحـ، مرحـ.» وتقلبت إلى منتصفه. «مرحـ، مرحـ.» استلقيتُ إلى جوارها، وجلس جدي على الجانب الآخر بحذر. قال: «يا إلهي! أعتقد أن ذلك الشيء حي.» ظللنا ونحن مستلقون نتماوج فيما

كان جدي يتقلب يمينًا ويسارًا. قال: «يا إلهي.» سالت الدموع على وجه جدتي من فرط الضحك.

قال جدي: «ذلك ليس فراش الزوجية ...»

تلك الليلة حلمتُ بأني أطفو أنا وأمي في نهر على طوف. كنا مستلقَيين على ظهرَينا نتطلع إلى السماء العالية. وظلت السماء تدنو منا رويدًا رويدًا. فجأة دوت فرقعة فوجدنا نفسينا قد ارتفعنا إلى السماء. تطلعت أمي حولها وقالت: «لا يمكن أن نكون قد مِتنا. لقد كنا أحياء للتو.»

في الصباح، انطلقنا إلى جبال بلاك هيلز وجبل راشمور، آملين أن نصل بحلول موعد الغداء. ما إن ركبنا السيارة حتى قال جدي: «إذَن ماذا حدث لوالدة بيبي، وهل تلقت أي رسائل أخرى؟»

قالت جدتي: «أتمنى أن تكون الأمور قد انتهت على خير. فأنا قلقة بعض الشيء على بيبي.»

في اليوم التالي لذلك الذي أرت فيه البقع المريبة وخصلات الشعر مجهولة المصدر لأبيها، ظهرت رسالة أخرى تقول: «لا يمكنك منع طيور الحزن من التحليق فوق رأسك، لكن يمكنك منعها من أن تُعشِّش في شعرك.» أحضرت فيبي الرسالة معها إلى المدرسة لتريني إياها. قالت: «المختل مجددًا.»

«لو أنه اختطف أمك بالفعل، فلماذا يستمر في ترك الرسائل؟»

قالت: «الرسائل مفاتيح لحل اللغز.»

في المدرسة، ظل الناس يسألون فيبي عن رحلة العمل التي ذهبت فيها أمها إلى لندن. حاولت أن تتجاهلهم في البداية، لكن ذلك لم يكن ممكنًا دائمًا. كانت تُضطر في بعض الأحيان إلى الإجابة.

حين سألتها ميجان عن المزارات التي زارتها أمها، قالت فيبي: «قصر باكنجهام ...»

أومأت ميجان بما ينم عن علم: «بالطبع.»

أردفت فيبي بصعوبة: «وساعة بيج بن، و... مسقط رأس شكسبير.»

قالت ميجان: «لكن ذلك في بلدة ستراتفورد أبون آفون. حسبت أن أمك في لندن. ستراتفورد تبعد مسافة أميال عن لندن. فهل زارتها في رحلة يوم واحد أو ما شابه؟»

«أجل، ذلك ما فَعَلَته. زارتها في رحلة يوم واحد.» لم يكن لدى فيبي مفر من ذلك. بدت وكأنما تعشش في شعرها عائلة كاملة من طيور الحزن.

في حصة اللغة الإنجليزية، قدَّم بن تقرير الميثولوجيا خاصته. كان متوترًا. شرح أن بروميثيوس سرق النار من الشمس ووهبها للبشر. وأن زيوس زعيم الآلهة غضب على البشر وعلى بروميثيوس لأنهم أخذوا بضعة من شمسه العزيزة. وعقابًا للبشر، أرسل زيوس لهم امرأة تدعى باندورا. ثم سلسل بروميثيوس في صخرة وأرسل له نسورًا تنهش كبده. في خضم توتره، أخطأ في نطق اسم بروميثيوس، فكان ما قاله هو أن زيوس أرسل النسور لتأكل كبد بوربويوز (خنزير البحر).

تلك الليلة، دعتني ماري لو أنا وفيبي لتناول العشاء. حين اتصلت بأبي لأستأذنه، لم يُبدِ ممانعةً، وكنت أعرف بالفعل أنه لن يمانع. لم يزد عن أن قال: «سيكون ذلك أمرًا حسنًا بالنسبة لكِ يا سال. ربما سأذهب للعشاء مع مارجريت.»

الفصل الخامس والعشرون

الكوليسترول

كان تناول العشاء في بيت آل فيني تجربةً مميزة. حين وصلنا، كان أخوا ماري لو يركضان كحيوانين جامحين، ويقفزان فوق الأثاث ويرميان الكرات. وكانت ماجي أخت ماري لو الكبرى تتحدث في الهاتف وتشذب حاجبيها في آن واحد. وكان السيد فيني في المطبخ يطهو شيئًا ما، يعاونه في ذلك تومي ذو الأعوام الأربعة. همست فيبي قائلةً: «لستُ متفائلة كثيرًا بشأن الاحتمالات التي يمكن أن تئول إليها تلك الوجبة.»

حين دخلت السيدة فيني من الباب الساعة السادسة، جذب كل من تومي ودوجي ودينيس أجزاءً مختلفةً منها، وهم يتحدثون جميعًا في آن واحد. «انظري إلى هذا»، «أمي، أمي، أمي»، و«أنا أولًا!» شقت طريقها إلى المطبخ، ساحبة معها الإخوة الثلاثة المتشبثين بها مثل خطاف سنارة، والذين بعثروا كومةً متشابكةً من الإطارات القديمة والأحذية عالية الرقبة وغيرها من المهملات المتفرقة. طبعت على شفتَي السيد فيني قبلة سريعة، ووضع هو في فمها شقفة من الخيار.

أعددت أنا وماري لو المائدة، مع أني أظن أنه كان جهدًا مهدرًا. إذ جلس الجميع إلى المائدة بهمجية وعشوائية، فأسقطوا أكوابًا وتطايرت شوكات على الأرض والتقط كل واحد منهم طبقًا (لفتت فيبي نظري إلى عدم تناسق الأطباق) قائلًا: «هذا طبقي. أريد الطبق الذي عليه نقشة زهرة الأقحوان،» و«أريد الطبق الأزرق! إنه دوري للأكل فيه.»

جلست أنا وفيبي بين ماري لو وبن. توسط المائدة صحن ضخم من الدجاج المقلي. قالت فيبي: «دجاج؟ مقلي؟ لا يمكن أن آكل الأطعمة المقلية. فمعدتي حساسة.» استرقَت النظر إلى ثلاث قطع من الدجاج المقلي استقرت في صحن بن. قالت: «صِدقًا لا ينبغي أن تأكل ذلك يا بن. الأطعمة المقلية مضرة بصحتك. فهي أولًا تحتوي على الكوليسترول ...»

أخذت فيبي قطعتي دجاج من صحن بن وأعادتهما إلى صحن التقديم. تنحنح السيد فيني. وقالت زوجته: «ألن تأكلي الدجاج إذن يا فيبي؟»

ابتسمت فيبي. «نعم يا سيدة فيني. لا يمكن أن آكل منه أبدًا. في الواقع، لا يجدر بالسيد فيني أن يأكل منه أيضًا. لا أدري إن كنتِ تعرفين ذلك لكن ينبغي للرجال أن يراعوا مستوى الكوليسترول لديهم.»

أطرق السيد فيني إلى الدجاج في صحنه. وزمَّت السيدة فيني شفتَيها بغرابة. في تلك اللحظة، كان صحن الفاصولياء قد وصل إلى فيبي. «هل وضعتِ زُبدًا في هذه الفاصولياء يا سيدة فيني؟»

«أجل. هل في الزبد خطب ما؟»

قالت فيبي: ««الكوليسترول». الكو-ليس-ترول. الزبد فيه كوليسترول.»

قالت السيدة فيني: «أجل، الكوليسترول.» نظرت إلى زوجها. «احذر يا عزيزي. الفاصولياء تحوي الكوليسترول.»

حملقتُ في فيبي. أنا واثقة بأني لم أكن الوحيدة التي شعرت برغبة في أن أطبق على عنقها.

أزاح بِن الفاصولياء في طبقه جانبًا. والتقطت ماجي حبة فاصولياء وتفحصتها. حين مُررت إلى فيبي البطاطس، قالت إنها تتبع حمية غذائية تمنعها من تناول النشويات. أطرقنا جميعًا إلى أطباقنا واجمين. كان طبق فيبي خاويًا. قالت السيدة فيني: «ماذا تأكلين إذَن يا فيبي؟»

«تُعِدُّ أمي وجبات نباتية خاصة. قليلة السعرات الحرارية ولا تحتوي أي كوليسترول. نأكل الكثير من السلاطات والخضراوات. أمي طاهية بارعة.»

لم تأتِ على ذكر الكوليسترول الموجود في العدد الكبير من الفطائر وكعك الشوكولاتة التي كانت أمها تخبزها. أردت أن أهب من مكاني وأقول: «لقد اختفت والدة فيبي، ولهذا تتصرف بذلك التعنت»، لكنِّي لم أفعل.

كررت فيبي: «طاهية بارعة بحق.»

قالت السيدة فيني: «رائع. وماذا تقترحين أن تأكلي الليلة؟»

«ألديكِ أي خضراوات غير معالَجة؟»

قالت السيدة فيني: «غير معالَجة؟»

«أي محتفظة بقيمتها الغذائية، غير مضاف لها أي زبد أو إضافات ...»

قالت السيدة فيني: «أعرف ما يعنيه ذلك يا فيبي.»

«يمكن أن آكل خضراوات غير معالجة. أو هل لديك سلاطة فاصولياء حمراء جاهزة، أو ورق كرنب محشو؟ أو طاجن بروكلي وعدس؟ أو معكرونة وجبن؟ أو سباجيتي نباتي؟»

واحدًا تلو الآخر، التفت الجالسون على المائدة إلى فيبي محملقين. نهضت السيدة فيني عن المائدة وذهبت إلى المطبخ. سمعناها تفتح وتُغلق أبواب الخزانات. ثم عادت إلى مدخل المطبخ. وسألت فيبي: «رقائق الموزلي؟ هل تأكلينها؟»

قالت فيبي: «أجل آكل رقائق الموزلي. على الإفطار.»

اختفت السيدة فيني في المطبخ مرة أخرى وعادت حاملة سلطانية من رقائق الموزلي المجففة وزجاجة حليب.

سألتها فيبي: «على العشاء؟» وحملقت في السلطانية. وأضافت: «أنا عادةً آكلها مضافًا إليها الزبادي، لا الحليب.»

التفتت السيدة فيني إلى زوجها. «عزيزي، هل اشتريت الزبادي ذلك الأسبوع؟»

«تبًّا! كيف أنسى الزبادي؟»

أكلت فيبي الموزلي مجففًا دون حليب. طَوال العشاء، ظللت أفكر في بايبانكس، وكيف كان بيت جديٍّ حين نزورهم لتناول العشاء. دائمًا ما كان البيت يعج بالناس — أقرباء وجيران — ويسوده الارتباك. لكنه كان ارتباكًا مفعمًا بالمودة، يشبه ذلك الموجود في بيت آل فيني. سكب تومي كوبين من الحليب، ولكم دينيس دوجي، فرد له دوجي اللكمة. ووجهت ماجي لكمةً إلى ماري لو، فرمتها ماري لو بحبة فاصولياء. أخذت أفكر. ربما كان ذلك ما أرادته أمي. بيت يعج بالأطفال والفوضى.

في طريق عودتنا إلى البيت، قلت: «هل بدا لكِ الجميع غارقين في الصمت على غير العادة بعد العشاء؟»

قالت فيبي: «على الأرجح بسبب كل ذلك الكوليسترول الذي استقرَّ في معدتهم.»

سألتُ فيبي إن كانت تود قضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزلي. لا أعرف يقينًا لمَ فعلتُ ذلك. كان تصرفًا عفويًّا. لم أكن قد دعوت أحدًا إلى منزلي بعد. قالت: «أظن ذلك. هذا إن ظلت أمي ...» وقطعت كلامها بسعال. «لنذهب إلى أبي ونستأذنه.»

في المطبخ، كان أبوها يغسل الصحون. كان يرتدي مريلة مزخرفة فوق قميصه الأبيض ورابطة عنقه. قالت فيبي: «يُفترض أن تشطف الصابون منها. هل تستخدم الماء البارد؟ ينبغي أن تستخدم الماء الساخن جدًّا. لقتل الجراثيم.»

لم يلتفت إلى فيبي. ظننت أنه ربما يكون محرجًا من رؤيتنا له وهو يغسل الصحون.

قالت فيبي: «لقد نال ذلك الصحن كفايته من الغسيل على الأرجح.» كان يمسحه مرارًا وتَكرارًا بمنشفة الصحون. توقف وأطرق ببصره إلى الصحن. كنت وكأني أرى طيور الحزن تنقر رأسه، لكن فيبي كانت مشغولة بإبعاد طيورها الخاصة.

سألته فيبي: «هل اتصلتَ بجميع أصدقاء أمي؟»

قال: «فيبي، أنا أنظر في الأمر. وأنا متعب قليلًا. هلا أجلنا هذا النقاش لوقت لاحق؟»

«لكن ألا تظن أننا يجب أن نتصل بالشرطة؟»

«فيبي ...»

«تريد سال أن تعرف ما إذا كان يمكن أن أقضيَ عطلة نهاية الأسبوع معها في منزلها.»

قال: «بالطبع.»

«لكن ماذا إن عادت أمي وأنا عندها؟ هل ستتصل بي؟ هل ستُعلِمني بعودتها؟»

«بالطبع.»

«أو ماذا إن اتصلت تليفونيًّا؟ ربما ينبغي أن أبقى بالبيت. أظن أني ينبغي أن أكون موجودة إن اتصلَت.»

قال: «لو اتصلت فسأتصل بكِ في بيت سال.»

قالت فيبي: «لكن إن لم تردنا أي أنباء بحلول غد، فعلينا قطعًا أن نبلغ الشرطة. لقد انتظرنا بما فيه الكفاية. ماذا لو كانت مقيدة في مكان ما تنتظرنا أن ننقذها؟»

في البيت في تلك الليلة، كنت أُعد تقرير الميثولوجيا الخاص بي في البيت حين اتصلت بي فيبي. كانت تتحدث همسًا. حين نزلَت للطابق السفلي لتتمنى لأبيها ليلة طيبة، وجدَته جالسًا في مقعده المفضل يحدق في التلفاز، لكن التلفاز كان مطفأً. لولا أنها تعرف أباها جيدًا، لظنت أنه كان يبكي. قالت: «لكن أبي لا يبكي أبدًا.»

الفصل السادس والعشرون

تضحيات

كانت عطلة نهاية الأسبوع طويلة إلى حدٍّ لا يُصدق. صباح يوم السبت جاءت فيبي ومعها حقيبة أمتعتها. قلت: «يا إلهي يا فيبي، هل تنوين قضاء شهر كامل هنا؟» حين أخذتها إلى غرفتي، سألتني إن كانت ستشاركني الغرفة. فقلت: «كلا بالطبع يا فيبي. لقد بنينا جناحًا إضافيًّا جديدًا خصيصى لكِ.»

قالت: «لا داعي للسخرية.»

«كنت أمازحكِ يا فيبي لا أكثر.»

«لكن لا يوجد غير سرير واحد.»

«يا لقوة ملاحظتكِ، يا فيبي.»

«ظننت أنك ربما تنامين على الأريكة في الطابق السفلي. يحاول الناس عادة أن يوفروا سبل الراحة لضيوفهم.» جالت ببصرها في أرجاء الغرفة. «ألا ترين أن الغرفة ليست واسعة بما يكفي لنا؟»

لم أجبها. ولم أهشم رأسها. كنت أعرف السبب وراء تصرفاتها تلك. جلسَت على سريري وارتدَّت عليه بضع مرات. «أظن أني سأُضطر لأن أعتاد مرتبتكِ غير المستوية يا سال. فمرتبتي صُلبة جدًّا. المراتب الصلبة أفضل بكثير للظهر. لهذا ظهري مستقيم. على الأرجح تلك المرتبة هي سبب انحناء ظهركِ.»

قلت: «انحناء ظهري؟»

«أجل، ظهرك منحنٍ يا سال. انظري في المرآة ذات مرة وسترين.» ضغطت بيدها على المرتبة. «ألا تعرفين أيَّ شيء عن الضيافة؟ يُفترض أن تقدمي لضيوفك أفضل ما لديكِ. يفترض أن تقدمي بعض التضحيات يا سال. لطالما كانت أمي تقول ذلك. تقول: «في الحياة، عليك أن تقدمي بعض التضحيات».»

قلت: «أظن أن أمكِ قدمت تضحيةً عظيمةً حين رحلَت.» لم أستطع منع نفسي من قول ذلك. كانت تستفزني بشدة.

«أمي لم ترحل. أمي اختُطفَت. وفي تلك اللحظة هي تقدم تضحية هائلة.» بدأت في إخراج أمتعتها من الحقيبة. «أين سأضع أغراضي؟» حين فتحتُ خزانة الملابس، قالت: «يا لها من فوضى! هل لديكِ شماعات إضافية؟ أم يفترض أن أترك ملابسي مكدسةً في الحقيبة طَوال عطلة الأسبوع؟ يفترض أن يحظى الضيف بالأفضل. هذا ما تقتضيه الكياسة يا سال. تقول أمي ...»

«أعرف، أعرف؛ التضحيات.»

بعد عشر دقائق، ذكرت فيبي أنها تعاني صداعًا. «ربما كان صداعًا نصفيًّا. كانت طبيبة الأقدام التي تعالج خالتي تعاني نوبات صداع نصفي، لكن تبين أنه ليس صداعًا نصفيًّا على الإطلاق. هل تعرفين ماذا كان؟»

قلت: «ماذا كان؟»

«كان ورمًا دماغيًّا.»

قلت: «حقًّا؟»

قالت فيبي: «أجل. في دماغها.»

«بالطبع يا فيبي سيكون في دماغها. فهمت ذلك حين قلت إنه ورم دماغيٌّ.»

«ليس هذا بالأسلوب المتعاطف الذي يجدر بكِ أن تعاملي به شخصًا يعاني صداعًا نصفيًّا أو وربما ورمًا دماغيًّا.»

في كتابي، كان ثمة صورة لشجرة. رسمتُ رأسًا مستديرًا له شعر مجعد، ملفوف حول عنقه حبل مربوط بتلك الشجرة.

استمر الأمر على هذه الحال. هذا اليوم كنت أكرهها. لم يعنِني كم كانت حزينة على أمها، كرهتها بحق، وأردتها أن ترحل. تساءلت إن كان هذا هو شعور أبي تجاهي وأنا في خضم نوبات غضبي الكثيرة. ربما كرهني في فترة ما.

بعد العشاء، تمشينا إلى بيت ماري لو. كان السيد فيني وزوجته يتقلبان على المرج الأمامي في كومة من أوراق الشجر مع تومي ودوجي، وكان بن جالسًا على الشرفة. جلست بجواره فيما ذهبت فيبي للبحث عن ماري لو.

قال بن: «فيبي تدفعكِ للجنون، أليس كذلك؟» أحببت كيف ينظر مباشرةً في عينَي من يحدثه.

قلت: «لأقصى حد.»

«أراهن أنها تشعر بالوحدة.»

لا أعرف ما دهاني، لكني كدت أمدُّ يدي وألمس وجهه. كان قلبي ينبض بصوت مرتفع للغاية حتى إني ظننت أنه سيسمعه. دخلت المنزل. من النافذة الخلفية، راقبت السيدة فيني تتسلق سلمًا مستندًا إلى المرأب. لما صعِدت إلى السطح، خلعت سترتها وفرشتها. بعد بضع دقائق، جاء السيد فيني إلى الجانب الخلفي من المنزل وتسلق السلم. خلع سترته وفرشها بجوارها. ثم استلقى على السطح وأحاطها بذراعه. وقبلها.

استلقيا على السطح في الهواء الطلق يتبادلان القبلات. أثار ذلك لديَّ شعورًا غريبًا. ذكراني بأبي وأمي، قبل الطفلة التي وُلدَت ميتةً، وقبل العملية الجراحية.

دخل بن المطبخ. بينما كان يمد يده في الخِزانة ليأخذ كوبًا، تمهل ونظر إليَّ. عاودتني تلك الرغبة الغريبة في أن ألمس وجهه، ألمس تلك البقعة في وجنته، تلك البقعة الناعمة. خشيت أن ترتفع يدي وتتجه إليه إن لم أنتبه. كان شعورًا غاية في الغرابة.

قالت فيبي حين دخلت: «خمني أين ماري لو. إنها مع «أليكس». في موعد غرامي.»

لم أكن قد ذهبتُ في موعدٍ غرامي من قبل. وافترضت أن فيبي لم تفعل أيضًا.

تلك الليلة في منزلي، أخرجتُ من الخِزانة كيس النوم وفرشته على الأرض. نظرت فيبي إليه وكأنه عنكبوت. قلت: «لا تقلقي، سأنام فيه.» دخلتُ فيه وتظاهرت بالاستغراق في النوم على الفور. سمعت فيبي تستلقي على السرير.

بعد قليل، دخل أبي الغرفة. قال: «فيبي؟ هل ثمة خطب ما؟»

قالت: «كلا.»

«خُيِّل لي أني سمعتُ أحدًا يبكي. هل أنتِ بخير؟»

قالت: «أجل.»

«هل أنتِ واثقة؟»

«أجل.»

حزنت على فيبي. كنت أعرف أنه ينبغي أن أنهض وأحاول أن أتلطَّف معها، لكني تذكرت شعوري وأنا في مثل موقفها، وكنت أعرف أن المرء أحيانًا يود أن يُترك وطيور حزنه. أحيانًا نُضطر لأن نبكي وحدنا.

في تلك الليلة، حلمت أني جالسة على العشب أنظر عبر منظار معظِّم. على مسافة بعيدة، كانت أمي تتسلق سُلمًا. ظلت تتسلق وتتسلق. كان سلمًا طويلًا للغاية. لم يكن بوسعها رؤيتي، ولم تنزل قط. بل ظلت ترتقي.

الفصل السابع والعشرون

صندوق باندورا

في اليوم التالي، بينما كنت أعاون فيبي في حزم حقيبتها للعودة إلى بيتها، قلت: «فيبي، أعرف أنكِ مكروبة جدًّا مؤخرًا ...»

«لم أكن مكروبةً مؤخرًا.»

«أحيانًا يا فيبي، أحبكِ كثيرًا ...»

«مرحى، شكرًا لكِ.»

«... لكن أحيانًا يا فيبي، تنتابني رغبة في أن ألقيَ بجسدك الخالي من الكوليسترول من النافذة.»

لم تسنَح لها الفرصة للرد؛ إذ كنا قد وصلنا إلى منزلها، وكان اهتمامها منصبًّا أكثر على إمطار أبيها بالأسئلة. «هل من جديد؟ هل رجعت أمي؟ هل اتصلت؟»

قال أبوها: «نوعًا ما. لقد اتصلت بالسيدة كادافر ...»

«السيدة كادافر؟ لماذا؟ لماذا تتصل ...»

«اهدئي يا فيبي. لا أعرف لماذا اتصلَت بالسيدة كادافر. لم تسنح الفرصة لأن أتحدث إلى السيدة كادافر حتى الآن. فهي ليست في بيتها. لقد تركَت ملاحظةً هنا.» أراها لفيبي: «نورما اتصلت لتقول إنها بخير.» تحت توقيع السيدة كادافر، كانت توجد ملاحظة تقول إنها ستغيب عن البيت حتى يوم الإثنين.

«لا أصدق أن أمي اتصلت بالسيدة كادافر. السيدة كادافر تختلق ذلك. على الأرجح قتلتها وقطَّعَت جثتها إلى أشلاء. سأتصل بالشرطة.»

دار بينهما جدال محتدم، لكن فيبي هدأت في نهاية المطاف. قال أبوها إنه اتصل بكلِّ من يمكن أن يخطر على ذهنه، ليعرف إن كانت أمها قد قالت ما يشير إلى مكانها.

ووعد بأنه سيستمر في إجراء الاتصالات الهاتفية غدًا، وأنه سيتحدث إلى السيدة كادافر. وإن لم يتلقَّ رسالة أو مكالمة مباشرة من أمها بحلول يوم الأربعاء، فسيتصل بالشرطة.

أثناء مغادرتي، رافقتني فيبي إلى الشرفة. قالت: «لقد اتخذتُ قرارًا. سأتصل بالشرطة. بل ربما أذهب إلى قسم الشرطة. لستُ مضطرةً لأن أنتظر حتى يوم الأربعاء. يمكنني أن أذهب وقتما شئت.»

تلك الليلة اتصلت بي فيبي. تلك المرة أيضًا كانت تتحدث همسًا. «الوضع يبدو هادئًا هنا. لا أعرف ماذا دهاني. كنت مستلقيةً على سريري لكني لا أستطيع النوم. فسريري صُلب جدًّا.»

يوم الإثنين، قدمت فيبي تقريرها الشفهي عن باندورا. بدأته بصوت مرتعش. «لسبب ما، تحدث بِن بالفعل عن موضوع تقريري، باندورا، حين قدم تقريره عن بروميثيوس. غير أنه أخطأ في بعض المعلومات البسيطة عن باندورا.»

التفت الجميع وحدق في بن. قال: «لم أفعل.»

«بلى، فعلت.» كانت شفتاها ترتعشان. «لم تُرسَل باندورا إلى البشر عقابًا، بل أُرسلَت إليهم على سبيل المكافأة ...»

قال بن: «غير صحيح.»

قالت فيبي: «بل هو صحيح. قرر زيوس أن يمنح البشر هِبةً، إذ بدوا وحيدين، لا يؤنس وحدتهم على الأرض سوى الحيوانات. لذا صنع زيوس امرأة حلوة وجميلة، ثم دعا جميع الآلهة للعشاء. كان عشاءً متحضرًا للغاية، استُخدمت فيه صحون متطابقة.»

تبادل ماري لو وبن رسالة بحاجبيهما.

«طلب زيوس من الآلهة أن تقدم للمرأة هدايا؛ كي يجعلوها تشعر بأنها ضيف مرحب به.» رمقتني فيبي بنظرة خاطفة. «فمنحوها هدايا رائعة: وشاحًا أنيقًا، ورداءً فضيًّا، ومنحوها الحُسن ...»

قاطعها بن. «ظننتكِ قلتِ إنها حسناء بالفعل.»

«منحوها مزيدًا من الحُسن. هل أنت راضٍ الآن؟» لم تَعُد شفتاها ترتعشان لكن وجهها كان متوردًا. «وهبتها الآلهة أيضًا القدرة على الغناء، وقوة الإقناع، وتاجًا ذهبيًّا، وزهورًا، ومثلها من الأمور المدهشة حقًّا. كل تلك الهبات جعلت زيوس يختار لها اسم باندورا، والذي يعني «هبة الهبات».»

بدأت فيبي تتحمس. «مُنحَت باندورا هبتين أخريين لم أذكرهما بعد. الأولى هي الفضول. بالمناسبة، لهذا السبب الفضول سمة في جميع النساء، لأنها وهبته إلى أول امرأة.»

قال بن: «ليتها مُنحَت هبة الصمت.»

«وثانيهما صندوق جميل، مكسو بالذهب ومرصع بالجواهر، لكنها مُنعَت من فتحه، وهي نقطة في غاية الأهمية.»

قال بن: «لمَ منحوها إياه إذن؟»

كان من الواضح أن فيبي بدأت تتضايق منه. قالت: «هذا ما أقوله. كان الصندوق هدية.»

«لكن لماذا يمنحونها هدية لا تستطيع فتحها؟»

«لا أعرف. القصة هكذا. كما كنت أقول، لم يكن من المفترض أن تفتح باندورا الصندوق، لكن لأنها مُنحَت قدرًا كبيرًا من الفضول، أرادت بشدة أن تعرف ما بداخله؛ لذا ذات يوم فتحته.»

قال بِن: «كنت أعرف. كنت أعرف أنها ستفتح الصندوق في اللحظة التي ذكرتِ فيها أنها لم يكن ينبغي أن تفتحه.»

«كان الصندوق يحوي جميع الشرور الموجودة في العالم، مثل الكراهية والحسد والأوبئة والمرض والكوليسترول. وكذلك الأورام الدماغية والحزن والمجانين والاختطاف والقتلة» رمقت السيد بيركواي بنظرة خاطفة قبل أن تتابع بسرعة «وكل ما شابه. حاولت باندورا أن تُغلق غطاء الصندوق حين رأت كل تلك الأمور المريعة التي كانت تتدفق منه، لكنها لم تستطع، وهذا سبب وجود كل تلك الشرور في العالم. لم يكن الصندوق يحوي سوى شيء واحد صالح.»

سأل بن: «وما هو؟»

«كما كنت بصدد أن أفسر لتوي، الشيء الوحيد الصالح الذي كان في الصندوق هو الأمل، ولهذا يظل ثمة بارقة أمل رغم الشرور الكثيرة الموجودة في العالم.» رفعت صورة لباندورا وهي تفتح صندوقًا يتدفق منه كم هائل من العفاريت؟ كانت باندورا تبدو خائفة.

في تلك الليلة، لم يبرح صندوق باندورا تفكيري. تساءلت لماذا يضع أحد شيئًا طيبًا مثل الأمل في صندوق مع المرض وحوادث الاختطاف والقتل. مع ذلك، من حسن الحظ أنه

موجود. فلو لم يوجد، لعششت طيور الحزن فوق رءوس الناس أجمعين طَوال الوقت، بسبب الحرب النووية والاحتباس الحراري والقنابل وحوادث الطعن والمختلين.

لا بدَّ أنه كان يوجد صندوق آخر يحوي جميع الأشياء الجميلة، مثل ضوء الشمس والحب والأشجار وكل تلك الأشياء. من سعيد الحظ الذي فتح ذلك الصندوق، وهل كان فيه شيء شرير يختبئ وسط تلك الأشياء الطيبة؟ ربما كان القلق. حتى حين يبدو كل شيء على ما يرام، يساورني القلق من أن شيئًا ما سيسوء ويقلب جميع الموازين.

كنت أنا وأمي وأبي نعيش في عافية وسعادة في بيتنا حتى ماتت الطفلة. هل يصح أن نقول إن الطفلة ماتت وهي لم تتنفس قط؟ هل وُلدَت وماتت في اللحظة نفسها؟ هل يمكن لأحد أن يموت قبل أن يولد؟

لم تبدُ عائلة فيبي على ما يرام، حتى قبل ظهور المختل والرسائل، واختفاء السيدة وينتربوتوم. كنت أعرف أن فيبي مقتنعة بأن أمها اختُطفَت لأنه يستحيل عليها أن تتصور أن أمها يمكن أن ترحل لأي سبب آخر. أردت أن أتصل بفيبي وأقول لها إن أمها ربما تكون قد رحلت بحثًا عن شيء ما، وربما كانت غير سعيدة، وربما ليس بيد فيبي ما تفعله حيال ذلك.

حين قصصت ذلك على جدي وجدتي، قال جدي: «تعنين أن بيبي لا دخل لها في الأمر؟» وتبادلا نظرة فيما بينهما. مع أنهما لم ينطقا بكلمة، كان في نظرتهما تلك ما يوحي بأني قلت شيئًا مهمًّا لتوي. لأول مرة خطر لي أنه ربما لا دخل لي على الإطلاق في رحيل أمي. بل هو شيء منفصل تمامًا لا عَلاقة له بي. لا نستطيع أن نملك أمهاتنا.

في ليلة اليوم الذي قدمت فيه فيبي تقريرها عن باندورا، فكرتُ في الأمل الموجود في صندوقها. مع أن كل شيء كان يبدو حزينًا وبائسًا، ربما يمكن لي أنا وفيبي أن نأمُل في أن يحدث أمر جيد.

الفصل الثامن والعشرون

بلاك هيلز

حين رأينا اللافتة الأولى التي تشير إلى جبال بلاك هيلز، تغيرت الهمسات، فعادت تقول: «هيا، هلُمِّي، هيا.» كنا قد قضينا وقتًا أطول من اللازم في ساوث داكوتا. كان الطريق لا يزال طويلًا ولم يكن أمامنا سوى يومين فقط.

قلت: «ربما ينبغي أن نفوِّت زيارة بلاك هيلز.»

قال جدي: «ماذا؟ نفوت زيارة بلاك هيلز؟ ونفوت زيارة جبل راشمور؟ لا يمكن.»

«لكن اليوم هو الثامن عشر من الشهر. اليوم الخامس.»

سألني جدي: «ألدينا موعد نهائي فات أحدهم أن يخبرني به؟ أمامنا سعة من ...» رمقته جدتي بنظرة. فقال: «لا بدَّ أن أرى جبال بلاك هيلز تلك. لن نطيل الزيارة يا صغيرتي.»

ظلت الهمسات تلح عليَّ: «هيا، هيا، هيا.» كنت أعرف أننا لن نصل إلى أيداهو في الوقت المحدد. فكرت في أن أنسلَّ فيما يتطلع جدتي وجدي إلى جبال بلاك هيلز. وربما أتمكن من الركوب مع شخص يقود بسرعة، لكن حين تأملت فكرة القيادة بسرعة، والانحراف عند المنحنيات — بخاصة المنحنيات المتعرجة المؤدية إلى لويستون، أيداهو، التي سمعت كثيرًا عنها — أصابني الدُّوار والغثيان.

قال جدي: «تبًّا، حري بي أن أسلمكِ عجلة القيادة يا صغيرتي. فتلك القيادة الطويلة تُذهِب عقلي.»

كان يمزح، لكنه كان يعلم أني أستطيع القيادة. فقد علمني قيادة شاحنته القديمة وأنا في الحادية عشرة. كنا نتجول بها على الطرق غير الممهدة في مزرعتهما. كنت أقود أنا بينما يدخن هو غليونه ويحكي لي قصصًا. كان يقول: «أنتِ سائقة بارعة يا صغيرتي، لكن لا تخبري أمك أني علمتكِ. ستقتلني إن عرفت.»

كنت أحب قيادة الشاحنة الخضراء القديمة. وكنت أحلم بأن أبلغ السادسة عشرة وأحصل على رخصة قيادة، لكن حين رحلت أمي، تغير فيَّ شيء ما. صرت أخاف من أشياء لم أخف منها قط من قبل، وكانت القيادة أحد تلك الأشياء. صرت أخشى مجرد ركوب السيارات، فما بالك بقيادة الشاحنة!

لم تكن تلال بلاك هيلز سوداء في الواقع كما يوحي اسمها بالإنجليزية. كانت أشجار الصنوبر تغطي التلال، وربما تبدو سوداء وقت الغسق، لكن حين نظرنا إليها في الظهيرة، كان لونها أخضر داكن. كان منظر تلك التلال الداكنة الممتدة مهيبًا. هبت رياح باردة تخللت الأشجار، فتحركت موشية بأسرار فيما بينها.

لطالما ودت أمي رؤية تلال بلاك هيلز. كان أحد أكثر المزارات التي كانت متشوقة لزيارتها في رحلتها. كانت تحكي لي عن تلال بلاك هيلز، التي كان هنود السيو يعتبرونها مقدسة. كانت أرضهم المقدسة، لكن المستوطنين البيض استولَوا عليها. لا يزال شعب السيو يجاهد لاستعادة أرضه. توقعت أن يستوقفنا أحد أفراد شعب السيو ويمنعنا من الدخول، وإن حدث فأقف في صفه. وأقول له: «خذ الأرض، فهي ملكك.»

سرنا بالسيارة عبر تلال بلاك هيلز حتى جبل راشمور. في البداية، ظننا أننا أخطأنا الطريق، لكنه ما لبث أن ظهر أمامنا فجأة. هناك، عاليًا على واجهة جرف، كانت وجوه الرؤساء واشنطن وجيفرسون ولنكولن، وتيدي روزفلت، منحوتة في الصخر بطول ستين قدمًا، تحدق بنا بملامح جِديَّة من عَلٍ.

لم أمانع رؤية وجوه الرؤساء، فأنا لا أكنُّ لهم أي ضغينة، لكن رؤيتهم تجعلك تعتقد أن شعب السو قد أحزنته كثيرًا رؤية تلك الوجوه البيضاء محفورة في تَلِّهم المقدس. أراهن على أن ذلك ضايق أمي. تساءلت لماذا لم يُضِف إليهم مَن نحتَهم أيًّا كان وجوهَ بعض الهنود.

بدت خيبة الأمل على جدي وجدتي أيضًا. لم ترد جدتي النزول من السيارة حتى، لذا لم نُطِل المكوث. قال جدي: «لقد اكتفيت من ساوث داكوتا، ماذا عنكِ يا صغيرتي؟ وأنتِ يا عزيزتي؟ لنمضِ في طريقنا.»

بحلول نهاية النهار، كنا قد دخلنا ولاية وايومينج، وحسبت الأميال المتبقية. ربما سننجح في الوصول في الموعد، ربما. قال جدي: «آمل ألا تمانعا التوقف في متنزه يلوستون. سيكون تفويت زيارته خطيئة.»

قالت جدتي: «أهو المتنزه الذي به فوارة أولد فيثفول الحارة. أود أن أراها.» ثم التفتت إليَّ. «سنسرع. أراهن أننا سنكون في أيداهو بحلول العشرين من الشهر دون أي عقبة.»

الفصل التاسع والعشرون

الموج يرتفع

سألت جدتي: «هل اتصلت والدة بيبي؟ هل عادت إلى بيتها؟ هل اتصلت بيبي بالشرطة؟ آمُل ألَّا تكون تلك قصة حزينة.»

بالفعل قصدت فيبي الشرطة. كان ذلك في اليوم الذي قرأ علينا فيه السيد بيركواي قصيدة تحكي عن الموج وعن مسافر؛ قصيدة أثارت انزعاجي أنا وفيبي، وأظن أنها كانت الشيء الذي أقنعها أخيرًا بضرورة إبلاغها الشرطة باختفاء أمها.

قرأ السيد بيركواي قصيدة للشاعر لونجفيلو تدعى «الموج يرتفع وينحسر» كان أسلوبه وهو يُلقيها يجعلك تتخيل أنك تسمع حركة ارتفاع الموج وانحساره. في القصيدة، يحث مسافر الخُطى نحو بلدة، بينما يزداد الظلام حلكة، وينابيه البحر. ثم تمحو الأمواج «بأياديها البيضاء الناعمة» آثار أقدام المسافر. وفي الصباح التالي:

يطلع الصبح لكن المسافر
أبدًا لا يعود إلى البر،
ولا يزال الموج يرتفع وينحسر.

سألَنا السيد بيركواي عن رأينا في تلك القصيدة. قالت ميجان إنها ترى أن لها وقعًا هادئًا لطيفًا، حتى إنها جعلتها تشعر بالنعاس.

قلت: «لطيفًا؟ إنها مرعبة.» كان صوتي يختلج. «إنها تحكي عن شخص يسير على الشاطئ وظلام الليل يزداد حُلكةً، ويظل يلتفت خلفه ليرى إن كان أحد يتبعه، وفجأة تأتي موجة وتسحبه إلى البحر.»

قالت فيبي: «جريمة قتل.»

واصلت حديثي باندفاع وكأني الخبيرة صاحبة القصيدة. «تجذب الأمواج المسافر بأيديها البيضاء الناعمة. تغرقه الأمواج. تقتله. ويختفي.»

قال بن: «ربما لم يغرق. ربما مات مثلما يموت الناس عادةً.»

قالت فيبي: «بل قطعًا غرق.»

قلت: «الموت ليس أمرًا عاديًّا. ليس أمرًا عاديًّا. الموت شيء مريع.»

قالت ميجان: «ماذا عن الجنة؟ والرب؟»

قالت ماري لو: «الرب؟ هل تذكره تلك القصيدة؟»

قال بن: «ربما يمكن للموت أن يكون عاديًّا ومريعًا في آنٍ واحد.»

حين دق الجرس معلنًا انتهاء الحصة، هُرعتُ خارجةً من الفصل. جذبتني فيبي. قالت: «هيا.» أخرجَت من خزانتها الدليل الذي أحضرته معها من البيت، وركضنا نجتاز ستة مربعات سكنية إلى مركز الشرطة. لا أعلم يقينًا السبب الذي دفعني إلى مرافقة فيبي. لعل السبب كان القصيدة التي تحكي عن المسافر، أو ربما كان السبب هو أنني بدأت أصدق وجود المختل، أو ربما لأن فيبي اتخذت خطوة ما، وقد استحسنتُ ذلك منها. لكم تمنيتُ أن أتخذ خطوة ما حين رحلت أمي. لم أكن أعرف ماذا بوسعي أن أفعل بالتحديد، لكني تمنيت لو أني فعلت شيئًا ما.

وقفت أنا وفيبي خارج المركز لخمس دقائق، نحاول التقاط أنفاسنا، ثم دخلنا وقصدنا مكتب الاستقبال. على الجانب الآخر من المكتب كان يجلس رجل نحيل له أذنان كبيرتان ويدون شيئًا في دفتر أسود.

قالت فيبي: «من فضلك.»

قال: «سوف أوافيكِ حالًا.»

ردت فيبي: «الأمر طارئ لا يتحمل الانتظار. أحتاج أن أتحدث إلى شخص بشأن جريمة قتل.»

رفع بصره إليها بسرعة. «جريمة قتل؟»

قالت فيبي: «أجل. أو ربما اختطاف. لكن جريمة الاختطاف يحتمل أن تتحول إلى جريمة قتل.»

«هل هذه مزحة؟»

قالت فيبي: «كلا، ليست مزحة.»

«لحظة من فضلك.» همس في أذن امرأة ممتلئة ترتدي زيًّا رسميًّا أزرق داكنًا. كانت تضع نظارة ذات عدستين سميكتين. سألتنا: «هل هذه قصة قرأتماها في كتاب ما؟»

قلت: «كلا، ليست كذلك.» أظن أن وقوفي في صف فيبي كان نقطة فارقة. لم تعجبني الطريقة التي نظرت بها المرأة إلينا؛ وكأننا خرقاوان. أردت أن تفهم المرأة سبب حنق فيبي. أردتها أن تصدق فيبي.

قالت المرأة: «هل تسمحان بأن أسألكما من الذي تعرض للاختطاف ويحتمل أنه قُتِل؟»

قالت فيبي: «أمي.»

«آه، أمكِ. تعاليا إذن.» قالتها بصوتٍ عذب مترفق، وكأنما تخاطب طفلتين. تبعناها إلى غرفة بها حواجز زجاجية. خلف المكتب، كان يجلس رجل ضخم كبير الرأس وعريض المنكبَين. كان شعره أحمر قانيًا، ويكسو النمش وجهه. لم يبتسم حين دخلنا. بعد أن أعادت المرأة على مسامعه ما أخبرناها به، حدَّق فينا طويلًا.

كان اسمه الرقيب بيكل، وحكت له فيبي القصة كاملة. حكت له عن اختفاء أمها، وعن الملاحظة التي تركتها السيدة كادافر، وعن زوج السيدة كادافر المفقود، وعن شجيرة الورد، وأخيرًا عن المختل والرسائل الغامضة. هنا سأل الرقيب بيكل: «رسائل من أي نوع؟»

كانت فيبي مستعدة. أخرجت الرسائل من حقيبة كتبها ووضعتها على مكتبه بترتيب ورودها. قرأ كل منها بصوت مسموع:

«لا تحكم على أحد قبل أن تسير في دربه مسيرة قمرين.»

«لكلٍّ أجندته الخاصة.»

«على مدى عمر كامل، هل سيكون للأمر أهمية؟»

«لا يمكنك منع طيور الحزن من التحليق فوق رأسك، لكن يمكنك منعها من التعشيش في شعرك.»

رفع الرقيب بيكل بصره إلى السيدة الجالسة بجوارنا، وارتعش جانبي فمه. سأل فيبي: «وفي ظنك، ما عَلاقةُ تلك الرسائل باختفاء والدتك؟»

قالت: «لا أعرف. هذا ما أريدكم أن تكتشفوه.»

طلب الرقيب بيكل من فيبي أن تتهجَّى اسم السيدة كادافر. قالت فيبي: «هو يعني جيفة في اللغة الإنجليزية. أو جثة.»

«أعرف. أهذا كل شيء؟»

أخرجت فيبي الظرف الذي يحوي الشعيرات المجهولة. قالت مقترحة: «ربما يمكنكم أن تحللوا تلك.»

نظر الرقيب بيكل إلى المرأة، ومجددًا ارتعش جانبا فمه قليلًا. خلعت المرأة نظارتها ومسحت عدستيها.

كانا يستخفَّان بنا، فأيقظ ذلك العناد الكامن في نفسي. أخبرتهما بأمر بقع الدماء المحتملة التي علَّمَتها فيبي بشريط لاصق.

قالت فيبي: «لكن أبي أزال الشريط.»

قال الرقيب بيكل: «هلا عذرتماني لبضع دقائق؟» طلب من المرأة أن تبقى معنا وغادر الغرفة.

سألت المرأة فيبي عن المدرسة وعن أسرتها. كانت أسئلتها كثيرة جدًّا. ظللت أتساءل إلى أين ذهب الرقيب بيكل ومتى سيعود. غاب ما يزيد على الساعة. كان على مكتبه ثلاث صور في إطارات، حاولت أن أنحنيَ للأمام لأرى الصور، لكني لم أستطع. خفت أن تظن المرأة أني متطفلة.

أخيرًا، عاد الرقيب بيكل. كان خلفه والد فيبي. بدا على فيبي ارتياح غامر، لكني علمت أن وجود أبيها هنا لم يكن مصادفة.

قال الرقيب بيكل: «آنسة وينتربوتوم، سوف يصحبك أبوك أنت وصديقتك إلى البيت الآن.»

قالت فيبي: «لكن ...»

«سنبقى على تواصل معك يا سيد وينتربوتوم. وإذا أردت مني أن أتحدث إلى السيدة كادافر ...»

قال السيد وينتربوتوم: «أوه، كلا.» بدا عليه الإحراج. وأردف: «لا داعي لذلك حقًّا. أنا حقًّا أعتذر ...»

تبعنا السيد وينتربوتوم إلى الخارج. في السيارة لم ينطق بكلمة. ظننت أنه قد يوصلني إلى بيتي لكنه لم يفعل. حين وصلنا إلى منزلهم، لم يزد على أن قال: «فيبي، سأذهب للتحدث مع السيدة كادافر. انتظري هنا أنتِ وسال.»

لم يكن لدى السيدة كادافر أي معلومات إضافية عن مكالمة والدة فيبي. كل ما قالته السيدة وينتربوتوم هو أنها ستتصل بهم قريبًا.

سألت فيبي: «أهذا كل شيء؟»

«سألت أمكِ السيدة كادافر أيضًا عن حالكِ أنتِ وبرودنس. وأخبرتها أنكما بخير.»

قالت فيبي: «لكني «لست» بخير. وما أدراها هي على أي حال؟ كما أنها تختلق الأمر كله. ينبغي أن تدع الشرطة تستجوبها. ينبغي أن تسألها عن شجيرة الورد. وينبغي أن تكتشف هُوية المختل. لقد استأجرته السيدة كادافر على الأرجح. ينبغي ...»

«فيبي، خيالكِ جامح.»

«ليس كذلك. أمي تحبني، ولن تتركني هكذا دون أي تفسير.»

في تلك اللحظة، بدأ أبوها في البكاء.

الفصل الثلاثون

اقتحام

قال جدي: «يا للهول! كم هي كثيرة طيور الحزن التي كانت تحوم فوق أسرة بيبي.»

سألتني جدتي: «لقد أحببتِ بيبي، أليس كذلك يا سالامنكا؟»

بالفعل كنت أحب فيبي. رغم جميع حكاياتها الجامحة وهوسها بالكوليسترول وتعليقاتها المزعجة، كان فيها شيء يشبه المغناطيس. كان يجذبني إليها. كنت واثقةً بأن وراء تلك التصرفات الغريبة يستتر شخص خائف. وعلى نحو غريب، كانت كنسخة أخرى مني؛ كانت تصرفاتها تعكس شعوري في بعض الأحيان.

لا أظن أن فيبي كانت تنوي فعلًا اقتحام منزل السيدة كادافر، لكن بينما كانت تأوي إلى فراشها، رأت السيدة كادافر تركب سيارتها مرتدية زي التمريض وتغادر. انتظرت فيبي حتى نام أبوها، ثم اتصلت بي. قالت: «يجب أن تأتيَ. الأمر طارئ.»

«لكن الوقت متأخر يا فيبي. لقد حل الظلام.»

«الأمر طارئ يا سال.»

كانت فيبي تنتظر أمام منزل السيدة كادافر. كانت أضواء منزل السيدة كادافر مطفأة. قالت فيبي: «هيا»، ودلفَت إلى ممر البيت. أقر بأني ترددت. قالت: «أريد إلقاء نظرة سريعة لا أكثر.» تسللَت إلى الشرفة ووقفَت عند الباب. أصغت، ثم طرقَت الباب مرتين، وأدارت مقبضه. لم يكن الباب موصدًا.

لا أظن أن فيبي كانت تنوي الدخول، لكنها فعلت، وتبعتُها. وقفنا في الرَّدهة المظلمة. في الغرفة على يميننا، تسلل شعاع ضوء من خلال النافذة مصدره عمود إنارة. دخلنا تلك الغرفة. كدنا نقفز من النافذة حين سمعنا من يقول: «سال؟» بدأت أتراجع نحو الباب.

قالت فيبي: «إنه شبح.»

قال الصوت: «تعالَي إلى هنا.»

لما اعتادت عيني الضوء الواهن، تبينت شخصًا يجلس متكوِّمًا على كرسي في الزاوية المقابلة. غمرتني الراحة حين رأيت العكاز. «سيدة بارتريدج؟»

قالت: «تعالَي. من معكِ؟ أهي فيبي؟»

قالت فيبي: «أجل.» كان صوتها مرتفعًا مرتعشًا.

قالت السيدة بارتريدج: «لقد كنت جالسةً هنا أقرأ.»

سألت وأنا أرتطم بطاولة: «ألا تجدين الظلام دامسًا هنا؟»

ضحكت السيدة بارتريدج ضحكتها المشاكسة. «الظلام دامس هنا دومًا. لا حاجة لي إلى الأضواء، لكن أنيري شيئًا منها إن أردتِ.»

فيما كنت أتحسس طريقي باحثةً عن مصباح، وقفت فيبي متسمرةً قرب الباب. قلت: «هاكِ. هذا أفضل بكثير.» كانت السيدة بارتريدج تجلس في كرسي كبير منتفخ بحشوته إلى حدٍّ مبالغ فيه. كانت ترتدي بُرنُس حمام بنفسجيًّا وخفَّين ورديَّين في مقدمتهما أذنا أرنب. وكان في حجرها كتاب استقرت أناملها على إحدى صفحاته. سألت وأنا أشير إلى فيبي بالدخول إلى الغرفة: «أهو مكتوب بطريقة بريل؟» كنت أخشى أن تهرب وتتركني.

ناولتني السيدة بارتريدج الكتاب، ومررت أناملي على رموزه البارزة. سألتها: «كيف عرفتِنا؟»

قالت: «عرفت فحسب. حذاؤكِ له صوت مميز، وأنتِ رائحتكِ مميزة.»

«ما عنوان الكتاب؟ ما موضوعه؟»

قالت السيدة بارتريدج: «اسمه «جريمة قتل في منتصف الليل». إنها رواية غموض.»

ازدردت فيبي لُعابها وجالت بعينيها في أرجاء الغرفة.

كل مرة أدخل فيها ذلك البيت، ألاحظ أشياء جديدة. كان مكانًا مخيفًا. كانت الجدران مكسوَّةً بأرففٍ مكدسة بكتب عتيقة بالية. وكانت الأرضية مفروشةً بثلاثة سجاجيد تزينها نقشات لحيوانات برية في الغابة. وكان يوجد كرسيان مزينان بنقشات مروعة مشابهة. وكانت أريكة مفروشة بفراء دب.

على الجدار خلف الأريكة، عُلِّق قناعان أفريقيان متجهمان للغاية. كان فماهما مفغورين، كأنما يصرخان. أينما نظرت وقع بصرك على شيء مفزع؛ سنجاب محنط أو طائرة ورقية على شكل تنين، أو تمثال خشبي لبقرة يخترق رمح جانبي جسدها.

قالت فيبي: «يا إلهي، يا لها من ... من ... أشياء فريدة كثيرة.» جثت على ركبتيها لتتفحص بقعة على الأرضية.

قالت السيدة بارتريدج: «ما الخطب؟»

هبت فيبي واقفة. «لا شيء. لا شيء على الإطلاق.»

سألت السيدة بارتريدج: «هل سقط مني شيء على الأرض؟»

ردت فيبي: «كلا، لا يوجد على الأرض أي شيء.» كان سيف هائل يستند إلى خلفية الأريكة. تفحَّصت فيبي نصله.

قالت السيدة بارتريدج: «احترسي وإلَّا جُرحتِ.»

تراجعت فيبي. حتى أنا قلقت من ذلك، من قدرة السيدة بارتريدج على رؤية ما تفعله فيبي مع أنها كفيفة.

قالت السيدة بارتريدج: «أليست غرفة مهيبة؟ مهيبة وأظنها غريبة بعض الشيء.»

تراجعنا نحو الباب: «يجب أن نذهب أنا وفيبي ...»

حين وصلنا إلى الباب، قالت السيدة بارتريدج: «بالمناسبة، ماذا كنتما تريدان؟»

تبادلت أنا وفيبي النظرات. وقلت: «لقد كنَّا مارتين فحسب، فخطر لنا أن نسألكِ عن حالكِ.»

قالت السيدة بارتريدج وهي تربت على ركبتيها: «لطيف. صحيح يا فيبي، أظن أنني قابلت أخيكِ.»

قالت فيبي: «ليس لي أخ.»

قالت السيدة بارتريدج وهي تشير إلى رأسها: «حقًّا؟ أظن أن عقلي العجوز لم يَعُد كما كان.» ونحن نغادر قالت لنا: «يا إلهي، إنكما تتأخران في النوم أيتها الفتاتان.»

في الخارج، قالت فيبي: «سأضع قائمة بالأغراض التي تحتاج الشرطة لفحصها بمزيد من الدقة: السيف والبقعة المريبة على الأرضية، والشعيرات التي التقطتها.»

«فيبي، أتذكرين حين قلت إن أمكِ لا يمكن أن ترحل دون تفسير؟ هذا ممكن. يمكن لشخص أن يُقْدِم على ذلك، ولو كان أمًّا.»

قالت فيبي: «لن تفعله أمي «أنا». أمي «أنا» تحبني.»

«لكنها قد تعجز عن تقديم تفسير حتى لو كانت تحبك.» كنت أفكر في الرسالة التي تركتها لي أمي. «ربما سيكون التفسير مؤلمًا لها. ربما سيجعل الأمر يبدو نهائيًّا لا رجعة فيه.»

«لا أفهم على الإطلاق ما تقولينه.»

«أعني أنها قد لا تعود يا فيبي ...»

«اصمتي يا سال.»

«قد لا تعود. أظن أنكِ ينبغي أن تكوني مستعدة ...»

«ستعود حتمًا. أنت لا تدرين ما تقولينه. قولك هذا بغيض.» هُرعت فيبي إلى داخل منزلها.

حين عدت إلى البيت وتسللت إلى حجرتي، تذكرت أن فيبي أرتني أغراضًا في حجرتها تذكرها بأمها؛ بطاقة تهنئة بعيد الميلاد صنعتها بيدها، وصورة فوتوغرافية لها مع أمها، وصابونة بعطر اللافندر. وحين أخرجت فيبي قميصًا من الخزانة، قالت إنها تكاد ترى أمها وهي واقفة أمام طاولة المكواة تسوي بيدها طياته. كان الجدار المقابل لسرير فيبي مطليًّا باللون البنفسجي. قالت: «لقد طلته أمي الصيف الماضي بينما طليت أنا الإطار السفلي.»

وكنت أفهم بالضبط ما كانت فيبي تفعله ولماذا. فقد فعلت مثلها حين رحلت أمي. كان أبي محقًّا: كان شبح أمي يسكن منزلنا في بايبانكس وكذلك الحقول والحظيرة. كانت في كل مكان. لم يكن بصري يقع على شيء إلا وكان يُذكِّرني بها.

حين انتقلنا إلى يوكليد، كان من بين أول الأشياء التي فعلتها هو أنني أخرجت هدايا أهدتني أمي إياها. على الجدار، علقت ملصقًا لصورة الدجاجة الحمراء التي أهدتنيه أمي في عيد مولدي الخامس، ورسمة الحظيرة التي أهدتنيها في عيد مولدي الأخير. وعلى مكتبي وضعت صورًا لها وبطاقات وصلتني منها. وعلى رف المكتبة كانت الكتب وتماثيل الحيوانات الخشبية هدايا منها.

كنت أحيانًا أجوب الغرفة وأنظر إلى كل واحد من تلك الأغراض وأحاول أن أتذكر اليوم الذي أهدتنيه أمي فيه بالتحديد. حاولت أن أسترجع كيف كان الطقس يومها وفي أي الغرف كنا، وماذا كانت ترتدي وما قالته نصًّا. لم تكن لعبة أتسلى بها. بل ضرورة حتمية، أمر لا غنى عنه. لولا امتلاكي تلك الأغراض، واسترجاعي تلك المناسبات، لربما تلاشت ذكراها للأبد. لربما نسيتها كأن لم تكن.

في وحدة أدراجي، كانت توجد ثلاثة أغراض أخذتها من خزانتها بعد أن رحلت: وشاح وسترة زرقاء وفستان قطني منقوش بورود صفراء لطالما كان هو المفضل لديَّ. كانت تلك الأغراض تحمل رائحتها.

ذات مرة، قبل رحيلها، قالت لي أمي إني إن تصورت حدوث شيء في خيالي، فبوسعي أن أحوله إلى حقيقة. فمثلًا، إن كنت على وشك خوض سباق عَدْو، فعليَّ أن أتخيَّل نفسي وأنا أخوض السباق وأكون أول الواصلين إلى خط النهاية. ولما يحين الوقت، فسيتحقق

ذلك. الشيء الوحيد الذي استعصى عليَّ فهمُه هو ماذا سيحدث لو تخيل كل من يخوض السباق أنه سيكون الرابح.

مع ذلك، حين رحلت، كان ذلك ما فعلته. تخيلتها تمدُّ يدها إلى الهاتف. ثم تخيلتها تُجري المكالمة. تخيلت صوت رقم هاتفنا وهو ينتقل عبر الأسلاك. تخيلت هاتفنا يرن.

لم يرن.

تخيلتها تستقل الحافلة العائدة إلى بايبانكس. تخيلتها تسير في ممر السيارات. تخيلتها تفتح الباب.

لم يحدث ذلك.

فيما كان كل ذلك يدور في ذهني في تلك الليلة التي تسللنا فيها أنا وفيبي إلى داخل منزل السيدة كادافر، فكرت أيضًا في بن. اجتاحتني رغبة مفاجئة في أن أركض إلى منزل آل فيني وأسأله أين أمه، لكن الوقت كان متأخرًا جدًّا. سيكون آل فيني نائمين.

عوضًا عن ذلك، استلقيت مكاني أفكر في القصيدة التي تحكي عن المسافر، وتخيلت الأمواج وهي ترتفع وتنحسر، وأياديها البيضاء المريعة وهي تختطف المسافر. كيف يمكن أن يكون موت المسافر أمرًا عاديًّا؟ وكيف يمكن أن يكون عاديًّا ومريعًا في آنٍ واحد؟

تلك الليلة لم أنم. كنت أعرف أني لو أغمضت عيني، فسأرى الأمواج وأياديها البيضاء. فكرت في بكاء السيد وينتربوتوم. كان ذلك أكثر ما أحزنني. أكثر حتى من رؤية أبي يبكي، فأبي من النوع الذي تتوقَّع بكاءه لو ألمَّ به حزن شديد. لكني لم أتوقع قَط من السيد وينتربوتوم — السيد وينتربوتوم الجامد المشاعر — أن يبكي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أُدرِك فيها أنه بالفعل يهتم لأمر زوجته.

ما إن طلع النهار، حتى اتصلت بفيبي. «فيبي، يجب أن نجدها.»

قالت: «هذا ما أحاول إخبارِكِ به.»

الفصل الحادي والثلاثون

الصورة الفوتوغرافية

كان اليوم التالي شديد الغرابة، كما كانت السيدة بارتريدج ستقول.

وصلت فيبي إلى المدرسة حاملةً رسالةً جديدة، وجدَتها على شرفتها ذلك الصباح: «لا يدرك المرء أهمية الماء إلا حين تجف البئر.» قالت فيبي: «إنه دليل. ربما أمي مخبأة في بئر.»

اصطدمت ببن وأنا ذاهبة لخزانتي. كان عطر الليمون الهندي المميز يفوح في الهواء. قال: «ثمة شيء على وجهك.» مسح جانب وجهي بأنامله الناعمة الدافئة. «بقايا إفطارك على الأرجح.»

لا أعرف ماذا دهاني. كنت أنوي تقبيله. ملت للأمام في اللحظة التي استدار فيها وصفد باب خزانته. استقرت شفتاي على الخزانة المعدِنية الباردة.

قال: «أنتِ غريبة الأطوار يا سال.»

تبادل قبلة أمر معقد للغاية. إذ يلزم وجود شخصين في المكان نفسه واللحظة نفسها، وألا يتحركا كي تستقر القبلة في مكانها الصحيح. لكني شعرت بالراحة لأن شفتيَّ استقرتا على الخزانة المعدنية الباردة. لا أعرف ما دهاني، ولا أتصور ما كان سيحدث لو استقرت القبلة على شفتي بن. كان مجرد التفكير في ذلك يثير هلعي.

استطعت أن أجتاز باقي الحصص دون أن أفقد سيطرتي على شفتيَّ.

دلف السيد بيركواي إلى الفصل حاملًا دفاتر يومياتنا. كنت قد نسيت أمرها تمامًا. كان يقفز في أرجاء الفصل وهو يهتف: «رائع! مدهش! مذهل!» قال إنه لا يُطيق الانتظار حتى يشارك اليوميات مع الفصل.

قالت ماري لو فيني: «تشاركها مع الفصل؟»

قال السيد بيركواي: «لا داعي للقلق! فكل منكم كتب شيئًا بديعًا يستحق المشاركة. لم أنتهِ من قراءة الصفحات كلها بعد، لكني أردت أن أشارككم بعض الفقرات الآن.»

بدأ جميع من بالفصل يتململ. حاولت أن أتذكر ما كتبته. مالت ماري لو ناحيتي وقالت: «لستُ قلقةً. لقد كتبتُ ملاحظةً خاصةً في مقدمة دفاتري أطلبُ منه بصفة خاصة ألَّا يقرأها علانية. دفتري خاص.»

ابتسم السيد بيركواي للوجوه القلقة. قال: «لا داعي للقلق. سأغير أي أسماء ذكرتموها، وسألف غلاف أي دفتر أقرؤه بتلك الورقة الصفراء لإخفاء هوية صاحبه.»

استأذن بن للذهاب إلى الحمام. وقالت كريستي إنها تشعر بالغثيان وتوسلت للذهاب لزيارة الممرضة. وطلبت فيبي مني أن أتحسس جبينها لأنها كانت شبه متأكدة من أن لديها حمى. عادةً لا يمانع السيد بيركواي في ذَهاب الناس إلى الحمام أو إلى الممرضة، لكن تلك المرة قال: «دعونا لا نتمارض!» التقط دفترًا، ولفه بالورقة الصفراء قبل أن يتسنى لأحد أن يتفحص غِلافه بحثًا عما يدل على هوية صاحبه. التقط الجميع نفسًا عميقًا. كان بإمكانك أن ترى الناس مترقبين بتوتر، ينتظرون بقلق كأنما سيعلن السيد بيركواي خبر إعدام شخص ما. قرأ السيد بيركواي:

> «أعتقد أن مصير بيتي [من الواضح أنه غيَّر الاسم إذ ليس في مدرستنا فتاة تدعى بيتي] سيكون جهنم لأنها دومًا تنطق باسم الرب الإله باطلًا. فهي تقول: «يا إلهي!» كل خمس ثوانٍ.»

بدأ وجه ماري لو يحتقن غضبًا. قالت: «من كتب ذلك؟ هل أنتِ من كتبتِه يا كريستي؟ أراهن على أنكِ من فعلتِ.»

أطرقت كريستي ناظرةً إلى مكتبها.

«أنا لا أقول «يا إلهي!» كل خمس ثوانٍ. لا أفعل ذلك. ولن يكون مصيري الجحيم. لقد صرت أقول «قدير!» و«ألفا، أوميجا».»

حاول السيد بيركواي جاهدًا أن يشرح ما أعجبه في تلك الفِقرة. قال إن أغلبنا لا يعي أنه ربما يستخدم كلمات — مثل «يا إلهي!» — قد يعتبرها الآخرون مهينة. مالت ماري لو ناحيتي وقالت: «هل هو جاد؟ هل يصدق فعلًا أن قولي «يا إلهي!» وهو ما لم أَعُد أفعله، يُشعِر تلك الحمقاء كريستي بالإهانة حقًّا؟»

ارتسم على وجه كريستي الوَرَع وكأنما هبط الرب بذاته من السماء ليجلس على مقعدها.

بسرعة، اختار السيد بيركواي دفترًا آخر. قرأ:

«ليندا [لم يكن في فصلنا من تدعى ليندا] هي صديقتي الأقرب. أخبرها بكل شيء تقريبًا، وهي أيضًا تخبرني «بكل شيء»، حتى الأشياء التي لا أود معرفتها. على سبيل المثال، ما تناولته على الإفطار، وما يرتديه أبوها عند النوم، وثمن سترتها الجديدة. أحيانًا لا تثير مثل تلك الأمور اهتمامي.»

كان ما أثار إعجاب السيد بيركواي في تلك الفقرة هو أنها تبين أن حتى أصدقاءنا المقربين قد يدفعوننا للجنون أحيانًا. التفتت بث آن في مقعدها وأرسلت رسائل غاضبة بحاجبيها إلى ماري لو.

قلَّب السيد بيركواي صفحات الدفتر نفسه حتى وصل إلى فقرة أخرى. قرأ:

«أظن أن جيرمايا متصلب الرأي بغباء. بشرته متوردة دائمًا، وشعره نظيف دائمًا ... لكنه في الواقع أحمق.»

خُيِّل لي أن ماري لو ستنزلق ساقطةً من مقعدها. احتقن وجه أليكس حتى صار ورديًّا للغاية. ونظر إلى ماري لو كما لو أنها طعنته لتوها في قلبه بسيخ ساخن. قالت ماري لو: «كلا ... أنا ... هذا لا يعني ما تظنه ... أنا ...»

ما أعجب السيد بيركواي في تلك الفقرة هو أنها تظهر مشاعر مختلطة تجاه شخص.

قال أليكس: «أوافقك الرأي.»

رن الجرس. في البداية، صدرت زفرات ارتياح من أولئك الذين لم تُقرأ دفاترهم، ثم ما لبث أن بدأ الجميع يتكلمون مليون كلمة في الدقيقة. «ماري لو، انظري إلى بشرة أليكس المتوردة»، و«ماري لو، ماذا يرتدي والد بث آن عند النوم؟»

كانت بث آن تقف مقربة وجهها من وجه ماري لو. قالت بث آن: «أنا لست ثرثارة، ولم يكن لطيفًا منكِ أن تذكري ذلك، كما أني لا أخبرك بكل شيء، والسبب الوحيد الذي دفعني إلى ذكر ما يرتديه أبي عند النوم هو أننا كنَّا نتحدث، إذا كنتِ تذكرين، عن أن ملابس السباحة الرجالية مريحة أكثر من النسائية و...» وظلت تثرثر.

كانت ماري لو تحاول أن تصل إلى الجانب الآخر من الحجرة حيث يقف أليكس وقد توردت بشرته إلى أقصى حد ممكن. نادته: «أليكس! انتظر! لقد كتبت ذلك قبل ... انتظر ...»

كانت فوضى عارمة. سرني أنني اضطُررت إلى المغادرة. فقد كنت ذاهبة أنا وفيبي إلى مركز الشرطة مجددًا.

دخلنا لمقابلة الرقيب بيكل على الفور. وضعت فيبي الرسالة الجديدة عن ماء البئر على مكتبه بعنف، وألقت بالشعيرات التي جمعتها من بيت السيدة كادافر فوقها، ثم وضعت فوقهما قائمة «أغراض إضافية للتحري».

قطب الرقيب بيكل حاجبيه. «لا أظنكما تفهمان الأمر أيتها الفتاتان.»

انتابت فيبي نوبة غضب. قالت: «أيها الأحمق.» وانتشلت الرسالة والشعيرات والقائمة واندفعت خارجة من مكتبه.

تبعها الرقيب بيكل، أما أنا فانتظرتُ ظنًّا أنه سيعيد فيبي ويهدئها. نظرت إلى الصور الفوتوغرافية الموضوعة على مكتبه، التي لم يتسنَّ لي رؤيتها أمس. كان أحدها للرقيب بيكل ومعه سيدة ودودة الملامح؛ افترضت أنها زوجته. وكانت الصورة الثانية لسيارة سوداء لامعة. أما الثالثة فكانت تجمع الرقيب بيكل والمرأة وشابًّا يافعًا؛ خمنت أنه ابنهما. أمعنت النظر فيها.

عرفت الابن. إنه المختل.

الفصل الثاني والثلاثون

قبلات بنكهة الدجاج والتوت البري

عبر جدي ولاية وايومينج بسرعة جنونية. كنا نجتاز طرقًا متعرجة تحفها أشجار تميل مطبقة علينا وتخشخش قائلة: «هيا، هيا، هيا، هيا، هيا.» كان الطريق ينحني بمحاذاة أنهار تقرقع وتهذرم: «هلُمِّي، هلُمِّي، هلُمِّي.»

كان الوقت متأخرًا حين وصلنا إلى متنزه يلوستون. لم نرَ ذلك المساء سوى ينبوع ساخن. سرنا في ممرات خشبية مشيدة فوق الطمي الذي كان يغلي من الحرارة (بينما كانت جدتي تقول: «مرحى، مرحى»!) وبتنا في كوخ خشبي في نُزُل «أولد فيثفول». لم أرَ جدتي متحمسةً إلى هذا الحد من قبل. كانت تنتظر طلوع الصباح بفارغ الصبر. ظلت تكرر: «سنرى فوارة أولد فيثفول.»

قلت: «لن يستغرق ذلك طويلًا، أليس كذلك؟» شعرت وأنا أقول ذلك أني أنانية، إذ كانت جدتي متشوقة كثيرًا لرؤيتها.

قالت جدتي: «لا تقلقي يا سالامنكا، سنشاهد الفوارة الحارة القديمة وهي تنفث ماءها ثم سنمضي في طريقنا.»

طَوال الليل ظللت أصلي لشجرة الدردار التي بالخارج. طلبت في صلواتي ألا يقع لنا حادث، وأن نصل إلى لويستون، أيداهو في يوم عيد ميلاد أمي، وأن نعود بها إلى البيت. لاحقًا، سأدرك أني لم أكن موفقة في طلباتي تلك.

في تلك الليلة، لم تستطع جدتي النوم من فرط حماسها. وظلت تثرثر عن أمور شتى. قالت لجدي: «أتذكر تلك الرسالة التي جاءت من مشتري البيض التي وجدتَها تحت المرتبة؟»

«بالطبع أذكرها. لقد خضنا شجارًا محتدمًا بسببها. قلتِ إنك لا تدرين كيف وصلت إلى ذلك المكان. وقلتِ إنه حتمًا تسلل إلى غرفة النوم ووضعها بنفسه.»

قالت جدتي: «حسنًا، أريدك أن تعرف أني أنا التي وضعتها في ذلك المكان.»

قال جدي: «أعرف، لست مغفلًا إلى ذلك الحد.»

قالت جدتي: «تلك هي الرسالة الغرامية الوحيدة التي تلقيتها. أنت لم تكتب لي أي رسائل غرامية.»

«لم تقولي يومًا إنك تريدين أن أكتب لكِ رسالة غرامية.»

قالت لي جدتي: «كاد جدك يقتل مشتري البيض بسبب تلك الرسالة.»

قال جدي: «هراء، لم يكن يستحق القتل.»

«ربما، لكن جلوريا كانت تستحقه.»

قال جدي وهو يضع يده على قلبه متظاهرًا بالتأثر: «آه! جلوريا!»

قالت جدتي: «كف عن ذلك»، ثم تقلَّبت إلى جنبها. «احكي لي عن بيبي. احكي لي تلك القصة، لكن لا تجعليها بائسة للغاية.» عقدت ذراعيها أمام صدرها. «أخبريني ماذا حدث بشأن المختل.»

حين رأيت صورة المختل على مكتب الرقيب بيكل، هُرعت هاربةً من مكتبه كالبرق. اجتزت الرقيب بيكل الذي كان واقفًا في موقف السيارات وأنا أركض. لم يكن ثمة أثر لفيبي. ظلِلت أركض حتى منزلها. حين مررت ببيت السيدة كادافر، نادتني السيدة بارتريدج من شرفتها.

قلتُ: «أنتِ متأنقة. هل أنتِ ذاهبة إلى مكان ما؟»

قالت: «أجل، لقد تجهزت.» نزلت بصعوبة درجات السُّلَّم وعكازها ذو رأس الكوبرا يتأرجح أمامها.

سألتها: «ستتمشين؟»

مدت يدها ولمست ساقيها. «أليس هذا ما يُطلَق على ما يفعله المرء حين يحرك ساقيه كما أفعل الآن؟»

«كلا، أعني هل ستتمشين إلى حيث أنت ذاهبة؟»

«أوه كلا، لن تتحمل ساقاي ذلك. سيأتي جيمي ليُقلني. هو على وشك الوصول.» توقفت سيارة أمام المنزل. قالت: «ها قد جاء.» وصاحت مخاطبة السائق: «أنا جاهزة. قلتُ إني سأكون جاهزة وها أنا ذي.»

قفز السائق خارجًا من السيارة. قال: «سال؟ لم أكن أعرف أنكما جيران.» كان السيد بيركواي.

قلت: «لسنا كذلك. جارتها هي فيبي ...»

قال وهو يفتح باب السيارة للسيدة بارتريدج: «حقًّا؟ هيا يا أمي. لنذهب.»

قلت: «أمك؟» نظرت للسيدة بارتريدج. «أهذا ابنكِ؟»

قالت السيدة بارتريدج: «أجل، بالطبع. هذا صغيري جيمي.»

«لكن لقبه بيركواي ...»

قالت السيدة بارتريدج: «لقد كنت متزوجةً من بيركواي ذات يوم. ثم تزوجت من بارتريدج وما زلت أحمل لقبه.»

سألت: «من تكون السيدة كادافر إذَن؟»

قالت: «صغيرتي مارجي. كانت تحمل لقب بيركواي أيضًا. وهي الآن تحمل لقب كادافر.»

سألت السيد بيركواي: «السيدة كادافر أختك؟»

قال السيد بيركواي: «أنا وهي توءمان.»

حين رحلت سيارتهما، طرقت باب فيبي لكن لم يُجبني أحد. في البيت، ظللت أتصل بفيبي مرارًا وتكرارًا. لم يُجِب أحد.

في اليوم التالي في المدرسة، اطمأننت حين رأيت فيبي. قلت لها: «أين كنتِ؟ لديَّ ما أود إخبارِكِ به ...»

أدارت لي ظهرها. قالت: «لا أريد أن أتحدث عن الأمر. لا أريد مناقشته.»

لم أستطع تبيُّن ما كان يضايقها. كان يومًا عصيبًا. خضنا اختبارًا في الرياضيات وفي العلوم. أثناء استراحة الغداء، تجاهلتني فيبي. ثم جاءت حصة اللغة الإنجليزية.

دخل السيد بيركواي الفصل حجلًا. كان الناس يقرضون أظافرهم ويهزون أقدامهم ويتململون يعتريهم التوتر بصفة عامة، يتساءلون إن كان السيد بيركواي سيقرأ من دفاتر اليوميات. حملقتُ فيه. هو ومارجريت كادافر توءمان؟ أيُعقل هذا؟ كان أكثر ما أصابني بخيبة أمل حين علمت ذلك هو أنه لن يقع في حبها ويتزوجها ويأخذها معه بعيدًا.

فتح السيد بيركواي خزانة، وأخرج الدفاتر ولفَّ غلاف أحدها بالورقة الصفراء، وقرأ:

«هذا ما يعجبني في جين. هي ذكية، لكنها لا تتصرف وكأنما تعرف كل شيء. وهي جذابة. ورائحتها عطرة. وجذابة. وتضحكني. وجذابة.»

سرى في ذراعيَّ وخز. تساءلت إن كان بِن هو من كتب ذلك عني، لكني ما لبثت أن أدركت أن بِن لم يكن يعرفني، بعد حين كتب يومياته. سرت ضجة خافتة في الفصل إثر تململ الجميع في مقاعدهم. كانت كريستي تبتسم، وكذلك ميجان وبث آن وماري لو. كانت جميع الفتيات في الفصل يبتسمن. ظنت كل منهن أنها المعنية.

أمعنت النظر في كلٍّ من الفتيان. كان أليكس يحملق في السيد بيركواي بغير اكتراث. ثم وقع نظري على بن. كان جالسًا وقد وضع يديه على أذنيه وأطرق بصره إلى مكتبه. زحف ذلك الشعور بالوخز إلى عنقي ثم سرى إلى عمودي الفقري. هو من كتب ذلك إذن، لكنه لم يكتبه عني.

هتف السيد بيركواي: «آه من الحب، آه من الحياة!» تنهد، وسحب دفترًا آخر وقرأ:

> «جين لا تعرف أي شيء عن الفتيان. سألتني ذات مرة عن مذاق القبلات، وهذا يدل على أنها لم تقبل أحدًا من قبل. أخبرتها أن مذاقها كالدجاج، وصدقتني. في بعض الأحيان تكون ساذجةً جدًّا.»

هبت ماري لو من مقعدها. قالت لبث آن: «أيتها الخرقاء. أيتها الغبية.» لفَّت بث آن خصلة من شعرها حول أصبعها. قالت ماري لو: «أنا لم أصدقكِ، كما أني أعرف مذاق القبلات وهو ليس كمذاق الدجاج.»

رسم بن رسمًا كارتونيًّا مبسطًا لشخصين يتبادلان قبلة. وفوق رأسيهما في الفراغ كان ثمة فقاعة كارتونية بداخلها دجاجة تقول: «كاك، كاك، كاااك.»

قلَّب السيد بيركواي بضع صفحات من الدفتر نفسه وقرأ:

> «أكره فعل ذلك. أكره الكتابة. أكره القراءة. أكره دفاتر اليوميات. أكره بشدة حصة اللغة الإنجليزية التي يتحدث مدرسوها عن الرموز السخيفة. وأكره تلك القصيدة السخيفة التي تتحدث عن الغابة المكسوة بالجليد، وأكره قول الناس إن الغابة ترمز إلى الموت أو الجمال أو الجنس أو أيِّ شيءٍ أرادوا. أكره ذلك. ربما الغابة هي مجرد غابة لا أكثر.»

نهضت بث آن. قالت: «يا سيد بيركواي، أنا أكره المدرسة وأكره الكتب واللغة الإنجليزية والرموز وأكره بالأخص تلك اليوميات السخيفة.»

ساد الصمت الفصل. لوهلة حدَّق السيد بيركواي في بث آن، فذكرني بالسيدة كادافر. لتلك الوهلة، بدت عيناه كعينيها تمامًا. خشيت أن يطبق على عنق بث آن، لكنه ما لبث أن

ابتسم واستعادت عيناه نظرتهما الودية الوديعة التي تشبه نظرة البقرة. أظن أنه نوَّمَ بِث آن مغناطيسيًّا، فقد جلست ببطء. قال السيد بيركواي: «يا بث آن، أنا أعرف بالضبط ما تشعرين به. بالضبط. أحب هذه الفقرة.»

قالت: «حقًّا؟»

«إنها صادقة للغاية.»

أقر بأنه لا يمكن لأحد أن يأتيَ بما هو أصدق من إفصاح ماري آن لمدرس اللغة الإنجليزية عن كرهها للرمزية واللغة الإنجليزية واليوميات السخيفة.

قال السيد بيركواي: «كان ذلك هو شعوري بالضبط. لم أكن أفهم كل ذلك التعقيد المحيط بالرموز.» دسَّ يده في مكتبه بحثًا عن شيءٍ ما. «أريد أن أريكِ شيئًا.» كان يخرج أوراقًا ويُلقي بها يمينًا ويسارًا. أخيرًا، رفع يده بصورة. «ها هي. رائع!» ثم سأل بن: «ما هذا؟»

أجاب بن: «إنها زهرية. كما هو واضح.»

رفع السيد بيركواي الصورة أمام بِث آن، التي بدا أنها على وشك البكاء. سألها: «ماذا ترين يا بِث آن؟» سالت دمعة صغيرة على وجنتها. «هوني عليك يا بِث آن، ماذا ترين أنت؟»

قالت: «لا أرى زَهرية سخيفة. بل أرى شخصين. شخصان ينظر كل منهما للآخر.»

قال السيد بيركواي: «صحيح. أحسنتِ!»

«إجابتي أنا صحيحة؟ أنا أحسنت؟»

قال بن: «ماذا؟ شخصان؟» كان ذلك ما أفكر فيه. أي شخصين؟

قال السيد بيركواي لبن: «إجابتك صحيحة أيضًا. أحسنت!» ثم سأل الجميع: «كم منكم يرى زهرية؟» رفع نصف الفصل تقريبًا يده. «وكم منكم يرى وجهين؟» رفع باقي الفصل يده.

بعدها شرح السيد بيركواي كيف يمكن أن يرى المرء كلتا الصورتين. إذا نظرتَ فقط للجزء الأبيض في المنتصف، فسترى الزهرية بوضوح. وإذا نظرت فقط للأجزاء الداكنة على الجانبين فسترى جانبي وجه شخصين. ترى الجانبين المتعرجين للزهرية رسمًا محيطيًّا لرأسين متواجهين.

قال السيد بيركواي إن ذلك الرسم يشبه الرموز بعض الشيء. ربما كان الفنان ينوي فقط رسم زهرية، وربما ينظر البعض إلى الرسم فلا يرى إلا الزهرية. ولا بأس في ذلك،

لكن إن نظر البعض إلى الرسم فرأى وجهين، فما الخطأ في ذلك؟ هو وجهان لمن يتأمله. والأروع هو أن المرء قد يرى كليهما.

قالت بث آن: «عصفوران بحجر واحد؟»

قال السيد بيركواي: «أليس هذا مدهشًا، أن تري كليهما؟ أليس من الرائع أن تكتشفي أن الغابة المكسوة بالجليد يمكن أن ترمز للموت والجمال وحتى الجنس؟ يا للروعة! إنه الأدب!»

قال بن وهو ينسخ الرسم: «هل قال «الجنس»؟»

ظننت أن السيد بيركواي قد انتهى من قراءة اليوميات لذلك اليوم، لكنه أغمض عينيه بحركة استعراضية وسحب شيئًا من أسفل كومة الدفاتر.

«وضعت حبات التوت البري في فمها. ثم تلفتت حولها ...»

كان دفتري. لم أُطِق ذلك.

«خطت خطوتين إلى جذع شجرة القَيْقب، وأحاطتها بذراعيها وقبلتها.»

ضحك الموجودون.

«خيل إليَّ أنني تبينتُ بقعةً صغيرةً داكنةً، وكأنما خلفتها قبلة بالتوت البري ...»

نظر لي بِن من الجانب الآخر من الحجرة. بعد أن قرأ السيد بيركواي ما كتبته عن قبلة التوت البري التي طبعتها أمي، قرأ كيف أني قبَّلت الشجرة وكيف قبَّلتُ منذ ذلك الحين أشجارًا من شتى الأنواع، فعرفت أن لكل شجرة مذاقها الخاص، الذي كان مختلطًا بمذاق التوت البري.

في تلك اللحظة، لأن بن وفيبي كانا يحدقان فيَّ، فعل الجميع مثلهما. قالت ميجان: «هي تقبل الأشجار؟» كدت أموت خجلًا في تلك اللحظة، لولا أن السيد بيركواي التقط على الفور دفترًا آخر. وضع أصبعه في منتصف الصفحة وقرأ:

«أنا قلقة جدًّا من السيدة ...»

حملق السيد بيركواي في الصفحة. بدا وكأنه يجد صعوبة في قراءة خط اليد. بدأ مجددًا.

«أنا قلقة جدًّا من السيدة ... السيدة جثة. يشير سلوكها المثير للريبة إلى أنها قتلت زوجها ...»

طرفت عينا فيبي بسرعة. قال بِن: «تابع. أكمِلْ حتى النهاية!»

كان من الواضح أن السيد بيركواي شعَر بالندم على أنه بدأ مسألة اليوميات هذه من الأساس، لكن تعالت الصيحات من جميع أرجاء الغرفة: «أجل، أكمل!» فتابع على مضض.

«أعتقد أنها دفنته في فنائها الخلفي.»

حين رن الجرس، هاج الجميع. «يا إلهي! جريمة قتل! من كتبَ ذلك؟» و«أهذا حقيقي؟»

خرجتُ من الفصل بأقصى سرعة في إثر فيبي. نادتني ميجان قائلةً: «أتُقبِّلين الأشجار؟» هُرعتُ خارج المبنى. لم أجد أثرًا لفيبي.

قلت في نفسي: مذكرات سخيفة. مذكرات سخيفة لعينة.

الفصل الثالث والثلاثون

الزائر

كان جدي وجدتي لا يزالان مستيقظين في الكوخ الخشبي الكائن على طرف متنزه يلوستون الوطني. قلت: «ألم يغلبكما النعاس بعد؟» قالت جدتي: «لا أعرف ما خطبي. لا أشعر بأي رغبة في النوم. أريد أن أعرف ما حدث لبيبي.»

«سأحكي لكما عن زيارة السيد بيركواي ثم سأكتفي بذلك الليلة.»

في ذلك اليوم الذي قرأ فيه السيد بيركواي ما كتبته في يومياتي عن قبلات التوت البري وما كتبته فيبي عن السيدة كادافر، قصدت منزل فيبي بعد العشاء. في غرفة نومها، قلت لها: «أود إخبارك بأمرَين مُهمَّين ...» حينئذٍ رنَّ جرس الباب، وسمعنا صوتًا مألوفًا.

قالت فيبي: «يبدو كصوت السيد بيركواي.»

قلت: «هذا أحد الأمرين اللذين أريد إخبارِكِ بهما. بشأن السيد بيركواي ...»

في تلك اللحظة طُرِق باب فيبي. قال أبوها: «فيبي، هلا رافقتِني أنتِ وسال للطابق السفلي؟»

كنت أظن أن السيد بيركواي سيثور على فيبي بسبب ما كتبته عن أخته. والأسوأ من ذلك هو أن فيبي لم تكن قد علمت بعدُ أن السيدة كادافر أخته. شعرت أننا حمَلين نساق إلى المذبح. قلت في نفسي، فلتأخذنا. فلتأخذنا وتريحنا من عذابنا بسرعة. تبعنا والد فيبي للطابق السفلي. كان السيد بيركواي جالسًا على الأريكة ممسكًا بدفتر يوميات فيبي ويبدو عليه الخجل.

قالت فيبي: «ذلك دفتر يومياتي الخاص. الذي كتبت فيه أفكاري الخاصة.»

قال السيد بيركواي: «أعرف، وأود أن أعتذر لكِ أني قرأته علانيةً.»

يعتذر؟ كان ذلك مُطَمئنًا. ساد الصمت في الغرفة حتى إن صوت اهتزاز أوراق الشجر في الرياح بالخارج كان مسموعًا.

تنحنح السيد بيركواي. قال: «أريد أن أوضح لكِ أمرًا. السيدة كادافر أختي.»

قالت فيبي: «أختك؟»

«وزوجها مُتوفى.»

قالت فيبي: «ظننتُ ذلك.»

قال السيد بيركواي: «لكنها لم تقتله. لقي زوجها حتفه إثر اصطدام سائق مخمور بسيارته. كانت أمي، السيدة بارتريدج، معه في السيارة. لم تمت كما تعرفين لكنها فقدت بصرها.»

قلت: «أوه ...» وأطرقت فيبي إلى الأرض.

«كانت أختي مارجريت المرضة المناوبة في غرفة الطوارئ حين أحضروا زوجها وأمنا. تُوفي زوج مارجريت في تلك الليلة.»

بينما كان السيد بيركواي يتحدث، كان والد فيبي جالسًا إلى جوارها واضعًا يده على كتفها. بدا وكأن الشيء الوحيد الذي منعها من التلاشي في الهواء والاختفاء هي يده التي استقرت على كتفها.

قال السيد بيركواي: «أردت فحسب أن تعرفي أن السيد كادافر ليس مدفونًا في فنائها الخلفي. كما أني علمت بأمر أمكِ يا فيبي، وأنا آسف لرحيلها، لكني أؤكد لكِ أن مارجريت لم تختطفها أو تقتلها.»

بعد أن غادر السيد بيركواي، جلست أنا وفيبي في الشرفة الأمامية. قالت: «إذا لم تختطف السيدة كادافر أمي أو تقتلها، فأين هي؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟ أين عليَّ أن أبحث؟»

قلت: «فيبي، ثمة أمر يجب أن أخبركِ به.»

«اسمعي يا سال، إذا كنت ستقولين إنها لن تعود، فلا أود سماع ذلك. أيضًا من الأفضل لكِ أن تعودي إلى بيتكِ الآن.»

«أعرف من يكون المختل. إنه ابن الرقيب بيكل.»

هكذا وضعنا خطة.

حين عدت إلى البيت في تلك الليلة، لم أستطع أن أكفَّ عن التفكير في السيدة كادافر. تخيلتها في زي التمريض الأبيض تعمل في غرفة الطوارئ. وتخيلت سيارة الإسعاف وهي تتوقف وأضواؤها الزرقاء تومض، وتخيلتها وهي تسرع الخطى إلى الباب المتأرجح، يتناثر شعرها الجامح حول وجهها. تخيلت النقالتين تُدفعان إلى الداخل، وتخيلت السيدة كادافر وهي تنظر إليهما.

كان بوسعي أن أشعر بتسارع نبضها حين أدركت أن الجسدين الممدين عليهما هما لأمها وزوجها. تخيلتها تلمس وجه زوجها. شعرت وكأني مكانها أسلك دربها، إلى حد أن قلبي كان ينبض بسرعة ويداي تتعرقان.

بدأت أتساءل إن كانت طيور الحزن قد عششت فوق رأسها بعد تلك الحادثة، وإن صح ذلك فكيف تخلصَت منها. كان موت زوجها وفقدان أمها لبصرها واقعتين ستكونان ذاتي أهمية على مدى عمرها كاملًا. تخيلت الجميع يمضي في تنفيذ أجندته الخاصة بينما كانت السيدة كادافر تحاول باستماتة إبقاء زوجها وأمها على قيد الحياة. هل ندمَت على أي شيء؟ هل أدركَت قيمة الماء قبل أن تجف البئر؟

اجتاحت كل تلك الرسائل عقلي وغيرت نظرتي للأمور.

سألتُ جدتي: «هل أنتِ نائمة يا جدتي؟» كان صوتي مبحوحًا من كثرة الكلام.

«كلا يا صغيرتي، فلتنامي أنتِ. سأظل مستيقظة قليلًا أفكر في بعض الأمور.» وكزَت جدي. «نسيتَ أن تقول عبارتكَ المعتادة عن فراش الزوجية.»

تثاءب جدي. «آسف يا عزيزتي.» ربت على السرير وقالها.

الفصل الرابع والثلاثون

أولد فيثفول

كان اليوم التالي هو أحد أفضل الأيام غالبًا وكذلك أسوأها قطعًا في حياة جدي وجدتي. أيقظتني الهمسات مبكرًا. كان اليوم السادس، وكان اليوم التالي هو عيد ميلاد أمي. كان علينا أن نغادر ولاية وايومينج ثم نجتاز ولاية مونتانا. كان جدي مستيقظًا بالفعل، لكن جدتي كانت مستلقية على السرير تحدق بالسقف.

سألتها: «هل نمت؟»

قالت: «كلا، لم يراودني النوم. يمكن أن أنام لاحقًا.» نهضَت من السرير. «هيا نذهب لرؤية فوارة أولد فيثفول. لقد انتظرت طَوال حياتي لرؤيتها.»

قال جدي: «لقد عقدتِ العزم على ذلك، أليس كذلك يا عزيزتي العنيدة؟»

قالت جدتي: «أجل بالطبع.»

أوقفنا السيارة وترجلنا صاعدين تلًّا مرتفعًا. خشيت أن يخيب ظن جدتي، إذ في البداية لم تبدُ فوارة أولد فيثفول بالشيء المبهر. كان سياج من الحبال يحيط برابية على جانب التل. وكانت الأرض ترابيةً خشنة، وفي منتصف سياج الحبال، على مسافة عشرين قدمًا منه، كانت توجد حفرة.

قالت جدتي: «تبًّا، ألا نستطيع الاقتراب أكثر من ذلك؟»

سرت أنا وجدي إلى لافتة عن أولد فيثفول لنقرأها. اندفع مارًّا من جانبنا أحد حراس المتنزه وهو يصيح: «سيدتي! سيدتي!»

قال جدي: «تبًّا.»

كانت جدتي تزحف من أسفل الحبل. أوقفها الحارس. قال: «سيدتي، لقد وضع ذلك الحبل لسبب وجيه.»

نفضت جدتي التراب عن ثوبها. «كل ما أردته هو أن أراها بوضوح أكبر.»

قال الحارس: «لا تقلقي سترينها بوضوح. من فضلك لا تتخطي الحبل.»

كان مكتوبًا على اللافتة أن فوارة أولد فيثفول ستفور بعد خمس عشرة دقيقة. تجمَّع المزيد من الناس حول الحبل. كانوا من شتى الأعمار: أطفالًا رضعًا يبكون، وجدات جالسات على كراسي قابلة للطي، ومراهقين يضعون سماعات رأس، وأزواجًا يتبادلون القبلات. وكان منهم من يتحدث لغات غير الإنجليزية؛ فإلى جوارنا كان ثمة فوج سياحي من الإيطاليين؛ وعلى الجانب المقابل كان يوجد فوج ألماني.

نقرت جدتي أصابع يديها وظل حماسها يتزايد. ظلت تردد: «هل حان الوقت؟ هل اقترب الوقت؟»

خيم الصمت على الحشد قبل موعد فوران أولد فيثفول ببضع دقائق. حدق الجميع في الحفرة. وأصغى الجميع.

قالت جدتي: «هل حان الوقت؟»

سمعنا ضجة خافتة واندفعت دفقة ماء صغيرة من الحفرة، قال الرجل الواقف بجواري: «أهذا كل شيء ...» صدرت ضجة مرة أخرى، وكانت أعلى هذه المرة، كصوت انسحاق وخشخشة يشبه صوت السير على حصًى. اندفعت دفقتان متقطعتان. قال الرجل: «أوه ...»

ثم صارت كمِرجلٍ يغلي أو إبريق شاي كان يُصفِّر وقد وصل ماؤه إلى حد الغليان. كانت فوارة أولد فيثفول تئز وتنفث البخار. ثم انطلقت منها فجأة دفقة، بلغ ارتفاعها نحو ثلاث أقدام.

قال الرجل: «أوه ... أهذا كل ...»

تصاعد المزيد من البخار من الفوارة وظلت تغلي وتئز، ثم نفث دفقة هائلة من الماء ظلت ترتفع وترتفع، حتى صارت مثل نهر حقيقي يتدفق لأعلى في الهواء. قالت جدتي: «تبدو كشلال مقلوب.» وأثناء ذلك كانت تئز بقوة، وأكاد أجزم أن الأرض كانت تقعقع وتهتز من تحتنا. اندفع الرذاذ الدافئ نحونا فبدأ الناس يتراجعون.

تراجع الجميع باستثناء جدتي. ظلت واقفةً مكانها تبتسم، وتميل رأسها مستقبلة الرذاذ، وتحدق في تلك النافورة العملاقة. تقول: «أوه! أوه، مرحى، مرحى!» كانت تصيح بذلك في الهواء وسط الضجيج.

أما جدي فلم يكن ينظر لفوارة أولد فيثفول. كان ينظر إلى جدتي. لفها بذراعيه وعانقها. قال: «تعجبكِ تلك الفوارة العتيقة، أليس كذلك؟»

قالت جدتي: «أوه! أجل.»

كان الرجل الواقف بجانبي يحملق في الفوارة فاغرًا فاه. قال: «يا إلهي. يا إلهي، هذا مذهل.»

تدريجيًّا، بدأت فوارة أولد فيثفول تهدأ. راقبناها تتراجع وتنسحب إلى حفرتها. ظللنا واقفين مكاننا حتى بعد أن رحل الجميع. أخيرًا، تنهدت جدتي وقالت: «حسنًا، لنذهب.»

لما ركبنا السيارة واستعددنا للرحيل، بدأت جدتي تبكي. قال جدي: «يا إلهي. ما الخطب؟»

قالت جدتي بصوتٍ باكٍ: «لا شيء. أنا فقط سعيدة للغاية لأن الفرصة سنحت لي لأن أرى أولد فيثفول.»

قال جدي: «يا عزيزتي العجوز.» ثم مضينا في طريقنا. قال جدي: «سوف نجتاز ولاية مونتانا كالبرق. سنصل إلى حدود ولاية أيداهو الليلة. فلتراقباني. سوف أقود بأقصى سرعة.» ضغط على بدال السرعة واندفع خارجًا من موقف السيارات. «أيداهو، ها نحن قادمون.»

الفصل الخامس والثلاثون

الخطة

طَوال اليوم، ظِللنا نقطع الطريق المار خلال مونتانا. على الخريطة لم يبدُ طويلًا، لكنه كان جبليًّا. بدأناه حين غادرنا متنزَّه يلوستون من أسفل سلسلة جبال روكي، ثم ظللنا نصعد وننزل طَوال اليوم. أحيانًا كان الطريق يتعرج بمحاذاة جانب جرف، ولم يكن يحول بيننا وبين السقوط سوى حاجز ضئيل. في بعض الأحيان ونحن نسلك منحنًى، كنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع قاطرة تخييم يتأرجح هيكلها العريض وهي تجتاز المنحنى.

قال جدي: «هذه الطرق خطرة»، لكنه كان كطفل يمتطي حصانًا لعبة. كان يقول: «هيا، لنتحرك» مشجعًا السيارة على صعود مرتفع. وأثناء نزولنا على الجانب الآخر منه كان يقول: «هيا.»

شعرت أني ممزقة بين أمرين. كان جزء مني يتأمَّل المنظر الطبيعي بإعجاب. وعليَّ أن أقرَّ بأنه كان يضاهي بايبانكس جمالًا أو حتى يفوقها. أشجار وصخور وجبال. أنهار وأزهار. غزلان وأيائل وأرانب. كان ريفًا مذهلًا، هائلًا.

لكن الجزء الآخر مني كان يرتعد ككومة من الهُلام. كنت أتخيل سيارتنا تندفع عبر الحاجز وتهوي من الجرف. وكنت حين نقترب من منحنًى أتخيل أننا سنصطدم بشاحنة أو قاطرة تخييم. كنت كلما رأيت حافلة، راقبتها وهي تتأرجح. وراقبت إطاراتها وهي تلف مقتربة إلى حد خطير من الحصى على حافة الطريق. وراقبتها تمضي للأمام مجتازة الطريق ومتحدية تلك المنحنيات.

جلست جدتي صامتةً وقد عقدت يديها في حجرها. ظننت أنها قد تنام، لا سيما أنها ظلت مستيقظة طَوال الليل، لكنها لم تفعل. أرادت أن تسمع حكاية بيبي. هكذا طَوال اليوم، بينما كنت أتأمل المنظر الطبيعي، وأتخيل وقوع ألف حادثة لنا، وقبل كل ذلك

أتوجه بصلواتي لأي شجرة تمرق من جانبنا، تحدثت عن بيبي. أردت أن أحكي كل شيء اليوم. أردت أن أنهيَ الحكاية.

في اليوم التالي لزيارة السيد بيركواي لمنزل فيبي وإطلاعه إيانا على ما حدث للسيدة كادافر، بدأت أنا وفيبي في تنفيذ خطتنا. كنا ننوي اقتفاء أثر ابن الرقيب بيكل، واكتشاف مكان والدة فيبي، على حد قولها. لم أكن واثقةً من أن ابن الرقيب بيكل مختل، ولا مقتنعة بأنه سيقودنا إلى أم فيبي، لكن حكايات فيبي كانت قد توغلت في ذهني بما يكفي لأن تدفعني للتورط في الخطة. مثل فيبي، كنت مستعدةً لأن أفعل شيئًا ما.

استطعنا بصعوبة شديدة الجلوس دون حركة طَوال اليوم الدراسي. كانت فيبي بالأخص متحمسة بشدة. وكانت قلقة أيضًا. كانت تخشى ألا نعثر على أمها على قيد الحياة، وكنت قد بدأت أشاركها مخاوفها تلك.

في المدرسة، كان الجميع يثرثرون حول قراءة دفاتر اليوميات. أراد الجميع أن يعرفوا من كتب عن جريمة القتل. تحاشى أليكس ماري لو بسبب ما كتبته عن كونه أحمق وردي البشَرة، وتحاشت ماري لو بِث آن بسبب ما كتبته بِث آن عن القبلات بمذاق الدجاج. وظلت ميجان وكريستي تهزآن من بِث آن بسؤالهما: «هل حقًّا أخبرتِ ماري لو بأن القبلات لها مذاق الدجاج؟ وهل صدقتكِ حقًّا؟» وتهزآن مني بسؤالهما: «هل حقًّا تقبلين الأشجار؟ ألا تعرفين أنكِ ينبغي أن تقبلي الفتيان لا الأشجار؟»

في حصة اللغة الإنجليزية، ألح الجميع على السيد بيركواي أن يُنهيَ فقرة المذكرات التي بدأ قراءتها أمس عن السيدة جثة والجثة، لكن السيد بيركواي لم يقرأ أي دفاتر أخرى. بل اعتذر عن إيذائه لمشاعر من قرأ أفكارهم الخاصة علانيةً، ثم أرسلنا إلى المكتبة.

في المكتبة، ظل بن يرافقني كظلي. إذا طالعت قسم الأدب، وجدته بجواري. وإذا انتقلت لأتفحص المجلات، وجدته يتصفح إحداها أيضًا. ذات مرة، لامس وجهه كتفي. كان بلا ريب يحاول تقبيلي، عرفت ذلك، لكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا حياله. لم أستطع أن أمنع جسدي من أن يتحرك مبتعدًا كلما صوب فمه تجاهي. كنت أحتاج إلى إنذار ما.

حاولت أن أقف ثابتة تمامًا لعدة دقائق متتالية، ولاحظت خلالها بن يحاول أن يميل قليلًا نحوي عدة مرات. ولكن في كل مرة كان يتراجع، كأنما يتحكم به شخص بحبل خفي.

من الجانب الآخر من المكتبة، نادتني بِث آن قائلة: «سال، ثمة عنكبوت ... اقتليها يا سال!»

حين دق جرس نهاية اليوم الدراسي، خرجتُ أنا وفيبي من المدرسة بسرعة البرق. في منزل فيبي، بحثنا في دليل الهاتف. قالت فيبي: «يجب أن نسرع قبل أن يعود أبي أو برودنس.» كان في دليل الهاتف ستة أشخاص يحملون لقب بيكل. تبادلنا الأدوار في الاتصال بهم. كل مرة، كنا نطلب التحدث إلى الرقيب بيكل. أول شخصين قالوا إننا اتصلنا بالرقم الخاطئ حتمًا. وكان الرقم الثالث مشغولًا. والرابع لم يرد أحد. والخامس جاءنا الرد من سيدةٍ حانقةٍ قالت: «لا أعرف أي رقباء!»

أما الرقم السادس فكان رجلًا مسنًّا يشعر بالوحدة حتمًا إذ تحدث عن أنه عرف في الماضي أثناء الحرب رقيبًا يدعى فريمان، لكن ذلك كان عام ١٩٤٤، وكان يعرف أيضًا رقيبًا يدعى داودي، لكنه لا يعرف رقيبًا باسم بيكل.

قالت فيبي نادبة: «ماذا سنفعل؟ ستعود برودنس في أي لحظة، وما زلنا لا نعرف أيها رقم بيكل المنشود.»

كان الرقم المشغول لا يزال مشغولًا. أما الرقم الذي لم يرد صاحبه فظل يرن طويلًا ولما أوشكت فيبي على أن تنهيَ المكالمة سمعت صوتًا. قالت: «مرحبًا! أيمكنني أن أتحدث إلى الرقيب بيكل لو سمحت؟» صمتت لبرهة مصغية. «لا يزال في عمله؟» كانت فيبي تقفز فرحًا. قالت محاولة تصنُّع الجدية: «شكرًا لك. سأتصل به لاحقًا. كلا لا أريد ترك رسالة. شكرًا لك.»

قالت حين وضعت سماعة الهاتف: «مرحى!» عانقتني بقوة حتى كدت أختنق. «سيتعين عليكِ أن تنفذي المرحلة التالية. الليلة.»

في تلك الليلة، بينما كان أبي في بيت مارجريت، اتصلتُ بالرقيب بيكل. دعوت ألَّا يجيب الرقيب بيكل، لكني كنت مستعدة لتغيير صوتي إن فعل. ظل الهاتف يرن طويلًا. أنهيت المكالمة. تدربت على الصوت الذي سأتحدث به وعلى ما سأقوله. حاولت مرة أخرى. عند الرنة السابعة، أجاب أحد الهاتف. كان الرقيب بيكل.

قلت: «اسمي سوزان لونجفيلو. أنا صديقة لابنك. هل يمكن أن أتحدث إليه؟» ظللت أدعو أن يكون له ابن واحد فقط.

قال الرقيب بيكل: «هو ليس هنا. هل تودين ترك رسالة له؟»

«هل تعرف متى سيعود؟»

صمت لبرهة. «قلتِ كيف تعرَّفتِ إلى ابني؟»

أصابني سؤاله بالتوتر. «كيف تعرفتُ إلى ابنك؟ حسنًا تلك قصة طويلة ... أنا ... في الواقع، عرفته بطريقة ... في الحقيقة يخجلني قليلًا أن أعترف بذلك» كانت يدي تتعرق

بغزارة حتى إن الهاتف كاد ينزلق منها «المكتبة، أجل، تعرفت إليه في المكتبة، أعارني كتابًا لكني أضعت الكتاب ...»

قال الرقيب بيكل: «ربما عليكِ أن تشرحي له هو ذلك.»

«أجل ربما عليَّ أن أفعل.»

«أتساءل لما أعطاك رقم الهاتف ذلك. أتساءل لماذا لم يعطكِ رقمه في الجامعة.»

«في الجامعة؟ في الواقع، لقد أعطاني ذلك الرقم أيضًا، لكنني أضعته ...»

قال: «من الواضح أنك تضيعين الكثير من الأشياء. هل تودين أن أعطيَكِ رقمه في الجامعة؟»

قلت: «أجل. أو سيكون من الأفضل أن تعطيَني عنوانه وسأرسل له الكتاب.»

«ظننتكِ قلتِ إنكِ أضعتِ الكتاب.»

قلت: «في الواقع، هذا صحيح، لكني آمل أن أعثر عليه.»

قال: «فهمت. لحظة من فضلك.» ساد الصمت بيننا لبرهة فيما وضع يده على سماعة الهاتف وسمعته ينادى زوجته بصوت مكتوم: «عزيزتي، أين عنوان مايك؟»

مايك! رائع! لدينا اسم! شعرت كأني كبيرة المفتشين! شعرت كأني اكتشفت أهم دليل على الإطلاق في أبرز تحقيق جنائي في القرن. علاوةً على ذلك، أعطاني الرقيب بيكل عنوان مايك. شعرت برغبة عارمة بأن أنهيَ الحوار بإخبار الرقيب بيكل أن ابنه يحتمل أن يكون مختلًّا، لكني منعت نفسي. شكرته ثم على الفور اتصلت بفيبي.

قالت: «أنتِ عبقرية! غدًا نوقع بمايك المختل.»

الفصل السادس والثلاثون

الزيارة

في اليوم التالي، يوم السبت، حين وصلت أنا وفيبي إلى محطة الحافلة، وجدنا بن واقفًا هناك. غمغمت فيبي: «تبًّا! هل تنتظر تلك الحافلة. هل أنت ذاهب إلى تشانتنج فولز؟»

قال: «أجل.»

«إلى الجامعة؟»

قال بن وهو يزيح شعره عن عينيه: «كلا. توجد مستشفى هناك. سأزور أحد نزلائها.»

قالت فيبي: «ستستقل هذه الحافلة إذن.»

«أجل يا فري بي سأستقل هذه الحافلة. هل تمانعين؟»

جلس ثلاثتنا على المقعد الطويل في آخر الحافلة. كنت أجلس متوسطة فيبي وبن، وكانت ذراعه ملتصقة بذراعي. قالت فيبي إننا سنزور صديقًا قديمًا في الجامعة. كلما سلكنا منعطفًا، كان بن يميل نحوي أو أميل أنا نحوه. كان يقول: «آسف.» وكنت أقول: «آسفة.»

في بلدة تشانتنج فولز، وقفنا على الرصيف بينما رحلت الحافلة. قال بن مشيرًا إلى طرف الشارع: «الجامعة في ذلك الاتجاه. أراكما لاحقًا.» وسار مبتعدًا في الاتجاه الآخر.

قالت فيبي: «رباه! لمَ كان يجب أن يستقل بن الحافلة نفسها؟ لقد أصابني وجوده بالتوتر الشديد.»

أصابني وجوده بالتوتر الشديد أيضًا لكن لأسباب مختلفة. صرت في كل مرة أكون فيها برفقته، أشعر بوخز في بشَرتي، ويتشوش ذهني، وتتدفق الدماء في جسدي بقوة وكأنما ستندفع خارجه.

كان العنوان الذي معنا لمايك عنوان مهجع طلاب جامعيين. كان مبنى من الطوب، له مئات النوافذ. قالت فيبي نادبة: «يا إلهي، ظننته سيكون بيتًا صغيرًا أو ما شابه.» كان الطلاب يدخلون ويخرجون من المبنى ويسيرون على المرج. كان بعضهم جالسًا يذاكر على العشب أو على المقاعد. كان في الرَّدْهة مكتب استقبال، يقف خلفه شاب وسيم. قالت فيبي: «افعلي أنتِ ذلك. فأنا لا أستطيع.»

كنا بارزتين بينهم مثل بطتين سوداوين. إذ كان المكان يعج بطلاب الجامعة البالغين، وكنا فتاتين ضئيلتين في الثالثة عشرة. قالت فيبي: «ليتني ارتديت شيئًا آخر.» ونتفت كرة وبر من سترتها.

شرحت للشاب الواقف في مكتب الاستقبال أني أبحث عن قريبي السيد بيكل. ابتسم لي الشاب ابتسامةً واسعة كشفت عن أسنانه البيضاء. تحقق من قائمة وقال: «أنتِ في المكان الصحيح. هو في الغرفة ٢٠٩. يمكنكِ الصعود إليه.»

كادت فيبي تختنق. «أتعني أن بوسعنا أن نصعد إلى غرفته مباشرةً؟»

قال الشاب وهو يشير للاتجاه: «أجل. من هناك.»

دخلنا من باب متأرجح. قالت فيبي: «صدقًا يكاد قلبي يتوقف. أعرف ذلك. لا أستطيع فعل ذلك. لنخرج من هنا.» في نهاية الرَّدْهة، انسللنا من المخرج. «ماذا لو طرقنا بابه وفتحه فسحبنا إلى الداخل وذبحنا؟»

كان الطلاب يتدفقون على المرج. بحثتُ عن مقعدٍ خاوٍ نجلس عليه. على الجانب المقابل من المرج، رأيت شخصين جالسين يوليانا ظهريهما، شاب يافع وامرأة تكبره عمرًا. كانت أيديهما متشابكة. ثم التفتت المرأة وطبعت قبلة على وجنة الشاب.

«فيبي ...» كانت المرأة الجالسة على المقعد هي أم فيبي، وكانت تقبل المختل.

الفصل السابع والثلاثون

قبلة

صُعقَت فيبي واعتراها الغضب، لكنها كانت أشجع مني. فقد استطاعت أن تشاهد ما يحدث، أما أنا فلم أُطِق ذلك. افترضت أن فيبي سوف تتبعني، لكني لم أنظر خلفي. انطلقتُ أسير في الشارع محاولةً أن أتذكر مكان موقف الحافلات. لم أدرك أنني فوتته إلا حين رأيت المستشفى. دلفت إليها وتفاجأت من أن فيبي لم تكن خلفي.

ما فعلتُه بعد ذلك لم يكن مدبرًا. بل فعلته استنادًا إلى حدس. سألت موظفة الاستقبال بالمستشفى إذا كان بوسعي زيارة السيدة فيني. قلَّبتْ في سجل أسماء. سألتني: «هل أنت من العائلة؟»

قلت: «كلا.»

قالت: «إذَن آسفة لا يمكنكِ الصعود إليها. السيدة فيني في عنبر الأمراض النفسية. لا يسمح بالزيارة إلا لأفراد العائلة.»

«أنا أبحث عن ابنها. لقد جاء إلى هنا لزيارتها.»

«ربما خرجا. يمكنك أن تبحثي عنه بالخلف.»

خلف المستشفى كان يوجد مرج واسع منحدر تحده حدائق أزهار. كانت تتناثر عليه مقاعد وكراسي، شغل المرضى وزائريهم معظمها. كان المشهد يشبه ما تركته في الجامعة، عدا أن لا أحد يذاكر، وأن بعض الناس كانوا يرتدون مباذلَ.

كان بن جالسًا على الأرض عاقدًا ساقيه أمام امرأة ترتدي مبذلًا ورديًّا. كانت يدها تداعب حزام مبذلها بتوتر. رآني بن فنهض وأنا أجتاز المرج. قال: «هذه أمي.» ألقيت عليها التحية لكنها لم تنظر لي. بل نهضت وسارت هائمة على وجهها على المرج وكأننا غير موجودين. تبعتها أنا وبن.

ذكرتني كثيرًا بأمي بعد عودتها من المستشفى. كانت تتوقف عما تفعله في البيت وتخرج من الباب. في منتصف الطريق إلى قمة التل كانت تجلس لالتقاط أنفاسها. كانت تقطف العشب، وتنهض مجددًا وتسير مسافة قليلة أخرى. كانت أحيانًا تدخل الحظيرة وتملأ الدلو بعلف الدجاج، لكن قبل أن تدخل إلى حظيرة الدجاج، تضع الدلو على الأرض وتسير مبتعدة في اتجاه آخر. حين كانت تسير مسافة أكبر، كانت تهيم على وجهها في الحقول والمراعي في مسارات متداخلة ومتعرجة، وكأنما لا تستطيع أن تقرر في أي اتجاه تسير.

تبعنا والدة بن وهي تذرع المرج ذَهابًا وإيابًا، لكن لم يبدُ أنها لاحظت وجودنا قط. أخيرًا، قلت إن عليَّ الذَّهاب، وحينئذٍ حدث الأمر.

للحظة سريعة، تطابقت أجندتانا. نظرت له ونظر لي. وتحرك رأسانا للأمام. لا بدَّ أن ذلك حدث بالتصوير البطيء؛ إذ إني تذكرت لجزء من الثانية رسم السيد بيركواي الذي يصور الرأسين المتقابلين والزَّهرية التي تتوسطهما. وللحظة تساءلت إن كانت المسافة بيننا يمكن أن تتسع لزهرية.

لو كانت بيننا زهرية لسحقناها، إذ تلامس رأسانا واستقرت شفتا كل منا في الموضع الصحيح، على شفتي الآخر. كانت قبلةً حقيقية، ولم يكن لها مذاق الدجاج.

بعدها تحرك رأسانا ببطء مبتعدين، وحدقنا في المرج، وشعرت كذلك المُهر الوليد الذي لا يعرف أي شيء لكن يشعر بكل شيء.

لمس بن شفتيه. وقال: «هل شعرتِ أن مذاقها كالتوت البري؟»

الفصل الثامن والثلاثون

بصقة

حين وصلت إلى هذه المرحلة في قصتي، قاطعتني جدتي. قالت: «مرحى! انتظرتُ تلك القبلة أيامًا. أحب القصص التي تتخللها قبلات جيدة.»

قال جدي: «يا لكِ من مشاكسة.»

كنا نقطع الطرق المتعرجة لولاية مونتانا. لم أجرؤ على تتبُّع تقدمنا على الخريطة. إذ لم أرد أن أكتشف أننا لن نصل في الوقت المناسب. ظننت أنني إن ظللت أتحدث، وأصلي في سري، وإن ظللنا نمضي في تلك الطرق المحفوفة بالجبال، فستكون لدينا فرصة.

قالت جدتي: «لكن ماذا عن فيبي؟ ماذا عن تقبيل أمها للمختل؟ لم أحب تلك القبلة كثيرًا. بل أحببت الأخرى؛ التي تبادلتِها أنتِ وبِن.»

وجدتُ فيبي جالسةً على المقعد في محطة الحافلة. سألتني: «أين كنتِ؟»

لم أخبرها عن مقابلتي لبِن أو لأمه. أردت أن أفعل، لكني لم أستطع. «لقد خِفتُ يا فيبي. لم أطق البقاء هناك.»

قالت: «وأنا من ظننتكِ الشجاعة فينا. على كل حال لا يُهِم. لا شيء يُهِم. لقد فاض بي الكيل من ذلك الأمر.»

«ماذا حدث؟»

«لا شيء. ظلا جالسين على المقعد يستمتعان بوقتهما. لو كنتُ ماهرةً في قذف الحجارة مثلكِ لاستهدفتُ مؤخرة رأسيهما. هل لاحظتِ شعرها؟ لقد قَصَّته. صار قصيرًا. تعلمين ماذا فعلَت أيضًا؟ في منتصف حديثهما انحنت وبصقت على العشب. بصقت! كان ذلك مقززًا. وماذا فعل المختل حين بصقت؟ ضحك. ثم انحنى وبصق.»

«لمَ فعلا ذلك؟»

«من يدري؟ لقد فاض بي الكيل. لا أمانع أن تبقى أمي هنا. هي لا تحتاجني. لا تحتاج إلى أي منا.»

ظلت فيبي تردد ذلك في الحافلة طَوال طريق العودة. كانت في حالة مزاجية كئيبة للغاية. حين وصلنا إلى منزل فيبي، كان أبوها قد أوقف لتوه السيارة في المرأب. اندفعت برودنس من المنزل وهي تقول: «لقد اتصلت، لقد اتصلت، لقد اتصلت! لقد اتصلت أمي! ستعود.»

غمغمت فيبي قائلة: «رائع.»

قال أبوها: «ماذا قلتِ يا فيبي؟»

«لا شيء.»

قالت برودنس: «ستصل غدًا. لكن ...»

قال أبوها: «لكن ماذا؟ ماذا قالت أيضًا؟»

«بدا صوتها متوترًا. أرادت أن تتحدث إليك ...»

«هل تركَت رقمًا للاتصال بها؟ سوف أتصل بها ...»

«كلا، لم تترك رقمًا. طلبَت أن أقول لكَ ألَّا تطلق أي أحكام مسبقة.»

قال أبوها: «ماذا الذي يُفترَض أن يعنيه ذلك؟ أُطلِقُ أحكامًا مسبقة بشأن ماذا؟»

قالت برودنس: «لا أعرف. آه، تذكرت شيئًا آخر! والأهم أنها قالت إنها ستُحضِر معها شخصًا ما.»

قالت فيبي: «هذا رائع! رائع جدًّا!»

قال أبوها: «فيبي ...؟ برودنس ... هل ذكرَت من يكون الشخص الذي ستحضره معها؟»

«صدقًا لا أعرف.»

«هل أتت على ذكر ذلك الشخص على الإطلاق؟ هل ذكرت اسمًا؟» كان انفعاله يزداد.

قالت برودنس: «كلا. لم تذكر اسمًا. لم تزد على أنها قالت إنها ستحضره معها ...»

«تحضره؟»

نظرت لي فيبي. وقالت: «تبًّا»، ودخلت إلى البيت صافدةً الباب خلفها.

لم أصدق ذلك. ألن تخبر أباها بما رأته؟ أنا لم أكن أطيق الانتظار حتى أخبر أبي، لكن حين عدت إلى البيت، كان جالسًا هو ومارجريت في الشرفة.

قالت مارجريت: «أخبرني أخي أنكِ تدرسين في فصل اللغة الإنجليزية الذي يُدرِّسه. يا لها من مفاجأة!» لا بدَّ أنها كانت قد أخبرت أبي بذلك بالفعل، إذ لم يَبدُ متفاجئًا. «إنه معلم بارع. هل تحبينه؟»

«أظن ذلك.» لم يكن ذلك ما أريد الحديث بشأنه. أردتُ أن تختفي مارجريت.

اضطررت للانتظار حتى رحيل مارجريت كي أخبر أبي عن أم فيبي، ولما أخبرته، لم يزد عن أن قال: «إذن ستعود السيدة وينتربوتوم إلى بيتها. هذا جيد.» ثم سار إلى النافذة ووقف يحدق منها لوقت طويل للغاية، فعلمت أنه كان يفكر في أمي.

أمضيت تلك الليلة بطولها أفكر في فيبي وبرودنس والسيد وينتربوتوم. بدا أن عالمهم كله سوف ينهار غدًا حين تدخل عليهم السيدة وينتربوتوم متأبطةً ذراع المختل.

الفصل التاسع والثلاثون

العودة إلى البيت

صباح اليوم التالي، اتصلت بي فيبي تتوسل أن آتيَ إليها. قالت: «لا أطيق الأمر. أحتاج إلى شاهد.»

«شاهد على ماذا؟»

«أحتاج إلى شاهد ليس إلَّا.»

«هل أخبرتِ أباكِ؟ عن أمك و...»

قالت فيبي: «هل تمزحين؟ عليك أن تريه. لقد قضى هو وبرودنس الليلة الماضية وصباح اليوم في تنظيف البيت. دعكا الأرضيات والحمامات، ونظفا التراب بإمعان، وغسلا الملابس وكوياها، ونظفا السجاجيد بالمكنسة. ثم ألقيا نظرةً متمعنةً على عملهما. وقال أبي: «ربما يبدو ذلك أفضل من اللازم. ستظن أمكما أننا نستطيع العيش بدونها.» فأحدثا بعض الفوضى. وهو غاضب جدًّا مني لأني رفضت مساعدتهما.»

لم أكن أريد أن أكون شاهدةً على أي شيء، لكني كنت مثقلةً بالشعور بالذنب لهروبي يوم أمس؛ لذا وافقت. حين وصلت إلى منزلها، كانت فيبي والسيد وينتربوتوم وبرودنس جالسين يحدق بعضُهم في بعض.

سأل السيد وينتربوتوم: «ألم تقل في أي ساعة ستأتي؟»

قالت برودنس: «كلا لم تقل، وليتك تكف عن معاملتي باعتباري المذنبة في عدم إخبارها إياي بأكثر مما قالته.»

كان السيد وينتربوتوم في حال يُرثى لها. هبَّ واقفًا كي يسوي وسادة، ثم جلس، ثم هبَّ واقفًا مرة أخرى وأعاد الوسادة إلى وضعها الأول. خرج إلى الفناء الخلفي وظل يسير في دوائر. وبدَّل قميصه مرتين.

قلت له: «أتمنى ألا تمانع وجودي هنا.»

قال السيد وينتربوتوم: «ولمَ أمانع؟»

في اللحظة التي ظننت فيها أنه سيُجن جنونهم جميعًا، توقَّفَت سيارة أجرة بالخارج. قال السيد وينتربوتوم وهو يفر إلى المطبخ: «لا أطيق أن أنظر.»

قالت فيبي: «لا أطيق أن أنظر أنا أيضًا.» تبعت فيبي أباها وتبعتها أنا.

قالت برودنس: «يا إلهي! لا أعرف ماذا دهاكما. ألستما متشوقين لرؤيتها؟»

من المطبخ، سمعنا برودنس تفتح الباب الأمامي. وسمعنا السيدة وينتربوتوم تقول: «يا حبيبتي ...» مسح السيد وينتربوتوم سطح منضدة المطبخ. وسمعنا برودنس تشهق، وسمعنا أمها تقول: «أود أن أعرفكِ بمايك.»

قال السيد وينتربوتوم: «مايك؟» كان وجهه محتقنًا. كنت ممتنةً إلى أن البيت كان يخلو من فأس وإلا أكاد أجزم أنه كان سيلتقطه ويتوجه به مباشرةً إلى مايك.

قالت فيبي: «أبي، لا تتهور ...»

كرر: «مايك؟»

نادت السيد وينتربوتوم: «جورج؟ فيبي؟» سمعناها تقول لبرودنس: «أين هما؟ ألم تخبريهما بقدومنا؟»

التقط السيد وينتربوتوم نفَسًا عميقًا. «فيبي، لست واثقًا من أنك يجب أن تشهدي ذلك أنت وسال.»

قالت فيبي: «هل تمزح؟»

التقط نفَسًا عميقًا آخر. قال: «حسنًا، حسنًا، ها نحن أولاء.» هب واقفًا وسار إلى غرفة المعيشة منتصب القامة. وتبعته أنا وفيبي.

حقًّا وصدقًا، أظن أن فيبي كادت تسقط فاقدة الوعي على السَّجادة. كان ذلك يرجع إلى سببين. الأول هو أن السيدة وينتربوتوم كانت تبدو مختلفة. لم يكن شعرها قصيرًا فحسب، بل كان أنيقًا أيضًا. كانت تضع أحمر شِفاه، وماسكارا، والقليل من مورد الوجنتين، وكانت ملابسها لا تشبه على الإطلاق أي شيء رأيتها تلبسه من قبل؛ كانت ترتدي تي-شيرت أبيض وسروال جينز أزرق وحذاءً أسود مسطح الكعب. وكان يتدلى من أذنيها قرطان دائريان فضيان. كانت تبدو مذهلة، لكنها لم تكن تشبه أم فيبي.

أما السبب الثاني الذي جعلني أظن أن فيبي كادت أن يُغشى عليها هو أن مايك بيكل، الذي كانت تحسبه مختلًّا، كان يقف في غرفة معيشتها. لم يكن التفكير في قدومه كرؤيته واقفًا أمامها فعليًّا.

لم أعرف فيما أفكر. لوهلة، فكرت أن مايك ربما كان قد اختطف السيدة وينتربوتوم، وها هو يعيدها مقابل فدية مالية أو ربما ينوي قتلنا جميعًا. لكني ظللت أتذكر رؤيتي لهما معًا يوم أمس، هذا إلى جانب أن مظهر السيدة وينتربوتوم الرائع للغاية لم يكن يدل على أنها كانت رهينة. بدت خائفة، لكن ليس من مايك. بدت خائفة من زوجها.

همست فيبي: «أبي، هذا هو المختل.»

قالت أمها وهي تلمس وجنتها بأناملها: «أوه فيبي»، وحين أتت بتلك اللفتة المألوفة، بدا على فيبي أن قلبها انفطر. عانقت السيدة وينتربوتوم فيبي، لكن فيبي لم تعانقها.

قال السيد وينتربوتوم: «نورما، أتمنى أن تفسري لنا بالضبط ما يحدث.» كان يحاول إضفاء الحزم على صوته، لكنه خرج مختَلِجًا.

حدقت برودنس في مايك. كان من الواضح أنها تجده وسيمًا وأنها كانت تغازله. أزاحت شعرها عن عنقها.

حاولت السيدة وينتربوتوم أن تعانق زوجها لكنه ابتعد عنها. قال: «أظن أننا نستحق تفسيرًا.» حدق هو أيضًا في مايك.

أهي واقعة في حب مايك؟ بدا يافعًا للغاية؛ فلم يكن يكبر برودنس بكثير.

جلست السيدة وينتربوتوم على الأريكة وبدأت تبكي. كانت لحظة عصيبة للغاية. كان من الصعب لأول وهلة فهم ما قالته. كانت تتحدث عن كونها امرأة محترمة وأن السيد وينتربوتوم لن يسامحها أبدًا، لكنها سئمت من الاحترام الزائد. حاولت بكد طَوال تلك السنوات أن تكون مثالية، لكنها مضطرة لأن تقر بأنها لم تكن مثاليةً على الإطلاق. وقالت إن ثمة شيئًا لم تخبر به زوجها قط، شيئًا تخشى ألَّا يسامحها على ارتكابه أبدًا.

كانت يدا السيد وينتربوتوم ترتعشان. لم ينطق بكلمة. أشارت السيدة وينتربوتوم إلى مايك كي يجلس إلى جوارها على الأريكة. ازدرد السيد وينتربوتوم لعابه عدة مرات، لكنه لم ينطق بكلمة.

قالت السيدة وينتربوتوم: «مايك ابني.»

هتفتُ أنا والسيد وينتربوتوم وبرودنس وفيبي بصوت واحد قائلين: «ابنكِ؟»

حدقت السيدة وينتربوتوم في زوجها. «جورج، أعلم أنك ستظن أني لست امرأةً محترمةً أو لم أكن كذلك، لكن ذلك حدث قبل أن ألتقيك، واضطررت لأن أتركه لأسرة متبنية، أكاد لا أطيق التفكير في ذلك و...»

قال السيد وينتربوتوم: «محترمة؟ محترمة؟ فليذهب الاحترام إلى الجحيم!» لم تكن من عادة السيد وينتربوتوم أن يسب.

نهضت السيدة وينتربوتوم. «كان مايك هو من وجدني، وفي البداية خفت مما قد يترتب على ذلك. فقد عشت حياةً بسيطةً للغاية ...»

أمسكت فيبي بيد أبيها.

«... واضطررت لأن أرحل كي أصلح الأمور. لم أقابل والدَي مايك بالتبني بعد، لكني تحدثت طويلًا مع مايك، وأفكر في أن ...»

أطرق مايك إلى قدميه.

سألها السيد وينتربوتوم: «هل سترحلين؟»

ذهلت السيدة وينتربوتوم وكأنما تلقت صفعة منه. «أرحل؟»

قال السيد وينتربوتوم: «أعني ترحلين مجددًا.»

قالت: «فقط إن أردتني أن أرحل. فقط إذا كنت لا تستطيع العيش مع امرأة تفتقر إلى الاحترام ...»

قال السيد وينتربوتوم: «قلت فليذهب الاحترام للجحيم! ما كل ذلك التركيز على الاحترام؟ ليس الاحترام هو ما يعنيني هنا. ما يعنيني أكثر هو أنكِ لم تستطيعي، أو لم تشائي أن تخبريني بأي من ذلك.»

نهض مايك. قال: «عرفت أن الأمر لن ينجح.»

قال السيد وينتربوتوم: «أنا لا أُكنُّ لكَ أي ضغينة يا مايك؛ كل ما في الأمر أنني لا أعرفك.» ثم نظر إلى زوجته. «ولا أعرفكِ أنتِ أيضًا.»

تمنيت أن أختفي. في الخارج، كانت الأوراق تتساقط على الأرض، اعتراني حزنٌ دفين، حزنٌ اعتصر روحي. كنت حزينةً على فيبي وعلى والديها وعلى برودنس ومايك، وعلى الأوراق التي تذوي، وعلى نفسي، على شيءٍ كان قد فُقِد مني.

من خلال النافذة، رأيت السيدة بارتريدج تقف في الممر الأمامي لمنزل فيبي.

قال السيد وينتربوتوم: «أظن أن علينا جميعًا أن نجلس ونتحدث. ربما يمكننا أن نخرج بحل ما.» ثم تصرَّف ما رأيته في نظري تصرفًا نبيلًا. اقترب من مايك وصافحه وقال: «لطالما ظننتُ أن وجود ابن سيكون إضافةً حسنةً لأسرتنا.»

بدا الارتياح على السيدة وينتربوتوم. وابتسمت برودنس لمايك. أما فيبي فكانت تقف جانبًا دون حَراك.

قلت: «من الأفضل أن أذهب.»

التفت الجميع لي وكأنما سقطتُ لتوي من خلال السقف. قال السيد وينتربوتوم: «أنا آسف يا سال، حقًّا آسف.» ثم قال لمايك: «سال بمثابة فرد آخر من أفراد أسرتنا.»

قالت السيدة وينتربوتوم: «أنتِ غاضبة مني يا فيبي، أليس كذلك؟»

قالت فيبي: «أجل. بكل تأكيد.» جذبتني فيبي من كمي وسحبتني نحو الباب. «أعلموني حين تقررون جميعًا عدد أفراد هذه الأسرة.»

خرجنا إلى الشرفة في نفس اللحظة التي كانت فيها السيدة بارتريدج تضع ظرفًا أبيض على الدرج.

الفصل الأربعون

الهدايا

بدا ملائمًا في هذا الجزء من قصة فيبي أن يصيح جدي: «أيدااهوو!» كنا نسير في طريق مرتفع وسط الجبال، وكنا قد عبرنا لتونا حدود ولاية مونتانا إلى أيداهو. للمرة الأولى، أيقنت أننا سنصل إلى لويستون غدًا، في العشرين من أغسطس، عيد ميلاد أمي.

اقترح جدي أن نواصل حتى مدينة كور ديلين، التي تبعد حوالي ساعة، حيث يمكننا أن نبيت ليلتنا. من هناك، كانت لويستون تبعد حوالي مائة ميل جنوبًا، وهي مسافة من السهل قطعها صباحًا. «ما رأيكِ في ذلك يا عزيزتي؟» كانت جدتي تجلس بلا حَراك وقد أسندت رأسها على ظهر المقعد وشابكت يديها في حجرها. «عزيزتي؟»

حين تكلمت جدتي، كانت الحشرجة في صدرها مسموعة. قالت: «لا بأس.»

«عزيزتي، هل أنت بخير؟»

قالت: «أنا متعبة قليلًا.»

«قريبًا جدًّا سنجد لكِ فِراشًا.» التفتَ إليَّ جدي وعلى وجهه نظرة مفعمة بالقلق.

قلت: «جدتي، لو أردتِ أن نتوقف الآن فلا بأس.»

قالت: «كلا. أود أن أبيت الليلة في كور ديلين. أرسلَت لنا أمكِ بطاقةً بريديةً من كور ديلين، وكانت عليها صورة لبحيرة زرقاء شاسعة.» سعلت سعلةً طويلةً متحشرجةً.

قال جدي: «حسنًا، ها نحن قادمون أيتها البحيرة الزرقاء الشاسعة.»

قالت جدتي: «أنا سعيدة جدًّا بعودة أم فيبي إلى بيتها. ليت أمكِ تستطيع العودة أيضًا.»

ظل جدي يومئ برأسه لخمس دقائق تقريبًا. ثم ناولني منديلًا وقال: «أخبرينا عن السيدة بارتريدج. لماذا كانت تترك ظرفًا على شُرفة منزل فيبي؟»

هذا ما أردت أن أعرفه أنا وفيبي. سألتها: «هل تريدين شيئًا ما، يا سيدة بارتريدج؟»

وضعَت يديها على شفتيها. وهمهمت.

التقطت فيبي الظرف بسرعة وفتحته.

قرأت الرسالة بصوت مسموع: «لا تحكم على أحد قبل أن تسير في دربه مسيرة قمرين.»

التفتت السيدة بارتريدج راحلةً. وقالت: «وداعًا!»

نادتها فيبي: «سيدة بارتريدج. لقد تلقينا تلك الرسالة من قبل.»

قالت السيدة بارتريدج: «عذرًا؟»

قالت فيبي: «كنت أنتِ، أليس كذلك؟ أنتِ من كنتِ تتسللين وتتركين تلك الرسائل، أليس كذلك؟»

قالت السيدة بارتريدج: «هل أعجبتكِ؟» كانت واقفةً في منتصف الممر الجانبي وقد أمالت رأسها نحونا قليلًا، وارتسمت على وجهها نظرة تساؤل، فبدت كطفلة مشاغبة. «تقرؤها لي مارجريت من الجريدة كل يوم، وحين تعجبني واحدة، أطلب منها أن تنسخها. أعتذر على إرسال تلك المتعلقة بالحكم على الآخرين من قبل. لقد نسي عقلي ذلك.»

قالت فيبي: «ولكن، لمَ كنتِ تحضرينها إلى هنا؟»

«ظننتها ستكون مفاجآتٍ سارةً لكم؛ مثل كعك الحظ، غير أني لم يكن عندي كعك أضعها فيه. على أي حال، هل أعجبتكِ؟»

نظرت لي فيبي مطولًا. ثم نزلت الدرج وقالت: «سيدة بارتريدج، متى قابلت أخي؟»

قالت السيدة بارتريدج: «قلتِ إنه ليس لكِ إخوة.»

«أعرف، لكنكِ قلتِ إنكِ قابلته. متى كان ذلك؟»

نقرت بأصبعها على رأسها. «تذكر يا عقلي. لنرَ، منذ بعض الوقت. أسبوع؟ أسبوعين؟ جاء إلى بيتي بالخطأ. وسمح لي بأن ألمس وجهه. كان وجهه يشبهكِ. لهذا ظننته أخاكِ. أليس هذا غريبًا؟»

قالت فيبي: «ليس أغرب من معظم ما حدث مؤخرًا.» بينما سارت السيدة بارتريدج مترنحةً إلى بيتها، قالت فيبي: «العالم برمته غريب يا سال.» اجتازت المرج ثم بصقت في الشارع. قالت: «هيا، فلتجربي.» بصقت أنا أيضًا في الشارع. قالت فيبي: «ما رأيكِ؟» بصقنا مجددًا.

قد يبدو ذلك مقززًا، لكن لا أخفيكم أننا استمتعنا كثيرًا بتلك البصقات. لا أظن أنني سأعرف تفسيرًا لذلك قط، لكن لسببٍ ما بدا هذا التصرف الأمثل لحظتها، ولما التفتت فيبي ودخلَت البيت، عرفتُ أنه أيضًا كان التصرف الأمثل لها.

مستعينةً بالشجاعة التي أمدتني بها تلك البصقات، ذهبت لمقابلة مارجريت كادافر، وخضت معها حديثًا طويلًا عرفت منه كيف التقت بأبي. كان الحديث معها مؤلمًا، حتى إني بكيت أمامها، لكني أدركت بعده سبب حب أبي لرفقتها.

حين وصلت إلى البيت، وجدت بِن جالسًا على السلم الأمامي. قال: «أحضرت لكِ شيئًا. إنه في الفناء الخلفي.» قادني إلى جانب البيت، فرأيت دجاجةً تتبختر على رقعة العشب الصغيرة. في حياتي لم أشعر بسعادة لرؤية دجاجة كالتي شعرت بها في تلك اللحظة.

قال بِن: «لقد أطلقتُ عليها اسمًا، لكن يمكنكِ تغييره إن أردتِ.»

حين سألته عن الاسم، مال للأمام وكذلك فعلت، وتبادلنا قبلة أخرى، قبلة رائعة، مثالية، وبعدها قال بِن: «اسمها توتة برية.»

قالت جدتي: «أوه، هل هذه نهاية قصة فيبي؟»

قلت: «أجل.» أظن أن ذلك لم يكن صحيحًا، إذ كان بوسعي أن أحكيَ المزيد. كان بوسعي أن أحكي عن تعود فيبي على وجود أخ لها، وعن «النسخة الجديدة» من أمها، وعن كل ذلك، لكن ذلك الجزء من الحكاية ما يزال جاريًا بينما نقطع تلك الجبال. كانت تلك قصة مختلفة.

«لقد أحببت قصة فيبي تلك، وسعدت لأنها لم تكن حزينة للغاية.»

أغمضت جدتي عينيها، وفي الساعة التالية التي قضيناها في الطريق إلى مدينة كور ديلين، أصغيت أنا وجدي لأنفاسها المتحشرجة. راقبتها ترقد ساكنةً، هادئةً للغاية. همستُ: «جدي. تبدو شاحبةً قليلًا، أليس كذلك؟»

قال: «أجل يا صغيرتي، تبدو شاحبةً.» زاد جدي من سرعته وانطلقنا بسرعةٍ شديدةٍ نحو مدينة كور ديلين.

الفصل الحادي والأربعون

الشُّرفة

حين وصلنا إلى كور ديلين، قصدنا المستشفى على الفور. كان جدي قد حاول إيقاظ جدتي حين وقعت عيناه على البحيرة. قال: «عزيزتي!» مالت جانبًا على المقعد. «عزيزتي!»

قال الأطباء إنها أصيبت بسكتة دماغية. أصرَّ جدي على البقاء معها أثناء خضوعها للتحاليل، مع أن طبيبًا متدربًا حاول ثنيَه. قال: «هي غائبة عن الوعي. لن تشعر بحضورك من عدمه.»

«يا ولدي، أمضيت خمسين عامًا لم أبرح جوارها إلا ثلاثة أيام رحلت فيها مع رجل البيض. ها أنا أمسك بيدها، أترى؟ لو أردتَ أن أتركها فستُضطر إلى قطع يدي.»

سمحوا له بالبقاء معها. وبينما كنتُ منتظرةً في الرَّدْهة، دخل رجل ومعه كلبة بيجل عجوز.

أخبره موظف الاستقبال أن سيضطر لأن يترك الكلبة بالخارج. قال الرجل: «وحدها؟»

قلت: «سأجالسها. كان لديَّ كلبة مثلها ذات يوم.» صحبت الكلبة للخارج، وحين جلستُ على العشب، وضعت رأسها في حجري وأطلقَت تلك الهمهمة المميزة للكلاب. كان جدي يسميها قرقرة الكلاب.

تساءلتُ إن كانت السكتة الدماغية التي أصابت جدتي لها أي علاقة بعضة الثعبان، وإن كان جدي يشعر بالذنب لخروجه عن الطريق السريع وتوقفه عند ذلك النهر. لو لم نقصد النهر، لما لدغ ذلك الثعبان جدتي. ثم بدأت أفكر في طفل أمي الذي ولد ميتًا، وأني ربما لو لم أتسلق تلك الشجرة، ولو لم تحملني أمي، لربما عاش الطفل ولما اضطرت أمي للرحيل قط، ولظل كل شيء على حاله.

لكن وأنا جالسة تدور كل تلك الأفكار في ذهني، خطر لي أن المرء لا يمكن أن يظل قابعًا في البيت لا يبرحه مثلما حاولت فيبي وأمها أن تفعلا في البداية. بل عليه أن

يخرج للدنيا ويرى أشياء ويختبر أشياء، وللمرة الأولى تساءلت إن كان لهذه الفكرة عَلاقة بمرافقتي لجدي وجدتي في تلك الرحلة.

كانت الكلبة البيجل التي ترقد في حجري تشبه كلبتنا مودي بلو تمامًا. ربتُّ على رأسها وصليتُ لأجل جدتي. تذكرت جِراء مودي بلو. في الأسبوع الأول، لم تسمح مودي بلو لأحد بالاقتراب من تلك الجراء. كانت تلعقها لتنظفها وتداعبها. وكانت الجراء تنتحب وتتحسس طريقها إليها قبل أن تنفتح أعينها.

تدريجيًّا، سمحت لنا مودي بلو بلمس الجراء، لكنها كانت تراقبنا عن كثب، وكانت تزمجر إذا حاولنا أن نأخذ أحدها بعيدًا عن ناظريها. خلال بضعة أسابيع، بدأت الجِراء تبتعد عنها بخطًى متعثرة، وكانت مودي بلو تقضي وقتها في إعادتها، لكن لما أتمت ستة أسابيع تقريبًا، بدأت تتجاهلها. كانت تزجرها وتدفعها بعيدًا عنها. قلت لأمي إن مودي بلو صارت مريعة. «صارت تكره جراءها.»

قالت أمي: «ليس ما تفعله مريعًا. بل هو عادي. فهي تحاول فطامها.»

«أيتعين عليها ذلك؟ لماذا لا يمكنها أن تظل ملازمة لأمها؟»

«لأن ذلك ليس جيدًا لها ولا لجرائها. يجب أن تستقل عنها. ماذا لو حدث شيء لمودي بلو؟ حينئذٍ لن تتمكن الجراء من العيش بدونها.»

بينما كنت جالسةً خارج المستشفى أصلي لأجل جدتي، تساءلت إن كان غرض أمي من رحلتها إلى أيداهو يشبه غرض مودي بلو من سلوكها ذاك. ربما فعلته من ناحية لأجلها، ومن ناحية أخرى لأجلي.

حين عاد صاحب الكلبة، رجعتُ للداخل. بعد منتصف الليل أخبرتني ممرضة أن بوسعي أن أرى جدتي.

كانت ترقد شاحبةً دون حَراك على السرير. كانت تتدلى من جانب فمها قطرة صغيرة من اللعاب. كان جدي منحنيًا فوقها يهمس في أذنها. قالت له ممرضة: «لا أظن أن بوسعها سماعك.»

قال جدي: «بالطبع يمكنها سماعي. سيمكنها دومًا وأبدًا سماعي.»

كانت عينا جدتي مغمضتين. وكانت ثمة أسلاك تصل بين صدرها وجهاز مراقبة، وكان هناك أنبوب ملصق بيدها. أردت أن أعانقها وأوقظها. قال جدي: «سيطول مكوثنا هنا يا صغيرتي.» دس يده في جيبه وأخرج مفاتيح السيارة. «خذيها، إذا احتجتِ إلى أي شيء من السيارة» وناولني رِزمةً مكرمشةً من النقود. «إذا احتجت إليها.»

قلت: «لا أريدُ أن أترك جدتي.»

قال: «هي لا تريدكِ أن تظلي جالسةً في هذه المستشفى العتيقة. إن كان لديكِ ما تقولينه لها فاهمسي به في أذنها، ثم اذهبي وافعلي ما عليكِ فعله. لن نذهب إلى أي مكان. سأكون وجدتكِ هنا.» غمز لي بعينه. «كوني حذرةً يا صغيرتي.»

انحنيتُ وهمستُ في أذن جدتي، ثم غادرت. في السيارة، طالعت الخريطة، ثم أسندت ظهري إلى المقعد وأغمضت عيني. كان جدي يعرف ما أنا بصدد فعله.

كان المفتاح باردًا في يدي. فحصت الخريطة مجددًا. كان طريقًا منحنيًا يربط بين كور ديلين ولويستون. شغلتُ السيارة، وقدتها إلى الوراء، ودرت بها حول موقف السيارات، ثم توقفتُ وأطفأتُ المحرك. عددتُ النقود في جيبي ونظرتُ للخريطة مرة أخرى.

على مدى عمر الإنسان، بعض الأمور تكون مهمة.

مع أني شعرت بالهلع وأنا أقود السيارة خارجةً من الموقف، هدأ هلعي حين خرجت إلى الطريق السريع. كنت أقود ببطء، وهو أمر أعرف كيف أفعله. صليت لكل شجرة عابرة، وقد كان الطريق ذاخرًا بالأشجار.

كان طريقًا ضيقًا ملتويًا يخلو من الحركة المرورية. قطعت الأميال المائة التي تفصل بين كور ديلين وقمة تل لويستون، الذي بدا لي أقرب إلى جبل منه إلى تل، في أربع ساعات. أوقفتُ السيارة في الطلَّة على قمته. في الوادي على مسافة بعيدة بالأسفل، كانت تستقر مدينة لويستون يتخللها نهر سنيك المتعرج. كان يفصل بيني وبين لويستون طريق خطر ذو منعطفات حادة ضيقة تتعرج يمينًا ويسارًا حتى أسفل الجبل.

أطللت من الحاجز باحثة عن الحافلة التي أعرف أنها لا تزال تستقر على جانبها أسفل ذلك الجانب من الجبل، لكني لم أستطع رؤيتها. ظللت أكرر مشجعة نفسي: «أستطيع فعلها. أستطيع فعلها.»

خرجت بالسيارة إلى الطريق. عند أول منعطف، بدأت دقات قلبي تتسارع. كنت أمسك بعجلة القيادة بيدين متعرقتين زلقتين. ظللت أزحف بالسيارة في الطريق ضاغطة على المكابح، لكن الطريق انعطف بشدة بالغة وانحدر إلى حد أن السيارة كانت تسير أسرع مما أردت حتى وقدمي على دواسة المكابح. عندما خرجت من المنعطف، كنت في الحارة المرورية الخارجية الأقرب إلى جانب الجرف. كان الطريق منحدرًا لأسفل بحدة لا يحده سوى حبل رفيع يصل بين أعمدة متباعدة تبين حافته.

ظل الطريق يتعرج على التل. لمسافة نصف ميل، عدت إلى الحارة الداخلية الملاصقة لجانب التل فازداد شعوري بالأمان، ثم ما لبثت أن وصلت إلى أحد تلك المنعطفات المريعة، وقطعت النصف الميل التالي في الحارة الخارجية، وامتد المنحدر المظلم لجانب التل الشديد الميل لأسفل، لأسفل، لأسفل. ظللت أسلك منعطفات الطريق؛ فأسير نصف ميل في الأمان، ثم أسلك منعطفًا فأسير نصف ميل ناحية جانب الجرف.

في منتصف الطريق لأسفل كانت توجد طلَّة أخرى، في هيئة حارة مرورية إضافية ضيقة مُحددة، ظننت أن الغرض منها لم يكن إتاحة الفرصة لمطالعة المنظر الطبيعي بقدر ما هو إتاحة الفرصة للسائقين بأن يتوقفوا ويستجمعوا قواهم. تُرى كم شخصًا ترك سيارته هنا وأكمل الأميال الباقية من الطريق لأسفل سيرًا؟ وأنا واقفة أنظر من فوق جانب الطريق، توقفت سيارة أخرى في الشرفة. خرج منها رجل ووقف بجواري يدخن سيجارة. سألني: «أين الآخرون؟»

«أي آخرين؟»

«من يرافقونكِ أيًّا كانوا. من يقود السيارة.»

قلت: «آه، في الجوار ...»

قال مشيرًا إلى مرافقي المفترض: «يلبي نداء الطبيعة، أليس كذلك؟ القيادة على تلك الطريق مريعة في الليل، أليس كذلك؟ أقطعها كل ليلة. فأنا أعمل في بولمان وأسكن بالأسفل هنا ...» أشار إلى أضواء مدينة لويستون والنهر الأسود. سألني: «هل جئتِ إلى هنا من قبل؟»

«كلا.»

«أترين ذلك؟» أشار إلى رقعة في مكان ما بالأسفل.

حملقتُ في الظلام. عندئذٍ رأيتُ قمم الأشجار المقطوعة والمسار الوعر المشقوق خلال الشجيرات. في نهاية ذلك المسار رأيت شيئًا معدنيًّا لامعًا يعكس ضوء القمر. كان ذلك ما أبحث عنه.

قال: «لقد انحرفت حافلة عن الطريق هنا، منذ عام أو يزيد. خرجت عن السيطرة في هذا الموضع بالضبط وهي تخرج من ذلك المنعطف الأخير، وانزلقت إلى تلك الطلَّة، ثم اخترقت الحاجز وظلت تتدحرج حتى تلك الأشجار. كان حادثًا مروعًا. حين عدت إلى البيت تلك الليلة، كان المنقذون لا يزالون يشقون طريقهم إليها عبر الشجيرات. أتعرفين، لم ينجُ إلا شخص واحد؟»

كنت أعرف.

الفصل الثاني والأربعون

الحافلة وشجرة الصفصاف

حين غادر الرجل في سيارته، زحفت أسفل الحاجز وشققت طريقي إلى أسفل التل باتجاه الحافلة. في اتجاه الشرق، كان الضباب واللون الرمادي يغلب على السماء، فسررت لاقتراب الفجر. في خلال العام والنصف، الفترة التي انقضت منذ أن شُق المسار، بدأت الشجيرات تنمو مجددًا. ارتطمت الأغصان المتشعبة التي بللها الندى بساقيَّ وخدشتهما، وأخفت الأرض غير المستوية تحتها فتعثرتُ عدة مرات وتدحرجتُ لأسفل.

كانت الحافلة ترقد على جانبها مثل حصان عجوز مريض، يحدق كشافاها الأماميان بأسًى في الأشجار المحيطة بها. كانت أغلب إطاراتها المطاطية مثقوبة ومائلة عن محاورها على نحو مشوَّه. تسلقت إلى جانب الحافلة، آملة أن أتمكن من الدخول إليها عبر نافذة مفتوحة، لكن على جانبها كان ثمة شقان يشبهان جرحين هائلين، ينحسر عنهما المعدن المُسنن كغطاء علبة سردين. من خلال نافذة مهشمة خلف مقعد السائق، رأيت كومةً مختلطةً من المقاعد الملتوية وقطعًا من المطاط الإسفنجي. كان كل شيء مكسوًّا بعفن أخضر مغبش.

كنت أتخيل أني سأدخل عبر نافذة وأسير في الممر، لكن لم تكن توجد مساحة بالداخل تسمح بالحركة. أردت أن أتفحص كل جزء من الحافلة بحثًا عن شيء — أي شيء — قد يبدو مألوفًا.

بحلول ذلك الوقت كانت السماء قد تحولت إلى اللون الوردي الباهت، فصارت رؤية مسار صعود التل أسهل، لكن شدة انحداره جعلت الصعود أصعب. حين وصلتُ للقمة، كان الوحل والجروح تغطي جسدي من رأسي إلى أخمص قدمي. لم ألاحظ السيارة المتوقفة خلف سيارة جدي الشيفروليه الحمراء إلا بعد أن زحفت عابرة من تحت الحاجز.

كانت سيارة المأمور. كان يتحدث عبر مذياعه حين رآني، فأشار إلى نائبه بالخروج من السيارة. قال النائب: «كنا على وشك النزول إلى هناك على إثرك. رأيناكِ واقفةً فوق الحافلة. حري بكم أن تكونوا أكثر حذرًا أيها الأطفال. ماذا كنتِ تفعلين بالأسفل في ذلك الوقت من اليوم على أية حال؟»

قبل أن أجيب، ترجل المأمور من سيارته. اعتمر قبعته وحرَّكَ غمد مسدسه. وقال: «أين الآخرون؟»

قلت: «لا يوجد آخرون.»

«من أحضركِ إلى هنا؟»

«جئت بنفسي.»

«سيارة من تلك؟»

«سيارة جدي.»

«وأين هو؟» تلفَّت المأمور يمينًا ويسارًا وكأنما يتوقع أن يكون جدي مختبئًا بين الشجيرات.

«في كور ديلين.»

«ماذا؟»

وهكذا حكيت له ما حدث لجدتي وكيف أن جدي اضطُر للمكوث معها واضطررت أنا لقيادة السيارة من كور ديلين إلى هنا «بحرصٍ شديد».

قال المأمور: «لنستوضح ذلك»، معيدًا على مسامعي كل ما قلته له، وخاتمًا كلامه بقوله: «وأنت تقولين إنكِ قدتِ السيارة من كور ديلين إلى تلك البقعة على ذلك التل وحدكِ؟»

قلت: «بحرصٍ شديد. علمني جدي القيادة، وعلمني أن أقود بحرصٍ شديد.»

قال المأمور مخاطبًا نائبه: «أخشى أن أسأل هذه الفتاة عن عمرها. لمَ لا تسألها أنت؟»

سألني النائب: «كم عمركِ؟» فأخبرته. نظر لي المأمور بحزم وقال: «لا أحسبكِ تمانعين إخباري أي ضرورة ملحة تلك التي جعلتكِ لا تستطيعين الانتظار حتى يصحبك شخص بحيازته رخصة قيادة سارية إلى مدينة لويستون الساحرة؟»

وهكذا أخبرته ببقية القصة. وحين انتهيت، عاد إلى سيارته وتحدث عبر جهاز الإرسال مرة أخرى. ثم طلب مني أن أركب معه في سيارته وطلب من نائبه أن يتبعنا

بسيارة جدي. ظننتُ أن المأمور كان على الأرجح سيزج بي في السجن، ولم تكن فكرة السجن هي ما يضايقني كثيرًا. ما كان يضايقني هو أنني اقتربت إلى هذا الحد لكنني ربما لن أتمكن من فعل ما جئت لأجله، بجانب إدراكي لضرورة عودتي إلى جدتي.

غير أنه لم يأخذني إلى السجن. بل عبر الجسر إلى لويستون وسار عبر المدينة حتى صعِد إلى تل. دخل إلى مقبرة لونجوود، وأوقف السيارة أمام بيت الحارس، ودخله. كان النائب يتبعنا في سيارة جدي. خرج الحارس وأشار إلى جهة اليمين، ثم عاد المأمور إلى السيارة وانطلق في ذلك الاتجاه.

كان المكان بديعًا. كان نهر سنيك يتعرج خلف ذلك القسم من المدينة، وكانت أشجار باسقة مورقة تنمو في مواضع متفرقة من المرج. أوقف المأمور السيارة وقادني عبر مسار إلى النهر، وهناك، على تل صغير مطل على النهر والوادي، كان يستقر قبر أمي.

على شاهده، أسفل اسمها وتاريخي ميلادها ووفاتها، حُفِر رسم لشجرة قيقب، وفي تلك اللحظة بالتحديد، حين وقعت عيناي على شاهد القبر وعلى اسمها — تشانهاسِن «شوجر» بيكفورد هيدل — وعلى الشجرة المنحوتة، أدركت بنفسي، واستقر في نفسي، أنها لن تعود. سألت إن كان بوسعي أن أجلس قليلًا؛ إذ أردت أن أحفظ المكان في ذاكرتي. أردت أن أحتفظ بالعشب والأشجار والروائح والأصوات.

في منتصف الصباح الهادئ، الذي لا يتخلل سكونه سوى هدير النهر، سمعت طائرًا. كان يشدو بتغريدة، تغريدة أصيلة عذبة. تلفتت حولي ثم رفعت بصري لشجرة الصفصاف التي تنحني نحو النهر. كانت التغريدة تأتي من قمة تلك الشجرة، ولم أُرِد أن أمعن النظر فيها؛ إذ أردت أن أتخيل أن الشجرة هي التي تغرد.

قبَّلت شجرة الصفصاف. وقلت: «عيد ميلاد سعيد.»

في سيارة المأمور قلت له: «هي لم ترحل فعلًا. هي في الأشجار تشدو.»

«فليكن يا آنسة سالامنكا هيدل.»

«الآن يمكنك أن تأخذني إلى السجن.»

الفصل الثالث والأربعون

عزيزتنا

لم يأخذني المأمور إلى السجن، بل أخذني إلى كور ديلين، وتبعنا نائبه بسيارة جدي. ألقى عليَّ المأمور محاضرةً مطولةً شديدة اللهجة عن القيادة دون حيازة رخصة، وجعلني أقطع له وعدًا بعدم القيادة مجددًا حتى أبلغ السادسة عشرة.

«ولا حتى في مزرعة جدي؟»

نظر إلى الطريق أمامه. قال: «أظن أن الناس لهم أن يفعلوا ما يحلو لهم داخل مزارعهم، ما دامت لديهم مساحة كافية للمناورة وما داموا لن يعرضوا حياة البشر والحيوانات للخطر. لكني لا أقول إنك ينبغي أن تفعلي ذلك. أنا لا أعطيكِ الإذن به أو ما شابه.»

طلبت منه أن يخبرني عن حادثة الحافلة. وعندما سألته عما إن كان موجودًا تلك الليلة، وإن كان قد رأى أحدًا ممن أخرجوهم من الحافلة، فقال: «أنت لا تريدين معرفة كل تلك التفاصيل. لا ينبغي للمرء أن يفكر في تلك الأمور.»

«هل رأيت أمي؟»

«رأيت العديد من الأشخاص يا سالامنكا، وربما أكون قد رأيت أمك وربما لا، لكن يؤسفني أن أقول لكِ إنني لو رأيتها ما كنت لأعرف ذلك. أتذكر مجيء أبيكِ إلى قسم الشرطة. أتذكر ذلك، لكني لم أكن معه حين ... لم أكن حاضرًا حين ...»

قلت: «هل رأيتَ السيدة كادافر؟»

قال: «كيف تعرفين بأمر السيدة كادافر؟ بالطبع رأيتها. الجميع رآها. بعد تسع ساعات من انقلاب الحافلة، وأثناء حمل نقالاتٍ كثيرة إلى أعلى التل، ولما فقد الجميع الأمل؛ خرجت يد من النافذة وصاح الجميع إذ كانت اليد تتحرك.» نظر إليَّ نظرة سريعة. «أتمنى لو كانت يد أمكِ.»

قلت: «كانت السيدة كادافر تجلس بجوار أمي.»

«أوه!»

«كانتا غريبتين حين استقلتا الحافلة، لكن حين نزلتا منها بعد ستة أيام، كانتا قد صارتا صديقتين. حكت أمي للسيدة كادافر عني وعن أبي وعن مزرعتنا في بايبانكس. كما أخبرتها عن الحقول والتوت البري ومودي بلو والدجاج والشجرة الشادية. أظن أن إخبارها السيدة كادافر بذلك كله يعني أنها حتمًا كانت تفتقدنا، ألا تظن ذلك؟»

قال المأمور: «بل أنا متيقن منه. لكن كيف تعرفين كل ذلك؟»

وهكذا أخبرته بأن السيدة كادافر حكت لي ذلك كله يوم عودة أم فيبي. أخبرتني بزيارة أبي لها في المستشفى في لويستون بعد أن دفن أمي. جاء ليزور الناجية الوحيدة من حادثة الحافلة، ولما عرف أن السيدة كادافر كانت تجلس بجوار أمي، بدآ يتحدثان عنها. ظلا يتحدثان لست ساعات.

أخبرتني السيدة كادافر عن تبادلها الرسائل هي وأبي، وعن حاجة أبي للابتعاد عن بايبانكس لفترة. سألت السيدة كادافر لماذا لم يخبرني أبي كيف التقيا فقالت إنه حاول لكني لم أود سماعه، ولم يرد هو أن يثير استيائي. ظن أني قد أكره مارجريت لأنها نجت في حين ماتت أمي.

سألتها: «هل تحبينه؟ هل ستتزوجينه؟»

قالت: «يا إلهي! هذا حديث سابق لأوانه بعض الشيء. هو متشبث بي لأني لازمت أمكِ وكنت ممسكةً بيدها في لحظاتها الأخيرة. أبوك ليس مستعدًّا بعد لأن يحب غيرها. كانت أمكِ امرأة فريدة.»

هذا صحيح. كانت فريدة.

مع أن السيدة كادافر أخبرتني كل ذلك، وأخبرتني كيف أنها لازمت أمي في لحظاتها الأخيرة، لم أصدق أن أمي ماتت بالفعل. ظننت أنه ربما وقع خلط ما. لا أعرف ماذا كنت آمل أن أجد في لويستون. ربما توقعت أن أراها تسير في حقل وأناديها فتقول: «أوه، سالامنكا، ذراعي اليمنى، أوه سالامنكا، خذيني للبيت.»

نمت أثناء الخمسين ميلًا الأخيرة من الطريق إلى كور ديلين، واستيقظت لأجد نفسي جالسةً في سيارة المأمور أمام مدخل المستشفى. كان المأمور يخرج من المستشفى. ناولني ظرفًا ثم دلف إلى جواري في المقعد.

كان الظرف يحوي رسالةً قصيرةً من جدي مكتوبًا فيها اسم النُّزُل الذي يقيم فيه. وتحت ذلك كتب: «يؤسفني أن أبلغكِ أن عزيزتنا تُوفِّيَت في الساعة الثالثة من صباح اليوم.»

في النُّزُل، كان جدي جالسًا على جانب السرير يتحدث في الهاتف. حين رآني أنا والمأمور عند الباب، وضع سماعة الهاتف وضمني إليه. أخبر المأمور جدي بأسفه الشديد وقال إنه لا يرى أن الوقت أو المكان مناسبين لإلقاء محاضرة عن قيادة الحفيدات القاصرات سيارة على طريق جبلي في منتصف الليل. ناول جدي مفاتيح سيارته وسأله إن كان يحتاج إلى المساعدة في أية ترتيبات.

قال جدي إنه تدبر بالفعل معظمها. أُرسِل جثمان جدتي إلى بايبانكس بالطائرة، حيث سيستقبله أبي. وسأنهي أنا وجدي الإجراءات اللازمة في كور ديلين ونغادر صباح اليوم التالي.

بعد أن غادر المأمور ونائبه، وقعت عيني على حقيبة أمتعة جدي وجدتي المفتوحة. بداخلها اختلطت أغراض جدتي بملابس جدي. التقطتُ بودرة الأطفال الخاصة بها وشممتها. على المكتب، كانت تستقر رسالة مكرمشة. حين رآني جدي أنظر إليها، قال: «كتبتُ لها رسالةً ليلة أمس. رسالة غرامية.»

استلقى جدي على السرير وحدَّق في السقف. قال: «يا صغيرتي، أنا أفتقد عزيزتي.» غطى عينيه بإحدى ذراعيه. وبيده الأخرى ربت على المساحة الخاوية بجواره. قال: «هذا ليس ... هذا ليس ...»

قلت: «هَوِّن عليك.» جلستُ على الجانب الآخر من السرير وأمسكتُ يدَه. «هذا ليس فراش زوجيتكما.»

بعد خمس دقائق تقريبًا، تنحنح جدي وقال: «لكنه سيفي بالغرض.»

الفصل الرابع والأربعون

بايبانكس

عدنا إلى بايبانكس. عدت أنا وأبي للعيش في مزرعتنا، ومعنا جدي.

دُفنَت جدتي في غابة الحور الرجراجي التي عُقِد فيها حفل زفافها على جدي. لا يمر يوم إلا ونفتقدها.

مؤخرًا، صرت أتساءل إن كان شيء يختبئ خلف المدفأة، فقد كانت المدفأة تختبئ خلف الجدار الجصي، وكانت قصة أمي تختبئ خلف قصة فيبي، وأظن أن قصة أمي وقصة فيبي تخبئان وراءهما قصةً ثالثةً عن جدي وجدتي.

في اليوم الذي أعقب يوم دفن جدتي، جاءت صديقتها جلوريا — التي كانت جدتي ترى أنها تشبه فيبي كثيرًا، والتي كانت معجبة بجدي — لزيارة جدي. جلسا على الشرفة لأربع ساعات ظل جدي يتحدث طوالها عن جدتي. سألت جلوريا إن كان لدينا أي مُسكِّن. إذ كانت تعاني صداعًا شديدًا. ولم نرَها منذ ذلك الحين.

راسلت توم فليت، الفتى الذي ساعد جدتي حين لدغ الثعبان ساقها. أخبرته أن جدتي عادت إلى بايبانكس، لكنها للأسف عادت في تابوت. ووصفت له غابة الحور الرجراجي التي دُفنَت فيها وحكيت له عن النهر القريب منها. رد على رسالتي، قائلًا إنه يشعر بالأسى لوفاة جدتي، وإنه قد يأتي يوم يزور فيه غابة الحور الرجراجي تلك. ثم سأل: «هل ضفة ذلك النهر ملكية خاصة؟»

يعطيني جدي المزيد من دروس القيادة على الشاحنة. نتمرن في مزرعة جدي القديمة التي يسمح لنا مالكها الجديد بالتجول في المسارات الترابية. يصحبنا جرو جدي البيجل الجديد الذي أسماه «هوزا هوزا (مرحى مرحى)». يربت جدي على الجرو ويدخن غليونه

بينما أقود أنا الشاحنة، ونلعب لعبة الدرب. هي لعبة ابتكرناها في طريق عودتنا من أيداهو. نتبادل فيها الأدوار في التظاهر بأننا نسير في درب حياة شخص آخر.

«لو كنت أسير في درب حياة بيبي الآن، لشعرت بالغيرة من أخيها الذي ظهر فجأة.»

«لو كنت أسير في درب حياة جدتي الآن، لأردت أن أبرد قدمي في ذلك النهر.»

«لو كنت أسير في درب حياة بِن الآن، لافتقدت سالامنكا هيدل.»

وهكذا. نسلك دروب حياة الجميع ونكتشف بتلك الطريقة أمورًا مشوقة. ذات يوم، أدركتُ أن رحلتنا التي قطعناها من لويستون كانت هدية جدي وجدتي لي. أرادا أن يمنحاني الفرصة لأسير في درب أمي؛ لأرى ما رأته وأختبر ما قد تكون شعَرَت به في رحلتها الأخيرة.

أدركتُ أيضًا أن أسبابًا عديدة منعت أبي من أن يأخذني معه إلى أيداهو حين تلقَّى خبر وفاتها. كان الحزن يعتصره، وكان يحاول أن يجنبني إياه. لم يستوعب أن عليَّ أن أذهب وأرى بنفسي إلا مؤخرًا. لكنه كان محقًّا في شيء واحد: لم تكن ثمة حاجة لأن نعيد جثمانها إلى هنا، لأن روحها حاضرة في الشجر، وفي الحظيرة وفي الحقول. أما جدي فأمره يختلف. هو بحاجة إلى وجود جدتي هنا. بحاجة لأن يسير إلى غابة الحور تلك ليقابل عزيزته.

في عصر أحد الأيام، بعد أن تحدثنا عن سرقة بروميثيوس للنار من الشمس كي يمنحها للبشر، وعن فتح باندورا للصندوق المحرم الذي يحتوي جميع شرور العالم، قال جدي إن تلك الأساطير نشأت لحاجة البشر إلى تفسير لمصدر النار الأول ولسبب وجود الشر في العالم. جعلني ذلك أفكر في فيبي والمختل، وقلت: «لو أنني كنت أسلك درب حياة فيبي لاضطررتُ إلى التصديق في وجود المختل وفي أن السيدة كادافر سفاحة لتفسير اختفاء أمي.»

أظن أن فيبي وأفراد أسرتها ساعدوني. ساعدوني في أن أفكر في أمي، وفي أن أفهمها. كانت حكايات فيبي الخيالية تشبه أمانيَّ الفارغة؛ لفترة احتجت أن أصدق أن أمي لم تمُت وأنها سوف تعود.

ما زالت تراودني أماني فارغة في بعض الأحيان.

يبدو لي أننا لا نستطيع تفسير جميع الأمور المريعة في العالم مثل الحرب والقتل والأورام الدماغية، أو دفعها عنا، لذا نلتفت إلى الأمور المخيفة الأقرب لنا ونظل نُضخِّمها حتى تنفجر. فإذا بنا نكتشف أننا نقدر على مواجهة ما بداخلها، وأنه ليس بالبشاعة

التي كانت تبدو عليها في البداية. من المطمئن أن نكتشف أنه قد يوجد في العالم سفاحون ومختطفون، لكن أغلب الناس يشبهوننا كثيرًا؛ أحيانًا يتملكهم الخوف، وأحيانًا يتحلون بالشجاعة، وأحيانًا يكونون قساة وأحيانًا لطفاء.

أيقنت أن الشجاعة هي أن تنظر داخل صندوق باندورا محاولًا قدر استطاعتك ألا تطرف، ثم تلتفت إلى الصندوق الآخر، صندوق الأشياء الجميلة الدافئة، كتقبيل أمي للأشجار، وجدتي وهي تقول: «مرحى مرحى!» وجدي وعبارته عن فراش الزوجية.

ما زلت أحتفظ بالبطاقات البريدية التي أرسلتها أمي وبخصلة شعرها تحت ألواح الأرضية في غرفتي. حين رجعت إلى البيت، أعدت قراءة جميع البطاقات البريدية. زرت مع جدي وجدتي جميع الأماكن التي زارتها أمي. تلال بلاك هيلز، وجبل راشمور، ومتنزه بادلاندز؛ البطاقة الوحيدة التي لا تزال قراءتها صعبة على نفسي هي التي تلقيتها من كور ديلين بعد وفاتها بيومين.

وأنا أقود شاحنة جدي برفقته، أحكي له القصص التي كانت أمي تحكيها لي. قصته المفضلة هي قصة من تراث قبيلة نافاهو عن إستاناتليهي. وهي امرأة لا تموت أبدًا. تكبر من كونها طفلة رضيعة لتصبح أمًّا ثم امرأة عجوز ثم تعود رضيعة مجددًا، مرارًا وتَكرارًا، لآلاف الحيوات. تروق تلك الفكرة لجدي، وتروق لي كذلك.

ما زلت أتسلق شجرة القيقب السكري، كما أني سمعت الشجرة الشادية وهي تشدو. شجرة القيقب هي المكان الذي أقصده لأفكر. وأنا جالسة تحتها أمس، أدركت أني أشعر بالغيرة من ثلاثة أشياء.

الشيء الأول تافه. أغار ممن كتب عنها بِن في دفتر يومياته — أيًّا كانت، لأنها لم تكن أنا.

الشيء الثاني هو أني أغار من أن أمي أرادت إنجاب أطفال غيري. ألم أكن أكفيها؟ لكني حين سلكت دربها، قلت: «لو كنتُ مكان أمي، لربما أردت أبناءً آخرين؛ ليس لأنني لا أحب سالامنكا، بل لأنني أحبها كثيرًا لدرجة أني أريد المزيد منها.» ربما كانت تلك أمنية فارغة وربما لا، لكن ذلك ما أريد أن أصدقه.

أما الشيء الثالث فليس تافهًا، ولا هو شيء أستطيع التخلص منه بعد. ما زلت أغار لأن أم فيبي عادت وأمي لم تعد.

أفتقد أمي.

يراسلني بن وفيبي على الدوام. أرسل لي بن بطاقة غرامية في منتصف أكتوبر كتب فيها:

حمراء هي الأزهار،
بني هو الغبار،
رجاءً أحبيني وإلَّا أنهار.

ثم أضاف ملاحظة تقول: «لم أكتب شعرًا من قبل.»
رددت ببطاقة غرامية كتبت فيها:

جافة هي الصحراء،
ممطرة هي السماء،
حبكَ لي لم يذهب هباء.

وأضفت ملاحظة تقول: «أنا أيضًا لم أكتب الشعر من قبل.»

سيأتي بن وفيبي والسيدة كادافر والسيدة بارتريدج لزيارتنا الشهر القادم. يحتمل أن يأتيَ السيد بيركواي معهم أيضًا، لكن فيبي تأمُل ألا يأتي، فهي تظن أنها لن تُطيق قضاء وقت طويل في سيارة مع معلم. أنظف أنا وأبي المنزل استعدادًا لزيارتهم. أتشوق لأن أُري فيبي وبِن رقعةَ السباحة والحقول وشَونة التبن والأشجار والأبقار والدجاج. توتة، الدجاجة التي أهداني إياها بن، هي ملكة حظيرة الدجاج، سأريه إياها أيضًا. آمل أيضًا في بعض قبلات التوت البري.

أما في الوقت الحالي، فالوضع القائم هو أن لدى جدي جروه البيجل، ولديَّ أنا دجاجة وشجرة شادية.

مرحى، مرحى.

هنـــداوي